

فكر علمي ... ثقافة تقدمية



415

أيلول 2020

الثقافة الجديدة



فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر

محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 415

أيلول: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:

Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

ملف الذكرى السنوية للفقيد ابراهيم الخياط

مقالات

نصوص قديمة

حوارات

نصوص مترجمة

أدب وفـــــــن

لوحتا غلافي العدد للفنان : خليف محمود المحل



رغم كل الصعوبات.. نثق بقدرات شعبنا في تحقيق التغيير المطلوب!

مع وصول هذا العدد (العدد 415) من الثقافة الجديدة بين يدي قرّائنا، يكون قد انقضى قرابة خمسة اشهر على تشكيل حكومة السيد الكاظمي، وعلى اقرار منهاجها الحكومي. وهي تمثل "**حكومة لمرحلة انتقالية**"، بحسب تشخيص رئيس الوزراء في كلمته امام مجلس النواب، في جلسة التصويت على نيل الثقة. وظيفتها تحقيق مهام المرحلة الانتقالية هذه بأسرع ما يمكن. حيث انها جاءت لتكون حكومة "**حلّ.. لا حكومة ازمات**" لأنها في الاساس تمثل " **استجابة .. لأزمة اجتماعية واقتصادية وسياسية**". ولكونه - اي رئيس الوزراء - لا يريد اعطاء انطباع، او يثير اي شكل من اشكال الالتباس في ان هناك اي نوايا في اطالة المرحلة الانتقالية فقد قدم برنامجه الحكومي دون اي استفاضة.

وقد تضمن المنهاج الحكومي فعليا، مجموعة من المهمات الرئيسية، تتجاوب بهذا القدر او ذاك مع بعض المطالب التي نادى بها المنتفضون ومعهم غالبية ابناء الشعب العراقي، مقدمين في سبيل تحقيقها التضحيات الجسام.. كما ان هذه المهمات تناغمت مع الشعارات السياسية التي يرفعها العديد من القوى الوطنية والديمقراطية والمدنية عموما على مدار السنوات الماضية.

لكن هل حولت الحكومة هذه المطالب الى واقع؟ وهل اقدمت على اتخاذ خطوات واجراءات فعلية، تمكن من تحقيق العاجل والملح منها على اقل تقدير؟ وهل اوجدت آليات عمل ملموسة لإنجاز مهامها وأولوياتها، وعلى الاخص تلك التي تحتاج في تنفيذها الى الوقت، والى حشد الجهود السياسية؟ هل اطمئن المواطن الى خطوات الحكومة؟

كانت واحدة من اهم اولويات المنهاج الحكومي المُقر، تتمثل بالاستجابة لمطالب المنتفضين بالإعلان عن الجهات المسؤولة عن عمليات القتل والاعتقال والاختطاف، "**والشروع بحملة شاملة للتقصي والمساءلة بشأن احداث العنف التي رافقت الاحتجاجات وتطبيق العدالة بحق المتورطين بالدم العراقي**". وكذلك اطلاق سراح المعتقلين، والكشف عن مصير المختطفين، والتوقف عن ملاحقة الناشطين. ولكن، اذا استثنينا اطلاق الوعود، واجراء مقابلات مع ذوي الضحايا مع ما يتضمنه من رمزية غير مسبوقة، فإن ما تحقق فعليا فقير جدا، ولا يزيد عن قرار مجلس القضاء الاعلى بإطلاق سراح المعتقلين من المتظاهرين. اما "**الحملة الشاملة**" فقُزمت الى مجرد لجنة لـ"تقصي الحقائق"، شكلت في اول اجتماع لمجلس الوزراء، اضيف لها لاحقا فتح تحقيقات جنائية تفصيلية(؟!) حول كل عملية اغتيال. والى حد هذه اللحظة، لم نرّ نشاطا لهذه اللجان، كما لم نسمع انه تم الاعلان عن أي نتائج توصلت لها اللجان. ويبدو ان مآلات هذه اللجان ستكون قريبة من مصائر سابقتها.

من جهة اخرى، واذ يبقى مصير المختطفين والمغيبين غامضا، فقد استمرت عمليات مطاردة المتظاهرين والناشطين والتضييق عليهم. وعادت الاغتيالات بقوة الى الساحة. بينما تقف الحكومة واجهزتها الامنية غالبا، موقف المشدوه او المتفرج امام اشكال العنف المنفلتة هذه، والتي تقوم بها جماعات مسلحة، تعمل

خارج الاطر الامنية الرسمية بتعدد تشكيلاتها. وهي مسألة تثير ريبة المواطنين وشكوكهم حيال قدرة الحكومة على فرض هيبة الدولة، من خلال حصر السلاح بالمؤسسات الحكومية والعسكرية الرسمية.
فأحد اهم مرتكزات "**تطوير المؤسسات العسكرية الامنية واصلاحها**" - وهي ثاني فقرات مناهج الحكومة - يتطلب ضرورة ايقاف كل اشكال التجاوز على القانون، وبالتالي إلغاء اي وجود مسلح او ميلشياوي متمرد على سياسة الدولة ومؤسساتها، مهما كانت مسمياتها او صفاتها. وبدلا من الانطلاق من البديهية التي تشير الى ان حصر السلاح بيد الدولة، لا يمكن ان ينفصل ابدا عن عملية اصلاح المؤسسات الامنية والعسكرية ذاتها، عبر تعزيز عقيدتها الوطنية، وابعادها عن الصراعات السياسية والمحاصصة الحزبية الضيقة، وتخليصها من كل اشكال الفساد، فإن كل ما تم اتخاذه في هذا السياق من اجراءات، لا ترتقي الى مستوى التحديات التي يطرحها تطور الاوضاع السياسية والاقتصادية الاجتماعية والامنية عموما.

ومن ناحية أخرى، ولكونها مطلبا جماهيريا رئيسيا، اعتبر المنهاج الحكومي اجراء الانتخابات المبكرة المهمة الأرأس في سلم أولوياته، رابطا بوضوح بين ضمان حمايتها ونزاهتها بـ "**استكمال القانون الانتخابي، وتفعيل مفوضية الانتخابات وتطبيق كامل لقانون الاحزاب.... بالتعاون مع الامم المتحدة**".
لكن الاستعدادات الفعلية لإجراء الانتخابات المبكرة تلاقي مصاعب حقيقية، دون ان تشرع الحكومة ومجلس النواب باتخاذ اي اجراءات ملموسة في سبيل تذليلها. فباستثناء إعلان رئيس الوزراء لموعد اجراء الانتخابات في العام المقبل، وهو اعلان اثيرت العديد من الملاحظات حول دستوريته، لا جديد يذكر في هذا الخصوص. فما زالت الخلافات مستمرة حول ملحق قانون الانتخابات والمتعلق بتنظيم عمل الدوائر الانتخابية. بينما يستمر الصراع محتدما في سبيل الاستئثار بالتعيينات داخل مفوضية الانتخابات. حيث اثير لغط كبير حول آلية ونزاهة عملية اختيار المدراء العامين وكذلك مدراء مكاتب المحافظات.
واخيرا، لم تتخذ اي اجراءات في سبيل اخضاع واردات ونفقات الاحزاب والكيانات السياسية الى رقابة وتدقيق المفوضية وديوان الرقابة المالية. وهل شرعت دائرة شؤون الاحزاب والتنظيمات السياسية في المفوضية العليا المستقلة للانتخابات بتحريك الشكاوى والدعاوى ضد الاحزاب السياسية، التي تخالف احكام قانون الاحزاب، خصوصا تلك التي ترتبط بتشكيلات مسلحة او التي تتخذ شكل تنظيمات مسلحة. وهل ستتمكن الحكومة من حرمان الاخيرة من المشاركة في الانتخابات؟

لن ندخل كثيرا في تفاصيل وحيثيات اخفاق الحكومة أو تلكؤها - بافتراض حسن النية - في تنفيذ محاور وفقرات منهاجها. فالتساؤل الصحيح هو: ما هي الاسباب الفعلية للتلكؤ؟ ما هي اسباب التردد؟

لقد جاءت ولادة حكومة السيد الكاظمي في 7 ايار 2020 متعسرة كالعادة، فيما يبدو انه اصبح "تقليداً" سياسياً معيباً في العراق، ثم اكتمل عديد وزرائها بعد شهر. تمثل فعلا حكومة ازمة لواقع سياسي واجتماعي مأزوم. خصوصا مع التحولات الكبيرة التي حدثت في موازين القوى في ظل دخول لاعب قوي الى حلبة الصراع، وهم الجماهير المنتفضة والتي ما زالت مستعدة للانتفاض. وهي وان تمكنت من كسر ارادة القوى المنفذة بإجبار الحكومة السابقة على الاستقالة، لكنها لم تتمكن من تحويل مجريات الصراع لصالحها تماما. وبالتالي، وان فَرضت طبيعة التوازنات على القوى المتنفذة القبول في النهاية، بشخصية لترأس مجلس الوزراء، تعد نسبيا من خارج الدوائر المحاصصاتية المتعارف عليها، لكن تشكيل الحكومة ذاته والاليات المتبعة باختيار الوزراء لم يخرج كثيرا عن اطار المحاصصة والتوازنات السياسية. بل اثيرت العديد من علامات الاستفهام على بعض الاسماء الاشكالية التي اختيرت في الحكومة.

كما جاء تشكيل الحكومة على خلفية ازمة صحية واقتصادية، ترافقت مع تفشي وباء كورنا، وما تركه من آثار.

وفي كل الاحوال، ورغم كل الصعوبات ومناورات القوى المتنفذة وألاعيبها ، فإننا نثق بقدرة شعبنا وقواه الحيّة على تجاوز كل العوائق، ونراهن على بديل يكسر محاولات احتكار السلطة. ان تحقيق هذا البديل يحتاج الى افق اوسع وقوى وتحالفات تكون قادرة على احداث تغيير حقيقي، وليس اعادة انتاج النظام المحاصصي/ الطوائفي الذي أصبح عائقا امام بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، دولة المواطنة. وسينتصر شعبنا في نهاية المطاف.

الذكرى السنوية الأولى لرحيل الشاعر
ابراهيم الخياط



ابراهيم الخياط.. مجدداً، لماذا؟

لم يكن اختيار هذا الملف مجرد استذكار لرفيق درب وزميل مهنة وطيب انسان وشاعرية شاعر..

لا.. هذا الملف، تقدير متواضع جدا من رد جميل الوفاء والنبل والاخلاص العميق، الذي قدمه هذا الفقيد العزيز، لمجلته الاثيرة (الثقافة الجديدة)، والى فكرها التقدمي وثقافتها التقدمية ومسيرتها النضالية والعلمية التي واكبها طوال العمر.

ولم تكن بداية عمله محررا لـ(أدب وفن) منذ العدد 363/ كانون الثاني - 2014 هي علاقته البكر بمجلتنا، فقد كانت زاده الثقافي والمعرفي الذي ينتمي اليه ويتواصل معه.

وعندما توجه للعمل معنا، نقل إلينا تجربة فريدة كانت مجلة (كلمات)، وكذلك مجلة (البحرين الثقافية) قد اعتمدتها من قبل في تكليف أحد الكتاب البارزين لكتابة افتتاحية (ادب وفن)، كما استفاد من تجربة مجلة (الآداب) اللبنانية في نشر نصوص ونقدها في العدد اللاحق.

وتفوق إبراهيم الخياط في هذه المبادرة باختياره لأسماء معروفة تكتب افتتاحية (أدب وفن)، وقد وجدتها زمليتنا (طريق الشعب) جديرة باعادة نشرها على صفحاتها.

كذلك عمل زملينا الراحل على تحقيق حضور بارز لمجلة (الثقافة الجديدة) في الاوساط الادبية، بوصفه أميناً عاماً لاتحاد الأدباء، مثلما جعل المجلة دائمة الحضور في الاوساط الأكاديمية عن طريق تحضيره رسالة الماجستير ثم الدكتوراه في كلية الاعلام بجامعة بغداد.

وحظي هذا الحضور للمجلة في هذين الوسطين، بالمساهمة في اغناء المجلة بالعديد من الابحاث الجادة والمعمقة، الى جانب المقالات الثقافية والنصوص الابداعية، التي تتميز بها صفحات (ادب وفن).

نعم، فقيدنا العزيز لم يكن اول ولا آخر من فقدنا من احبتنا ورفاقنا الذين واكبوا مسيرتنا النضالية الشاقة، الا ان ما يميز ابراهيم الخياط، انه كان الأكثر حضوراً في قلوب الادباء، مثلما كان الأكثر بهاء ونبلاً واخلاصاً وعطاءً ثقافياً، وهو يعمل معنا في تحرير (أدب فن).

لذلك آثرنا ألا تفوتنا مناسبة الذكرى الاولى لرحيله من تقديم هذا الملف الخاص به: انساناً ومبدعاً وزميلاً اثيراً، ورفيق درب ليكون جزءا من الوفاء ورد الجميل الذي اراده للادباء والمثقفين، ولزملائه في (الثقافة الجديدة).

المجد والخلود لرفيقنا المضيء ابراهيم الخياط ..

وشكرنا الجزيل لكل الاقلام الخيرة التي تفاعلت معنا، وساهمت في هذا الملف الذي يضاف الى ملفنا السابق الذي نشرناه من قبل، بعد رحيله مباشرةً.. فمثل ابراهيم الخياط، جدير بالاحتفاء حاضراً وغائباً.

الثقافة الجديدة

آب 2020

ابراهيم الخياط في ذكرى رحيله الاولى
.. وأيَّ فتىً فقدنا!

مفيد الجزائري

كان قد انقضى شهر او اكثر قليلا على انهيار نظام صدام حسين واحتلال العراق سنة 2003، حين وقع نظري أول مرة على اسم الرفيق ابراهيم الخياط، مذيِّلا رسالة وصلتنا من مدينة بعقوبة.

كنت وقتها اتهيأ لمغادرة بغداد مع بعض المواد الصحفية في طريقي الى اربيل، لأقوم مع بضعة الرفاق الذين ظلوا يديرون عمل الحزب، وبضمنه الاعلامي، من مقره في بلدة شقلاوة، بتحرير العدد الجديد من جريدتنا "طريق الشعب"، ولأطبعه في مطبعة روشنبيري الاربيلية، وأعود به سريعا الى بغداد.

كنا حتى ذلك الحين قد وزعنا في بغداد عددين من الجريدة اصدرناهما بهذه الطريقة: نحرر في شقلاوة، نطبع في اربيل، ونوزع في بغداد ومنها الى الارجاء. وخلال ذلك حوّلنا الاصدار من شهريّ حتى آذار 2003، الى اسبوعي اعتبارا من عشرينات الشهر التالي - نيسان. وها انا استعد للتحرك شمالا مرة اخرى، لأعود بعد أيام حاملا العدد الثالث الذي سيكون جاهزا للتوزيع في موعده الجديد - الاسبوعي.

كتب ابراهيم الرسالة الموجهة الى الجريدة، بصيغة اقرب الى الخبر، وعكس فيها اجواء الارتياح بين جماهير بعقوبة، خاصة في اوساط مثقفيها، للواقع الجديد الناشئ غداة انهيار سلطة الطاغية، والآمال في ان يكون الخلاص منه ومنها نهائيا. كما عكست الفرح بعودة "طريق الشعب" الى الشارع البغدادي، وكونها الجريدة الوطنية الاولى التي تلقفتها ايادي العراقيين بعد السقوط، اضافة الى الاستعداد لمراسلتها وإمدادها بأخبار المدينة ومحافظة ديالى.

كانت اول رسالة من نوعها تتسلمها الجريدة فيما هي تضع احدى قدميها من جديد في بغداد، وإذْ يتواصل الجهد كثيفا لضمان انتقالها الكامل عاجلا، وتأمين مستلزمات استقرارها وطباعتها في العاصمة.

وعندما وصلتُ مساء ذلك اليوم الى مقرنا في شقلاوة، كان اول ما انصرفت اليه هو صياغة خبر للجريدة من الرسالة. وقد احتل الخبر بعد ذلك مكانه على الصفحة الاخيرة

لعددنا الجديد، والى جانبه صورة وصلت مع الرسالة، يظهر فيها ابراهيم نفسه امام مكتبة في بعقوبة، يلتقي فيها ادباء المدينة ومثقفيها.

هكذا كانت البداية مع العزيز الفقيد ابراهيم، الذي ظل في الاشهر التالية يتواصل مع الجريدة ويسعى لإمدادها بالاخبار، وما يتيسر من المواد الثقافية. وقد سرّني جدا ان ألاحظ خلال ذلك انه يتمتع بقدرات صحفية وأدبية لافتة.

2

انفتحت الصفحة الثانية لعلاقتي مع فقيدنا، في وزارة الثقافة التي باشرتُ في آب 2003 مهمة ادارتها. فقد واجهتنا في الاشهر الاولى مهمة صعبة، تمثلت في اختيار عناصر نظيفة كفوءة مخلصة وأمينة، لادارة دوائر الوزارة وأقسامها وشعبها بدلا من مسؤوليها الموروثين من النظام المنهار. وبما ان الكثير من الامور وقتها كان لا يزال غير واضح وملتبسا، فقد كان لا بد من جهد مضاعف لضمان حسن اختيار المسؤولين في المستويات الوسطى اضافة الى العليا.

وكان المكتب الاعلامي في الوزارة احد المواقع التي سعينا في تلك الظروف المعقدة للعثور على مسؤول مناسب لها. وفي وقت لاحق من عملي في الوزارة تبيّنتُ بارتياح اننا توفقنا في اواخر سنة 2003 في اختيار أبي حيدر رئيسا للمكتب.

فقد توفق تماما في ادارة العمل، وهو ما تؤكده زميلته في المكتب آنذاك شميران مروكل، رغم انه كان يخوض التجربة الوظيفية أول مرة. لكن الاهم هو نجاحه في الجانب الاعلامي وفي نسج وتطوير الصلات مع الوسط الاعلامي الذي كان يتشكل آنذاك من جديد، متحررا من وجوه وأدوات اعلام النظام الدكتاتوري. كذلك في العلاقة مع الوسط الثقافي ذي الاهمية الكبيرة بالنسبة الى الوزارة، وهو الذي كان اصلا قريبا منه جدا وحتى لصيقا به.

وتضيف شميران انه بوجود الراحل في تلك الفترة "تحول المكتب الى ورشة عمل ودورة تدريب حقيقية للعاملين فيه. كنا نعمل مثل خلية نحل بالامكانيات المتواضعة حينها، نظرا لضآلة التخصيصات المالية للوزارة".

لقد اعتبر ابو حيدر عمله في الوزارة يومها مهمة نضالية وطنية وثقافية وتكليفا حزبيا. لهذا فانه، بعد انتهاء مهمتي في الوزارة ومجيء وزير جديد مغاير تماما في كل شيء، اختار ترك العمل فيها "احتجاجا على تولي ضابط شرطة حقيبة وزارة الثقافة"، وأعلن ذلك في كتاب استقالة موجه الى الوزير، نشره وكان له دويّه يومذاك.

3

بدأت الصفحة الثالثة لعلاقتي مع فقيدنا الخياط غداة انتهاء مهمتي في مجلس النواب سنة 2010، وعودتي الى العمل المباشر في "طريق الشعب".

حينها كان هو قد تحوّل بجلّ اهتمامه نحو اتحاد الادباء، وانخرط في فعالياته الادبية والثقافية المتنوعة، وفي نشاطه

المهني ايضا باعتباره منظمة معنية بالادباء والكتاب وبأحوالهم وحقوقهم. وخلال ذلك لم تضعف صلته بالجريدة، التي ظل يرنو اليها باعتبارها "حبه الاول" في العهد الجديد.

وعندما انصرفت انا من جديد الى الجريدة، توفرت لنا كلينا فرص افضل واكثر للتواصل والتداول والتعاون، بما يرفد عمل كل منا في ميدانه والعمل المشترك الثقافي والاعلامي، خاصة وانني كنت انشط ايضا في اطار "الجمعية العراقية لدعم الثقافة".

وقد امتدت هذه الفترة طويلا نسبيا، حتى وفاته المبكرة المفجعة في العام الماضي. وفي اثنائها حفلت حياته ومسيرته بتطورات ملفتة، ثقافيا ومهنيا على حد سواء.

فلقد تنامت قدرته الشعرية وتفتحت موهبته، واجتذب الانظار خصوصا بقصائده التي تغني مدينته الحبيبة بعقوبة، رابطا اسمها بالبرتقال ومكرسا تسميتها "مدينة البرتقال". وبلغ الذروة في ذلك حين وشح ديوانه الشعري بتسمية "جمهورية البرتقال".

والى جانب هذا اكتسب بنشاطه المثابر والمتفاني في اطار هيئات اتحاد الادباء، ثقة جمهرة اعضائه الواسعة، فانتُخب لعضوية المجلس المركزي، ثم لعضوية مكتبه التنفيذي، وأخيرا للموقع الرفيع: الامانة العامة.

كما انه انغمر في الكتابة للصحف والمجلات. وكان لجريدته "طريق الشعب" معظم حصة الاسد من نتاجه الصحفي الغزير، والذي توّجه بعموده الاسبوعي "تغريدة الاربعاء"، الذي ظل يظهر على الصفحة الاخيرة طوال سنوات، والذي كان يحظى باهتمام جمهرة واسعة من قراء الجريدة ومن متابعي العديد من المواقع الالكترونية.

أما الحصة الكبيرة الثانية من نتاجه، ومن جهده الصحفي – الثقافي، فكان من نصيب مجلته "الاثيرة" (كما كان يحلو له الوصف) وأعني "الثقافة الجديدة"، التي اعرف شخصيا مدى اعتزازه وزهوه بها وبتاريخها ومكانتها المتفردة في الثقافة والفكر العراقيين، والتي وهبها الكثير من روحه، ومن حراك ذهنه ثقافيا وصحفيا، وخصها برسالته في الماجستير المعنونة (مجلة "الثقافة الجديدة" ودورها الثقافي في العراق/ دراسة تحليلية في مضامين فنونها الصحفية في مرحلة العهد الملكي).

وقد تكفي الاشارة هنا الى انه اسهم مباشرة في تحرير المجلة عبر اشرافه منذ كانون الثاني/ 2014 حتى رحيله، على ملفها "أدب وفن"، الذي جدد فيه وطوره واجتذب للكتابة على صفحاته، العديد من الادباء والكتاب والشعراء والفنانين والنقاد والمترجمين وغيرهم، حتى غدا بحد ذاته منبرا متميزا للابداع الادبي والفني.

4

هذه العلاقة الصميمية والفاعلة للفقيد أبي حيدر مع "طريق الشعب" و"الثقافة الجديدة" وبقية منابر الحزب الاعلامية والثقافية، هي ما جعله عنصرا دائم الحضور وضروريا في مجمل الفعل

الاعلامي والثقافي لحزبنا. عنصرا مطلوبا ليس فقط في الكتابة والمشاركة المباشرة في النشاطات الثقافية والاعلامية بشتى صورها، بل كذلك في التنظيم والتدبير والتهيئة والاشراف والتنفيذ والمتابعة.

وقد تجلى هذا بأفضل الاشكال في إسهامه المهم في "مهرجان طريق الشعب" السنوي، الفريد من نوعه في العراق، وفي تاريخ الصحافة العراقية، ودوره الكبير متعدد الصور في اقامته، وفي تطويره، دورةً بعد دورة. وذلك بدءا بالدورة الاولى ربيع 2013 وانتهاء بالسادسة خريف 2018، وهي الاخيرة بعد ان تعذرت اقامة الدورة السابعة في تشرين الثاني 2019، في ظروف اندلاع الانتفاضة الشعبية.

كنت أرى أبا حيدر على مدار الساعة طوال يومي المهرجان، منذ صباح الخميس حتى مساء الجمعة، يتحرك في كل زاوية من ارض المهرجان الخضراء وفضائه الضاج بالحياة والحركة هادئا مراقبا متأملا، وتلمحه منصتا، متابعا في كل ندوة ونشاط وفعالية اعلامية او ثقافية او اجتماعية، تقام في الهواء الطلق او في احدى الخيام المنتشرة في جنبات المهرجان.

لكنك لم تكن لتستطيع رؤيته في الاشهر السابقة لافتتاح المهرجان، أشهر العمل التحضيري الطويل والدقيق والمضني، الذي كان ابو حيدر يشارك بنصيب متزايد كل عام، في تنفيذه وقيادته.

وفي دورتي المهرجان الاخيرتين بنحو خاص ارتقت بجلاء نوعا وكما مساهمته في إقامة المهرجان وتأمين نجاحه، وتلمسنا جميعا، نحن المعنيين بالمهرجان مباشرة، صعوبة تصور تنظيم وانجاح هذا الحدث متزايد الاهمية، في غياب مشاركته الفعالة والمبادرة والمبدعة.

5

اعيد قراءة السطور اعلاه، فاكتشف انها اقرب الى عناوين تخفي الكثير الكثير من التفاصيل ذات الاهمية، وهي ليست بالطبع كل العناوين الجديرة باطلاع القارئ عليها، ليتعرف بنحو افضل إلى شخصية الخياط وإنجازه، وليدرك ونحن نستذكر هذه الايام ذكرى وفاته الاولى، أيَّ فتىً فقدنا برحيله الابدي. وعذرنا أن هذا هو كل ما يسمح به المجال المتاح على صفحات مجلته ـ مجلتنا العزيزة.

إبراهيم الخياط...رجل المسؤوليات

حنون مجيد

عند الحديث عن الراحل العزيز إبراهيم الخياط، ينصرف الذهن أول ما ينصرف إلى موقعه أميناً عاماً للإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، قبل أن ينصرف إليه شاعراً، أنتج مجموعة قصائد لافتة جمعها في ديوان دالٍ أسماه "جمهورية البرتقال"، وقبل أن ينصرف إليه مناضلاً عنيداً، وهب على ساحة الشهادة والنضال، شريكة عمر كريمة ذهبت ضحية عمل إرهابي انتقامي رخيص، فضلاً عنه محرراً مرموقاً في مجلة عريقة مثل مجلة (الثقافة الجديدة)، وطالب دراسات عليا.



ينتمي إبراهيم الخياط في إطار ظهوره المعروف في بغداد، وعمله في جريدة "طريق الشعب" بعد سقوط النظام عام 2003، إلى جيل العمل السياسي العلني الدؤوب الذي اختار من بعض ما اختار في هذا المجال، ساحة التحرير، ساحة النضال والفداء التي عززت اسمها الكبير بما قدمت من آلاف الجرحى ومئات القتلى من الشباب الطالعين، إلى شرف العمل والكلمة، ومن أجل تحقيق المطالب الجماهيرية الواسعة، من مثل حرية الرأي وتوفير فرص العمل لمئات الآلاف من العاطلين، وتوزيع قطع الأرض لمن لا يملك بيتاً، والالتفات إلى حاجة الخريجين الجامعيين إلى العمل والتوظيف، واسترداد الأموال المنهوبة ومحاسبة الفاسدين، وغير ذلك من مطالب شعبية ملحة وحقيقية، ما زالت ملتهبة ومطلوبة.

ومهما يكن من أرجحية عمله هذا أو ذاك على الأعمال الأخرى، فلقد كان الخياط يتحرك على قاعدتين ذهبيتين؛ الطاقة الجسدية الشبابية الجبارة، وطاقة الإيمان المطلق بعمله المهني وغير المهني، فباتت هذه جميعاً تمثل التشكيل الأمثل لهذه الشخصية المتألقة والفريدة، بل والموهوبة كذلك.

ولعلّ من الإنصاف القول أنه انصرف إلى عمله في الإتحاد انصرافاً بارزاً، وبعقل راجح وقرار سليم، اعترف به الجميع وشهد كذلك على أهليته لموقعه دونما مواراة.

كان حيّ الشخصية، جميل الحضور بهيّ الاستقبال والتوديع، ملمّاً بتفاصيل عمله الإتحادي، وكأن لا عمل آخر لديه، عليه أن يلمّ به كذلك.

كان دائب النشاط مكرّس الوعي بأهمية

عمله هذا، محباً إياه، مؤمناً بأهميته ملتزماً بمبادئه، الأمر الذي ولد هذا الانسجام الذي تميزت به شخصيته الفائقة التي بنيت عليها كثير الآمال.

ومن المفيد القول؛ إن شخصية الراحل من الشخصيات الانبساطية المنفتحة على الخارج، لما فيها من استواء نفسي قار، أهّلها للتعامل الشفيف مع الآخرين وبيقين صادق بأن الحياة النبيلة، هي الآخر القرين والشريك كذلك، وليست الذات المنغلقة وحدها، لذا اكتسب هذا القبول الشاسع الذي كوّن رصيده الجماهيري ليتبوأ مركزه بكل جدارة واستحقاق.

تعرفت الى الخياط أول تعرفي إليه، في رحاب جريدة "طريق الشعب" عقب انهيار النظام السابق 2003. وكان كلما حضر ولا سيما مساءً وجدني أمامه، لأنني كنت أعمل طويلاً هناك، ومن هناك بدأت صداقتنا الخالدة حتى رحيله المؤلم رحمه الله.

الصدمة التي تولتنا على أثر سماعنا خبر استشهاده، ونحن في بيوتنا، في طرقنا إلى وظائفنا الحكومية، في غرفها البائسة أو الفارهة، في الشوارع والمقاهي والساحات، على مكاتب كتابتنا، أوقفتنا.. الصدمة أوقفتنا، هزّت مشاعرنا وخلطت عقولنا؛ نصدّق أو لا نصدّق، الخيار صعب وجارح وغير محتمل، ولكنه مفتوح.

أيّ دم ساح على الطريق البعيد، أي لحظة أخيرة خفق عليها القلب، وعلى أي صورة جمدت العين؟

لا.. لقد كان لإبراهيم متسع من الوقت، لكي يتذكر ويرى ويستحضر، ويبادر إلى أن يعلن عن أحرّ ألمه بكلمة؛ آخ. لمّت أو ربما هكذا، جميع ما كان لديه من أوجاع، لا يخلو منها إنسان مثله غزير الطموحات وعظيم الأحلام.

مودّع أنت أخي بجلال حياتنا التي أسبغتها علينا بكل تفاصيلك الجميلة والدافئة والنبيلة.

نم صديقي قرير العين والنفس، طاهر السريرة نقيّ الفؤاد.

إبراهيم الخياط كمثقف عضوي

د.عقيل الناصري

عاشت الانتلجينسيا العراقية منذ أن خطت سنوات فتوتها، بخاصة بعد تأسيس الدولة العراقية في العام 1921، في صراع مستديم مع واقعها ومحيطها الاجتماعي من جهة، ومع ذاتها الطامحة إلى تغيير ذلك الواقع من جهة ثانية. تجسد في صراع حول الافق لشكل الدولة السياسي ونظامها الاقتصادي، تجسدت مادياً في جملة من الصراعات الاجتصادية والسياسية والفكرية والاثنية؛ إذ ترتب على هذا الصراع عواقب جمة صاغت من الكثير منهم، ما يمكن أن نطلق عليهم (مثقفين عضويين)، ربطوا بين مهماتهم الحياتية السياسية والفكرية وغائية التغيير التي نظروا إليها كصيرورة اجتماعية سياسية. وبالتالي وسموا الثقافة العامة بطابعها الاجتماعي ذي المنحى اليساري وبنزعته التقدمية، تبلورت بكل ابعادها في تجليات الوعي الاجتماعي: الجمالية والحقوقية والفلسفية والسياسية والدينية. هذا النزوع يمكن رصده في مختلف مراحل التطور التاريخي لسيرورة الظاهرة العراقية المعاصرة.

ويمكننا رصد قرينة أخرى ارتبطت بهذه الصيرورة، مفادها أن كل عقد زمني قد أفرز مجموعة انجزت بعضاً من مهامها، وربما



الكثير منها ما أمكن، وبعضها الآخر كان ذا منزع استعجالي، يحاول مصارعة الواقع بأدوات تغييرية غير متلائمة مع ذات المهام، كما لو أنهم يصارعون السماء بأيديهم العارية، ويحفزهم إلى ذلك ايمانهم بعدالة غائية التغيير وضروراته لواقع ديناميكية التطور المرغوب وأهميته. وثالثة القرائن التي يمكن رصدها هنا.. أن الكثير من هؤلاء دعاة التغيير الاجتماعي قد نذروا أنفسهم لهذه الغائية التي هي بمعايير الاخلاق فكرة سامية، وبالجمال ايثار سيمفوني وبالسياسة غائية نبيلة، وبالتطور ضرورة موضوعية.

ومن السمات التي تميز الجيل الاول من سياسيي المعارضة الوطنية بفصائلها الثلاث: الوطني الديمقراطي التقدمي بشقيه: اليساري (الحركة الشيوعية)، والمعتدل (كالحزب الوطني الديمقراطي وجماعة الرابطة ـ عبد الفتاح إبراهيم وصحبه)، والتيار القومي.. حيث اغلب قادته الأرأسيين دخلوا العمل السياسي من خلال الصحافة والنشاطات الفكرية.. لان المنبت والتنشئة الاجتماعية ومستوى التعليم العام .. سوف لا تضعهم كذات في مصاف عوائل القوى التقليدية والثرية. هذه الظروف دفعت بابناء الطبقة الوسطى النامية الى الارتقاء الاجتماعي

من خلال الفكر، وليس الانتماء الاجتماعي والطبقي، ما عدا قلة قليلة، حيث تلعب كل من البيئة الاجتماعية دورا كبيرا في صياغة الفرد، وكذلك الصحبة ونظام القربى، لها دور أرأسي في الوعي الاجتماعي. كما يلعب الموروث السيسيولوجي والمتغيرات في العائلة من حيث الطبقة الاجتماعية وتأثيرات البيئة الحضرية والتواصل الاجتماعي والتنشئة السياسية وغيرها من العوامل بخاصة الجانب السيكولوجي للذات البشرية. لذا أفرز الواقع الاجتماعي افراداً يخرجون للحياة الاجتماسياسية وهم يحملون هموم طبقتهم وبيئتهم، ويحاولون العمل على اجتثاث المسببات المعرقة لتطورها والإرتقاء بها. وبالتالي فهم ايجابيون وانبساطيون، وبالعكس هناك من يحاول احتقار هذه البيئة رغم انه خرج للحياة الاجتماعية من رحمها، وكان من نتاجها. ويسير في ذاته الانانية الى ابعد حد. وهؤلاء سلبيون ذوو طبيعة من سماتها الانطوائية.

ولج فقيدنا الراحل الفعل العضوي منذ شبابه.. لأنه مؤمن بعدالة غائيته ولهذا دخل السجن في زمن الدكتاتورية المقيتة، واعتاد الدخول والخروج منه، كما لو أنها ضريبة النضال والوعي. ومن هذا الحراك السجني تعلم صلابة العود وتحمل المصاعب، وفهم حراكية الحياة وروابطها الفلسفية، وحل لغز محركات الصراع الطبقي، واسترشد بها ليس كمفهوم مجرد فحسب، بل كوسيلة تحقيق لغائية التغيير.. وفعل العمل الواعي. وانتبه إلى المفردة وتأثيرها.. فأسترشد بها وبمنظومة المفاهيم الجديدة التي تسربت إلى روحه بتناغم هرموني برغم استعصائها عليه في البدء.. لفهم الفكرة ومن ثم التعبير عن المكنون، سواء الذاتي أو/ و الاجتماعي، فكانت مرحلة التهيؤ إلى الانطلاق للحياة الإنسانية والشعرية.

يقول صديقه الدائم أحمد السيد علي ويصفه بالقول: "... قرأنا الكتب وعشقنا الادب ودرّسنا الشهيد الشاعر خليل المعاضيدي اللغة الانكليزية والادب العربي ايضا.. أتذكر صاحبي حين كنت أتحدث عن حرية المرأة، يقولون لي انك ليس لك أخت، فتأتي أنت وتقول أنا لي ثلاث أخوات وأتفق مع صاحبي برأيه... الى اين ذهبت تلك السنوات الراحلة يا صاحبي ابراهيم، انه اللهاث المحموم وراء الينابيع العذبة، والبحث عن ألق الخيارات الأولى في حواش الليالي الذائبة في عنفوان الصخب المنسي... عملنا معا في الحزب، وكنت تأتي الى دارنا وتسأل من هنا من الاولاد في الدار فالكل أصدقاؤك ورفاقك.. جمال وأنا ومحمد.. كنا ندرس في فلكة الروضة مساءَ ومرِّ عابرا احد جلاوزة النظام المباد وضحكنا معه، فاتهمنا بشتم رئيس النظام ونحن على اعتاب امتحانات البكلوريا، وأخذونا جميعا الى الامن جمال وإبراهيم ويوسف وانا ووضعونا في التوقيف. وكان أهلنا يبعثون لنا الكباب ملفوف بجريدة طريق الشعب. أنت توسمني صاحب حجة وعنيد، وأنا أوسمك بالذاكرة الوقادة والذكاء الحاد... وفعلها صاحبي ذو العقل البهي يوم الامتحان، نجح بتقدير فوق ما توقعت، وأخذ شهادة البكلوريا وهو في سواتر القتال الاولى...**".

فقيدنا الشاعر والأديب كمثقف عضوي يتداخل في ذاته البعدان السياسي والفكري، ولأنه، كما ارى، جاء من المعرفة الفكرية الى الفعل السياسي بتأثيرات البيئة والتواصل

الاجتماعي والنفسي مع القراءات الفكرية والفلسفية.. ولما بلغ مستوى القيادة الوسطى ابتلعته السياسة واشكالياتها بكل شموليته، واصبح الإبداع الشعري، بخاصة ما بعد الاحتلال الثالث (9/ 4/ 2003 - 31/ 12/ 2011)، غير مهتم به، مقتصرا على العمل في إدارة اتحاد الادباء والكتاب، واحيانا يكتب هذه القصيدة أو تلك في المحافل الأدبية، بمعنى اصبح الفعل الشعري تابعا للفعل الإداري والحزبي والسياسي العام.

ينتمي رفيق الدرب والكلمة، إبراهيم الخياط، إلى هذه الفئة من الانتلجنسيا العضوية.. حيث ربط مهامه الثقافية ضمن سيسيولوحية وصيرورة التغيير الغائي المرغوب والمعبر عنه جمعياً واجتماعياً.. إذ ساهم بقوة روحية وزخم فيزيائي، ليس في تهيئة تربة التغيير فحسب، بل كان مساهما مدركاً، حسب الممكن والمتاح، في فعل البناء والتغيير.. وبهذا كان واعيا لإستحداث تاريخ جديد لذاته ولحركته السياسية وانتمائه، بالمفهوم الواسع، الطبقي والوطني .. فدخل عالم الابداع ونحت الأفكار وتنامت مكونات تركيبته المعرفية وتصلبت أبعادها النفسية وتعمقت مطالعاته، فكان الخبر الصحفي منطلقه، ومن ثم العمود الصحفي المكثف ملجأه، لمعالجة نواحي الحياة المختلفة.. فخلقت منه مَعلَماً ثقافياً/ اجتماعياً ذا نظرة جدلية متجذرة. هذه العوالم الابداعية وولوجه المبكر للحياة السياسية والتثقيف الذاتي والمسؤولية الحزبية.. قد فتحت له بابا واسعا في عالم الشعر وخاضها بجدارة وثقة وابدع فيها.

كان إبراهيم الخياط يتمتع بصفة جسدت ذاتها، بين الأمنية المحببة إلى ذاته، لاننا كيسار عراقي غلبتنا الأمنية منذ عام التأسيس في منتصف الثلاثينيات، وزرعنا الأمل في النفوس المنتفضة المحبة للتغيير، واردنا تجاوز هذا الواقع المرير دون معرفة قوانينه وسنن تطوره، فكان عدم القدرة على التحليل الصائب.. وعندما تصدعت الحياة السياسية عند هجوم الجراد على طلع النخيل عام 1979 وإلى سقوطه المشين في 9 نيسان 2003، تفرقنا في منافي الغربة.. لكنه بقي مؤمناً بذاته الجمعية وحركته السياسية.

وهنا نتساءل واياكم هل اصاب أبو حيدر في اختيار الطريق الصعب.. طريق الانتماء إلى ذاته العالمة والمدركة؟ هل ارتكب الخطأ واين مكمنه وما طبيعته؟ ضمن حراكه كذات، فردية أو جمعية أو حركته السياسية، ضمن حركته اليسارية التي أخلص لها بتفاني؟ هل تغيرت نظراته إلى الحياة بعد ما شهد العالم المادي اعمق التغييرات في التوجهات الفكرية والسياسية؟ وهل أصاب ووصل المبتغى وحقق حلم حياته السياسية؟ وهل سرى اليأس إلى قلبه وضميره المعرفي قبل السياسي، نتيجة هذا التغيير الذي أطال العالم؟ وأين موقعه في هذا العالم المتغير في اركان حركته اليسارية؟

سلام عليك يوم ولدت واستشهادك
سلام عليك وما أخضر عود في الشجر
سلام عليك في يومك الموعد
وسلام عليك المفعم بتلك الروح.

ستوكهولم / السويد

**** أحمد السيد علي، في دراسته: إبراهيم الخياط في ملكوت السكينة.. وانا في مملكة الضجيج.**

إبراهيم الخياط في غياب السكون وأنا في مملكة الضجيج

احمد حسين/ السويد

أعلم ان نوح حمامة فوق سعفات النخيل... أعذب من دفق صدى الفرح البديل في الاقاصي البعيدة.

نحن الذين هدرنا العمر، ومضات سنا وصوى طريق

مطروحون في جنبات الارض...عيون مرمضة.

انا رهن حزن لم يبارحني ليل نهار، بعقوبة وبغداد بلا ابراهيم، وعيناي مشدودتان الى الوجع المتصاعد فوق اجوائها.

أما أنا فلا أخلع صاحبي.. عاشرته وخبرته وعرفته، ولذا لا اخلع صاحبي(1)

غبار الايام يتصاعد من الفواجع الى أصداء بعيدة،

ونهر الحياة يتدفق نحو الغياهب الابدية
مشبعا بكل الاغاني القديمة
لائحة العمر امتدت على كفني*

عرفتك في صباك وفي ملاعب الاتراب، وعملنا سوية في الشبيبة، وكان مسؤولنا الأول الراحل الشاعر هادي الربيعي الذي أبعده الاوغاد الى كربلاء، ورثيناه في الحوار المتمدن وفي صحف،

أتذكر صاحبي حين كنت أتحدث عن حرية المرأة، يقولون لي انك ليس لك أخت، فتأتي أنت وتقول أنا لي ثلاث أخوات، وأتفق مع صاحبي برأيه.

الى اين ذهبت تلك السنوات الراحلة يا صاحبي ابراهيم، انه اللهاث المحموم وراء الينابيع العذبة، والبحث عن ألق الخيارات الأولى في حواش الليالي الذائبة في عنفوان الصخب المنسي.

درسنا في الحدائق وعشت في داركم، وكانت حياتكم يسيرة ومتعففة، وأبيك الأبي الذي كافح بيديه وعينه روافا، وأوصاك قبل الاختفاء بأن لا تمد يدك للحاجة ولا تنحني للملّمات.

واقفا كان يكتب القصيدة
يملأ ذاكرة الرفض ... حروبا
يقرأ في العيون البليدة.. سماء
هكذا كانوا يسمونه في دائرة العشق... راهبا*

كنتَ في الجيش وانا في بغداد، ونلتقي في بعض الاحايين، وانت هربت من العسكرية والحرب القذرة. في أحد الايام هجم أوغاد الامن على حافلة نقل الركاب، وأنت بها وكنت تحمل مجموعة من الهويات المزورة فأخذوها كلها واعتقلوك كذلك مع مجموعة من الركاب المشتبه بهم، وإقتادوكم الى مديرية أمن الثورة، ووضعوكم في الحديقة ليتأكدوا من الهويات، وكان ذلك ليلا والكهرباء مطفأة، ايام الحرب الاولى، فأنت العارف بالخطوب.

فتحت بحذر شديد العصبة، وانت مكبل اليدين، وكنت معصوب العينين، فوجدت مجموعة من الرجال معصوبي العينين معك، فقمت وانت مكبل اليدين فوجدت سلم فلاح الحديقة، فصعدت فوق الجدار وقفزت الى شارع فلسطين، وانت مكبل اليدين وذهبت ليلا متأخرا الى احد معارفك في شارع فلسطين، وحرصت على ان لا يعرف اهل البيت بيدك المكبلة، فقد تخلصت بصعوبة جمة عبر إخراج احدى يديك، بينما لففت بسترتك يدك المكبلة، وقلت لأصحاب البيت انك اصبت بحادث، وطلبت منه لقاء صديقك، وكان صديقك لماحا، فبت في البيت لليوم الثاني، وذهبت الى كربلاء صباحا، والتقيت بصديقك بشير، يعمل في تصليح الثلاجات، فاستطاع بالمطرقة واللحيم فتح الاصفاد.

عجبت للبلاد التي شربتنا
وما لاح في مقلتيها شجر[2]
موزع بين الجرائد *
والبرتقال
موزع
تخفي ثنايا الارتحال
وتصنع بيتا من دموع
الليل.

عملنا معا في الحزب، وكنت تأتي الى دارنا وتسأل من هنا من الاولاد في الدار فالكل أصدقاؤك ورفاقك.. جمال وأنا ومحمد.

كنا ندرس في فلكة الروضة مساءَ ومرِّ عابرا احد جلاوزة النظام المباد وضحكنا معه، فاتهمنا بشتم رئيس النظام، ونحن على اعتاب امتحانات البكلوريا، وأخذونا جميعا الى الامن جمال وإبراهيم ويوسف وانا، وضعونا في التوقيف. وكان أهلنا يبعثون لنا الكباب ملفوف بجريدة ''طريق الشعب''.

أنت توسمني صاحب حجة وعنيد، وأنا أوسمك بالذاكرة الوقادة والذكاء الحاد.

فأنت لا تنسى شخصا قابلته قبل خمس سنوات، وتذكر انه كان لابسا ثوبا ازرق، وماذا قال في ذلك اللقاء... كنت تبهرنا بذاكرتك الجمة.

بعث لي بقصيدة لم تنشر في ديوانه في نهاية الثمانينيات.

(بساتين)
إنهم يعرفون البداية
هاهنا كانت خطواتي
وحنضلتي
دم الاسئلة ملء قميصي
وبهاء النهاية
- فأنتِ من أنتظر
لنرقص في عرسنا
نغفر لقطرات البكارة
وتلوث الراية
لأنهم يعرفون البداية
كلهم داسوا الورود
واتهموك بوأد الطيبين
فترنح
أحبيبي ترنح
ودعهم يهيمون بانثيالات
رقصتك الاولى
فهاهن نسوة الدمع تعسكّرن
بأثواب العدو،
برتقالة هي خارطة العين
وبيوتات تقرّنت،
تدوّرت
لمهابط العصافير
- يقال إنها بساتين

فتنهض في الذاكرة
وأنتِ من إنتظر
نغفر لقطرات البكارة
وتلوث الراية
لانهم يعرفون البداية
كلهم داسوا الورود
وإتهموك بوأد الطيبين
فترنح
أحبيبي ترنح
ودعهم يهيمون بانثيالات
رقصتك الاولى
فهاهن نسوة الدمع تعسكّرن
بأثواب العدو
برتقالة هي خارطة العين
وبيوتات تقرّنت،
تدوّرت
لمهابط العصافير

- يقال إنها بساتين
فتنهض في الذاكرة
وأنتِ من إنتظر
لم أكن طفلا...لكني ترنحتُ
أو رقصتُ
لم أكن طفلاَ
لكني عرفتُ
أو سمعت عن بساتين تُعلّم عشاقها الكذبَ،
ولكني هرمت بصدق تمرها
فترنحي
وأرحلي في تجاويفي
خليّ روحك في خرابها
...علّني أحدثك عن ليل البساتين
قبل أن يغر بك القمرُ المتعرش
على شاهدة النهار
وحين، تمور ذاكرتي
فأنت من أنتظر.

الهوامش:

1 - مظفر النواب
2 - خيري منصور
* كاتب هذه السطور

خارج الرثاء

عمار المسعودي



نبقى بعض الوقت لنرممَ بعضَ الأشياء
التي تستمر في إدانة غيابنا، ربما لمسات
تفاوتٍ في الخروج من باب؛ ما يسبب
كلَّ هذا الانهمار النبيل الذي يكون محطة
عذابٍ مضافةٍ، ربما مصافحة أخيرة لا تعلن
عن كلِّ هذا الغياب، أو أنك تقول لي نحن
أثمار البساتين في هذه البلاد ونحن نصلح
على طول وجودنا مادةً جيدةً للعزاء أو
حتى مجدا مضافا في غرض الرثاء وهو الذي
يكون من غيرنا نهرا يابسا في تاريخ من
العطش. واقبل ذلك وأدعوك في لحظة أن
نتشارك في حفظ الأغاني التي تعرف جيدا
أسباب نزولها مثلَ دمع.
أو تحاول أن تعيدني
إلى الصباح ذاك الذي قد نسيته من شدة سوادي
وأرضى واقبل وما كنت اعرف انك ستصل
بي إلى الدمع.
ما كنتَ تبكي وأعرف سرَّ كل ذلك من أنك ينبوع
هذا الدمع وسرُّه في رحلة الجري على خدين لعينين
لم توفقا في الاقتراب من بسمتك.
ربما أدعوك وحدك في رحلة لا تنتهي
تغيب فيها وتحضر حدَّ اني أتيقن من حضورك
وأتيقن من غيابك؛

يحصل كل هذا من دون أن تدري: إننا في
الهيام نذهب معا إلى حلقة وجد
تقطع المصائر اوصالنا ونبقى ندور نُنذَر لأولياء صالحين
ولثوار كبار كنا معا في محاولة جادة
لتقليد أفعالهم وما رُسِمتْ من صور لنهاياتهم؛
كان يحصل كلُّ هذا من دون أن ندري. منشغل
بأخذ الصور وهذا
أول شعورٍ باقتراب النهايات. مفتتن بأصدقائك
حتى الفناءً
وهذا شعور يؤدي بك إلى الخلود
ومن غير أن تدري او ربما
كنتَ تدري أما كنتَ قد رأيت كل شيء،
أما تسببتَ في كل هذه الدموع
لسبب واحد كونك كنتَ سببا بكل ذلك الفرح.
أذهب صديقي فأنا قادر على إعادتك
إلينا باسما وخالدا وحاضرا وغائبا...
اعتذر صديقي من صورتك المعلقة أعلى القلب
كوني قد نزفت أكثرها مع الدموع.

إبراهيم الخياط .. زهرة مرسومة على راية

سالم الزيدي

حين يفجع الإنسان بالأمل الذي كان متعلقًا به، تكون المصيبة والحزن على الذي رحل وهو رمز للوفاء، والتضحية، والكلمة المضيئة، وذو موقف، وصاحب قرار، ومشروع، لم أصدق حين سمعت الخبر.

قلت في نفسي: إنَّها أكذوبة، ورُبَّما محاولة بائسة من شخص يرغب أَنْ يكون في صور أو فعل بقصد... وبعد أَنْ تأكد لي حقيقة ما حدث لصديقي أبي حيدر، كارثة بقسوة، وأسى، ولوعة بفقدان الإنسان العزيز الذي كافح بإخلاص من أجل حرية النَّاس وسعادتهم. رجل غيور، ذو رحمة، وحنان، ووفاء، وقلب رؤوم، وتجده دائما يقدّم كُلّ ما لديه من طاقات لخدمة عمله، زرع المحبة، ورسخ قيم الخير ببعد جمعي، وبرؤى حضارية متجددة، ومتنورة، وبثبات، ومكابرة بحب الوطن.

إبراهيم الخياط العراقي الديالي (التولد 1960) بعقوبة، لم يكن شاعرا (فقط)، بل مبدع بقابليات في عطائه الأدبي، والسياسي، والاجتماعي، واعتمد على استيعاب الواقع الذي كان فيه بموضوعية وبصيغ اعتمد عليها في بناء شخصيته النادرة في السلوك الإنساني في ظل التحولات والتأثيرات للبيئة، وعرف قدر نفسه، ورسم مسارا يعتمد على الظرف الذاتي والموضوعي، وليس من البساطة أَنْ يتمكن الباحث عن الخياط، إلَّا أَنْ يكون متسلحا بالمعلومة؛ لاكتشاف الحقائق، واعتماد أسلوب (البحث العلميّ) في التفكير، لمعرفة أبعاد شخصيته، وأفكاره، وسلوكه، وإخلاصه، وتعامله، وتقييم كُلّ تلك الجوانب، واستنباط النتائج في نضالات الميدانية (السياسية، والأدبية، والمهنية، والاجتماعية)، التي جعلت منهُ أسطورة فعل وجداني، وعمق في التفكير، والمواقف الإنسانية، وقدرات في إقناع الآخر باعتماده الحوار الديمقراطي؛ مِمَّا جعله قائدا ميدانيا بامتياز، وصاحب موقف وقرار، ورمزا في النضال الوطني، ومدافعا عن النَّاس، ومثقفًا ثوريا ملتزما مدافعا عن المثقفين والأدباء بمسؤولية وطنية.

في المدرسة الابتدائية كان من التلاميذ المتفوقين دراسيا، هادئ الطباع، مشاركا في الأنشطة اللاصفية (الثقافية والفنية)، وكان يقف كُلّ يوم خميس يحيي العلم بشموخ ومكابرة، وينشد (قصيدة العلم) للشاعر (جميل صدقي الزهاوي):

عش خافقًا في الأعالي للبقاء
وثق بأَنْ تؤيدك الأحزاب كلهم
هذا الهتاف الذي يعلو فتسمعه
جميعه لك، فأسلم أيها العلم

وبدأت عنده تساؤلات: ماذا تعني راية الوطن؟ وما أسباب اختيار ألوانه، وماذا تعني النجوم؟ وقف أمام كلمة الدستور وماذا يحمل

من معنى؟ ومجلس الأمة وواجباته ولمن يمثل؟ وما أدوار الأحزاب في المجتمع؟

بدأت تلك التساؤلات عنده تكبر؛ مِمَّا دفعه بالبحث عن كُلّ ذلك بالاستفسار من المعلمين الذين كانوا يدرسونه، ومن والده، ومطالعته.

وفي المرحلة الثانوية توسعت مداركه وعلاقاته، وازدادت معرفته بالناس والطلبة الذين كانوا يدرسون معه في المدرسة على اختلاف أصولهم ومناطق سكناهم، والذين كانوا يحملون أفكارا مختلفة، ومن فئات طبقية.

واصل نشاطه المسرحي في ضمن أنشطة المديرية العامة للتربيّة (النشاط المدرسي)، وفرقتي (مسرح بعقوبة ومسرح ديالى)، والمسرحي إبراهيم الخياط ينظر إلى المسرح بأَنَّ لَهُ وظيفة سياسية واجتماعية لها دلالاتها المؤثرة بطبيعة الحال على مجمل حركة المجتمع؛ لأَنَّ المسرح أكثر الفنون انعكاسا للبيئة؛ فهو ظاهرة اجتماعية تضم أشكال الفنون كُلّها، وهو خلاصة للثقافات، والتقاليد، والتجارب؛ لذلك كان يؤمن بأَنَّهُ يعمل من أجل ترسيخ قيم إنسانية، وينشر المحبة والتسامح بوساطة العمل المسرحي، وكان يؤمن بأَنَّ المسرح أداة للتغيير، والمسرح سياسي لما يحمل من موضوعات ببناء الإنسان والمجتمع.

وكان يمتلك العناصر الأساسيّة في العمل المسرحي، وبحكم إدراكه بقيمة المسرح ودور الممثل، فقد وظّف إمكانيات جسده في تأدية الدور، والصوت الجميل، الذي كان يمتلكه، وخياله الواسع، وشعوره، وعواطفه، وإدراكه لأبعاد الشخصية التي كان يمثلها بقدرات إبداعية بالتعبير ببراعة، ومهارة، ومعايشة للأفعال عند تأديته الشخصية التي يمثلها.

وفي مسرحية (القائل نعم القائل لا) للكاتب الألماني (برتولت برشت)، والتي قمتُ بإخراجها عام 1973، إذ قُدّمت المسرحية في أثناء التدريب بحضور الفنان الراحل (إبراهيم جلال)، وكان الراحل إبراهيم الخياط يمثل (دور الطفل)، وبعد انتهاء العرض التجريبي بدأ الراحل الفنان (إبراهيم جلال) بالحديث عن أدب برشت، وخطة الإخراج، وثمنَّ القدرات الفنية للمشاركين، وجرت مناقشة حول تلك الملاحظات. وكان للخياط المساحة الأكبر في المناقشة، مستفسرا عن أفكار (برشت) وأعماله، ونهجه التعليمي، بملاحظات حملت الجرأة في الطرح والموضوعية.

وقد ثمنَّ الأستاذ (إبراهيم جلال) ذلك، وقال: ((إنَّ هذا الطفل سيكون لَهُ مستقبل، لأَنَّهُ عاشق للجمال)).

وذات مرة دعاني الخياط لحضور تمرين مسرحية (العودة) تأليف (حامد الخاطر) التي كان يشارك بها ممثلًا ومديرا للمسرح، واستفسرت منهُ عن سبب دعوتي؛ فقال مبتسما: ((نريد أَنْ نسمع رأيك في المسرحية؟))، وفعلا ذهبت لتلبية الدعوة ومشاهدة التمرين؛ لأَنَّني كنتُ مشرفًا للفنون المسرحية في تربية ديالى، وعندما دخلت القاعة كان التمرين مستمرا. وفي وقت الاستراحة استمعنا لملاحظات المخرج المسرحية، وبعد ذلك جرت مناقشة بين المخرج والممثلين، وبدأ الراحل إبراهيم الخياط بطرح واقع العمل، والمشكلات التي تواجه الممثلين، وخلافهم مع مخرج المسرحية، إذ إنَّ المخرج كان لَهُ رأيٌ

والممثلون لهم رأيٌ آخر؛ فطلبوا مني الحكم في الموضوع، هنا غضب المخرج، وقال: ((أنا لا أسمح بالتدخل في الموضوع))، قلت لَهُ: ((العمل المسرحي عملٍ جماعي، ولا بُدّ منِ سماع الآراء))، وفعلًا تحدث المخرج أوّلًا عن وجهة نظره، وأعقبه الخياط متحدثًا بأسلوبه المنقطع الذي اعتمد على التحليل العملي، موضحا بموضوعة المسرحية والشخصيات، والواقع الاجتماعي الذي استند إليه المؤلف، وبعد نقاش توصلنا إِلى حل المشكلة بطريقة الحوار وبشفافية؛ مِمَّا يؤكد حكمة الراحل الخياط وقدرته على إدارة العمل المسرحي، الذي هو فضاء جمعي، وكان يشكل دائما (بيضة القبان) في تنظيم العمل والتدريبات اليومية، ويعرف ظروف كُلّ شخص كان يعمل معه في فريق العمل، ويمارس الحوار؛ لإقناع كُلّ شخص حين تحدث حالة قد تسبب عرقلة لمسار المنهاج اليومي للتدريبات.

ومن الأعمال التي شارك بها:

1. مسرحية (القائل نعم القائل لا) تأليف (برتولت برشت).

2. مسرحية (الوريث)، تأليف: (نور الدِّين فارس).

3. مسرحية (الإجازة)، تأليف: (محي الدِّين زنكنة).

4. مسرحية (العودة)، تأليف: (حامد الخاطر).

5. أوبريت (الشاعر وأصنام المدينة)، تأليف: (قيس لفتة مراد).

6. وهناك مشاركات أُخرى في الأنشطة المدرسية.

الشاعر، والإعلامي، والفنان، والسياسي (إبراهيم الخياط) عرفتهُ إنسانًا بقدرات فكرية وجمالية، وبحضور مؤثر والتزام بمسؤولية وطنية.

تبا لتلك اللحظة التي خطفت قرص شمسنا الأحمر.

يا يعني على ذلك الوجه الشامخ دوما في سلطة كُلّ الفقراء...

وستبقى:

أنت يا إبراهيم الخياط أريجا للفقراء.


نقابة الفنانين
فرع ديالى

تقــدم
فرقة مسرح بعقوبة و فرقة مسرح ديالى

في مسرحية
الاجـــازة

تأليف : محي الدين زنكنة
اخراج : سالم الزيدي

اعتبارا من ١ / ٦ / ١٩٧٧

يبدأ العرض الساعة ٧ مساء

الممثلون حسب ظهورهم على المسرح

مجيد مبارك	بدور المؤلف
عبد الرزاق مصطفى	بدور شهيد
طارق العزاوي	بدور المعاون
حامد شهاب	بدور سعيد
اديب ابو نوار	بدور المدير
عقيل عباس	بدور ابراهيم ابو سليمة
مصطفى كلاز	بدور محمد - عدنان
كمال خليل ابراهيم	بدور جاسم - سليمان
ابراهيم الخياط	بدور علي - عزيز
حيدر عبود	بدور حسين - مجيد
جبار داود	بدور فلاح - عامل
ستار محمد	بدور فلاح - شرطي
خضير عباس	بدور فلاح - شرطي
منير عبد القادر	بدور فلاح ابو كوكب رئيس العمال
هناء محمد سهيلة عبد القادر	بدور سليمة
آزاد زنكنة	بدور الطفل
خالد مجيد	بدور علوي

الفنيون

المشرف العام	موسى الخالصي
المخـرج	سالم الزبيدي
مدير الانتاج	مؤيد الناصر
مدير المسرح	مجيد مبارك
م/ مدير المسرح	منير عبد القادر
تصميم الديكور	ابراهيم محي الدين
تنفيذ الديكور	جاسم مصطفى - هاشم كرادي
تصميم وتنفيذ الانارة	سالم الزبيدي - صفاء عبد الحميد عقيل عباس
الدعايـة	اديب ابو نوار - ابراهيم الخياط - مصطفى كلاز
المؤثرات الصوتية	كمال خليل ابراهيم
الملابس والاكسسوار	ابراهيم الخياط
الموسيقى والالحان	مصطفى كلاز
الماكياج	موسى الخالصي
الشعـر	اديب ابو نوار





الثقافة العراقية وإبراهيم الخياط

الأستاذ الدكتور باقر الكرباسي

لا يخفى في أن العثمانيين كانوا يفرضون سيطرتهم على العراق وبعض البلدان. وكان الواقع الاجتماعي للعراق يغلب عليه طابع الجهل والأمية والفقر، ويخضع لحكم قبلي وعشائري، تقاليده مشبعة بمفاهيم بالية، وروح الثأر والانتقام وغيرها، كانت سائدة بين هذه القبائل والعشائر. اما القانون فهو غائب ولا وجود له، في مقابل ذلك كانت هناك نهضة أوربية واضحة المعالم، انتشرت في جميع البلدان الأوربية، واتسعت هذه النهضة واثرت في تركيا العثمانية وأطراف امبراطوريتها، فكانت مصر وبلاد الشام من البلدان التي وصلت إليها هذه النهضة، فظهرت فيها دعوات للأخذ بمبادئ التحرر والتقدم ونبذ التقاليد الاجتماعية السائدة. يقول أحد الباحثين: (ان هذه المؤثرات رسمت ملامح الثقافة العراقية الجديدة في مجالات ومناح مختلفة، شعرا وقصة ومقابلة وترجمة لنتاجات أدبية وفكرية كانت تصدر في الغرب)، وعند قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية سنة 1917م، حدث تغيير بالغ الأهمية في تطور الفكر التقدمي في جميع أنحاء العالم. والعراق كان من ضمن البلدان التي تأثرت بهذه الثورة. والأدب والفكر في العراق أخذا نصيبا وافرا مما افرزته ثورة أكتوبر الاشتراكية؛ فقد وقفت هذه الثورة منذ الايام الأولى ضد النظام الامبريالي الاستغلالي، فكانت مؤيدة لثورة مصر الوطنية سنة 1929م، وايدت ثورة العراق سنة 1920 م ووجهت الثوار نحو الأسلوب العلمي الفعال، اي اسلوب النضال الجماهيري الحازم ضد سلطات الاحتلال. وما كان هذا إلا لينعكس- حسب احد الباحثين - على صفحة الفكر والأدب في العراق والبلدان العربية الأخرى، ولم يكن عبثا ان بدايات الفكر والأدب العراقيين في العشرينات من القرن الماضي، كانت بدايات ماركسية. والملفت للنظر ان المحاولات القصصية الأولى لم تكن ذات نزعة واقعية فحسب، بل واشتراكية أيضا.

بدأ العراقيون يتلقفون كل ما يصدر في لبنان وسوريا ومصر من مجلات وكتب تتحدث عن الواقعية والاشتراكية والتقدمية، فكانت سنة 1934م قد حملت حدثا مهما عندما أسس الحزب الشيوعي العراقي وأخذ ينشر أفكاره بين العراقيين كافة، وفي هذا الجو المفعم بالأفكار الجديدة والثقافة الأصيلة دأب العراقيون في البحث عن الجيد من الأفكار والنظريات، فاصدروا الصحف والمجلات التي تبشر بتأصيل ثقافة وطنية يتبناها الجميع، وفي الأول من تشرين الثاني سنة 1953م صدر العدد الأول من مجلة (الثقافة الجديدة) تحت شعار (فكر علمي.. ثقافة تقدمية) وفيها كتب الأوائل من حملة الفكر التقدمي التنويري مقالاتهم التي كانت تدعو

إلى تكوين خطاب وطني عراقي أصيل، واستمرت هذه المجلة وما زالت ترفد الثقافة العراقية بالأفكار التقدمية والتنويرية واوليات الثقافة البروليتارية ومبادئ الماركسية كنهج للتفكير والتحليل وفهم الواقع. فمنذ ان صدرت ولحد الآن ظلت وفية لشعارها، وكان الشاعر الاديب والباحث ابراهيم الخياط القادم من مدينة البرتقال (ديالى الحبيبة) من أسرة تحرير هذه المجلة المهمة، يشرف على صفحة مميزة من صفحاتها (ادب وفن). وكان يحمل فكرا واعيا وشعرا يحمل هموم شعبه. كتب في بغداد أجمل قصائده ومقالاته، وقدم قراءات دقيقة لكتب صدرت لكتاب عراقيين وغير عراقيين، نشرها في الصحف والمجلات. شاعر دافئ، ذو خطوات هادئة مشحونة بالترقب أمام هذا العالم المتصارع ليل نهار. كان الخياط يرغب في بناء جيل يؤمن بالعراق وفقا لروح التعاون والتسامح واحترام الرأي الآخر والاقرار بحقوق الآخرين ونبذ ثقافة العنف والإرهاب والتطرف. وكان يؤمن أيضا بأن الأدباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم.

ابراهيم الخياط علامة بارزة في الثقافة العراقية، يبشر بثقافة العقل، وان تستلهم ثقافتنا التطور فتعبر عن مصالح الجماهير الواسعة وتطلعاتها نحو حياة افضل، اي ان تكون ثقافة تقدمية مستقبلية الرؤية. وكان يردد دائما بأننا محتاجون إلى الحوار العاقل، وان الأدب والفكر عموما مثل الإنسان، لا يعيش ويزدهر إلا وسط الهواء النقي. عمل الخياط في اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، وأثبت نجاحه اداريا بشهادة الجميع؛ إذ كان صديقا لجميع الأدباء والمثقفين، وكان له حضور مميز في المحافل الأدبية، وفي ساحات التظاهر والاحتجاج. وفي معظم اللقاءات والاجتماعات التي كان يديرها متحدثا مفوها يقول: علينا أن نعي مسألة مهمة وهي ان الديمقراطية ممارسة، ومن خلال تلك الممارسة يتطور الوعي بأهميتها وتتطور الحياة بكل تفاصيلها. علينا جميعا العمل من أجل تجاوز تلك العقبات والتحديات من خلال اقرارنا وقبولنا بالآخرين من منطلق العراق للعراقيين جميعا. كان ابراهيم الخياط يؤمن بالإنسان وهو عنده أثمن رأس مال، ويؤمن بالعلم وهو عنده طريق التقدم.

بوفاة ابراهيم الخياط فقدت الثقافة الإنسانية بشكل عام، والشعر بشكل خاص واحدا من أبرز اعلامها المعاصرين، الذين تمسكوا بقيم الحرية والعدالة في الحياة المعاصرة؛ فالقمر لن يغادر دنياه فتراه مضيئا في كل العصور.

قال الشاعر:

اكبرت جهدك والدنيا تقرظه وما اكتفت فهي منك الألسن الشكر.

ترى.. هل كان حَدَساً؟!

عبد السادة البصري

في كلِّ مرّةٍ، أجلسُ فيها مع نفسي، تنتابني هواجسُ شتّى وتساؤلاتٌ كثيرة، وأظلُّ أرددُ:

هل كان حَدَساً؟! أم أنها مجرّد صدفة لا غير؟!

قبل أسبوع من الحادثةِ المشؤومة كنّا سهرانين في الغرفة العلوية مع ثلّةٍ من الصفوةِ المختارة، وقتها قال لي:

ــ افتتاحية أدب وفن في (الثقافة الجديدة) هذا العدد عليك!

سألتهُ: عن أي موضوع أكتب؟

أجابني: اغتيال المثقفً!

وبالفعل كان عدد المجلة الجديد يضمُّ ملفاً عن الشهيد كامل شياع، ذلك المثقف التنويري الذي اغتالته يدُ الظلام والعمالة!

أكّدَ عليَّ وقتها أن أرسل له المقال بعد أسبوع، عند عودتي للبصرة شرعت بكتابة المادة وطباعتها، ثم اتصلتُ به لأبلغه بأنني أكملتُ المقال وسأرسله إليه، أجابني: انتظر إلى يوم الخميس 29 آب، وليكن بمعيّتك حينما تأتي للإشراف على انتخابات اتحاد أدباء بابل!



لكن،،، لم تكن هناك انتخابات في ذلك الخميس، بل دموعٌ وحسراتٌ وحزنٌ يعرّشُ على النفوس والأرواح والقلوب!

إذ أنني وفي يوم الأربعاء 28 آب بعد الظهر، وما أن كنت أريد الذهاب إلى الطبيب لموعد مراجعة ابني الأصغر ـ لغرض فحصه وتحديد موعد عمليته الثانية والمؤجلة لحد الآن، رنَّ هاتفي النقال، وكان على الخط الثاني الصديق يوسف الزبيدي يصرخ:ــ

ــ عبد السادة، إبراهيم مات!

أجبته منزعجاً:ــ بشرفك، هذا مزاح، عيب يا أخي استحِ من إبراهيم! إلاّ انه أخذ يصرخ:ــ ماتَ إبراهيم مات بحادث سيارة!

عندها وقفت واجماً، لا أعرف ماذا أصنع، اتصلتُ مباشرة بأخيه الدكتور محمود، فجاءني صوته حزيناً باكياً ليؤكد الخبر، عندها أخذتني الصعقة، ولم أعرف ماذا أصنع؟!

أيعقل هذا؟! لكن الموت حق، إذاً كل شيء جائز!

لكن إبراهيم استثنائي في حياته؟!

والاستثنائي هو الذي يشتمل على كل شيء، ولا يشبهه شيءٌ ما أبداً. كنت قد أطلقتها على صديقي ونديمي وسميري وأخي وزميلي شهيد الواجب الشاعر إبراهيم الخياط، قبل رحيله المفجع بسنوات، لما لمسته فيه من تفانٍ وحرصٍ وحركةٍ دؤوب وتفكيرٍ مستمر في كل شيء، وبالأخص في عمله الإداري والحزبي، منذ أن كان ناطقاً إعلاميا باسم الأدباء ثم أميناً للشؤون الإدارية والمالية، وحينما انتخب أميناً عاماً لهم، وحتى ساعة رحيله الدامي!

يجمع بين تفكيره بالعمل وتخطيطه والقيام به في نفس الوقت، لم تثنه ظروف صعبة أو معرقلات مهما كانت، عن انجاز أي عمل!

الاتحاد بيته الثاني، إن لم يكن الأول، يفتح عينيه صباحا فيه، ولن يخرج منه إلاّ بعد منتصف الليل، سائلا عن هذا الأديب ومتحدثا مع ذاك، مهنئا هذا ومعزيّا ذاك، حاضراً في فرح وحزن هذا وعائداً المريض ذاك، في حركة لن تهدأ أبداً، هاتفه لم يبرد من الكتابة والاتصالات، يواصل متابعاته في الشمال والجنوب والوسط، يحضر هذا المحفل ويشارك في ذاك المهرجان ويتابع تلك الجلسة! دائما يؤثر الجلوس والاستماع في المقاعد الخلفية، كي يرى الجميع أمامه ويطمئن عليهم. كلمته عندما يلقيها في كل محفل عبارة عن قصيدة تحرث في ماضي وحاضر ومستقبل المكان الذي يقام فيه المهرجان أو الملتقى وناسهما!

مع الناس وبينهم، بل واحد منهم يتوجع لأوجاعهم ويفرح لأفراحهم، لا يفرّق بين هذا وذاك في الاستقبال والحفاوة، متواضع مع الجميع، حتى العامل البنغالي يحبه، ويقيم له عيد ميلاد، كي لا يشعر بالغربة عن أهله وبلده!

تعرّفت إليه منذ تسعينات القرن المنصرم، عبر النشر في المجلات وتبادل الرسائل الورقية فيما بيننا، وتوطّدت علاقتي به عندما التقينا في مربد عام 2004، لنكون اثنين في واحد، لم نفترق أبداً، غرفتنا واحدة في كل مكان نحضر فيه، ومجلسنا واحد وعامر دائما، عملت معه إدارياً فعرفته أميناً على كل شيء، ومحبا ومخلصا لكل شيء، يترك كل خصوصياته من أجل الواجب، لهذا راح ضحية واجبٍ ثقافي في شمال الوطن!

الواجب وحضور المهرجانات والملتقيات عنده مقدسة جدا. يحضر حتى وان كانت لسويعات الافتتاح فقط، إذا كان مرتبطا بواجبٍ آخر، يؤدي ما عليه عن طيبة خاطر، وراحة بال وابتسامة كبيرة تعلو محياه!

في لقاءاتنا وجلساتنا يفكر دائما بالأدباء، وكيف يقدّم لهم الأفضل والأبهى، يسعى لراحتهم، يستقبل القريب والغريب بنفس الابتسامة والحفاوة والكرم!

صفة الإيثار عنده كبيرة جداً، كم من المرّات يفضل الإقامة في فندق درجة ثالثة ويترك إخوته الأدباء في الدرجة الأولى!

وكم من المرّات، بل دائما يركب الباص مع إخوته الأدباء تاركا السيارات الفارهة لغيره؟!

وكم من المرّات ينام بلا عشاء، أو يركض مهرولاً لحضور افتتاح مهرجان ما بلا فطور صباحي؟!

وكم ،،، وكم ،،،؟!

تراه في العمل الحزبي كما عمله في الاتحاد، واقفاً على قدميه يتابع كل صغيرة وكبيرة!

لقد خسرناه جداً، ورحيله كان في غير أوانه، فالوطن والناس بحاجة إلى رجل بسجاياه في هذه الظروف!

فقدنا إنساناً ومعلّماً وقلباً كبيراً ومتواضعاً ومتسامحاً جدا!

إبراهيم الخياط لن يجود الزمان بمثله إلاّ بعد عشرات السنين!

انه الإنسان الاستثنائي الذي حمل محبة الوطن والناس بين جنبيه وسعى في خدمتهما حتى الرمق الأخير!

لهذا أقول له: نَمْ مرتاح البال صديقي الغالي، رغم أن رحيلك أفجعني جداً!

نَمْ مرتاحاً فان إخوتك الأدباء والمثقفين لن ينسوك، وستبقى معْلماً شاخصاً في كل أعمالهم، وفناراً يهديهم في ليل الظلام، ودرساً ينهلون منه تعاليم المحبة والوفاء والإيثار والإخلاص للوطن والناس في كل وقت!

سلاما لروحك صاحبي الأحب!

ولكن، هل كان طلبك مني أن أكتب ذلك المقال هو حدس لرحيلك المفاجئ؟!

وفي أدناه رسالة من الشاعر عمر السراي حول ملف الراحل ابراهيم الخياط

من الصعب أن تتحدث عن حياة قامة ثقافية وإبداعية كبيرة، استطاعت أن تزرع في أرض الأدب وجوداً لا يُنافَسُ، فكيف بك تتحدّث عن رحيله.

رحيله الذي كنتُ شريكاً لآخر شهقاته..

إنها المرة الأولى التي أكتب فيها عن هذه الحادثة، وأجدني عاجزاً إلى الآن عن الكتابة،

لذلك أتمنى أن يتقبّل القرّاء عدم قدرتي، فما زلتُ إلى الآن داخل غابة ما جرى، فكيف بي أطلّ عليها، والكتابةُ ارتقاء نحو السمو.

لذلك أعد أنْ سأتحدث بإسهاب ذات يوم عن الكائن الفريد إبراهيم الخياط،

أما الآن..

فحسبي أني سأقول: إن إبراهيم الخياط الذي لم يقوَ أحدٌ على منافسته جمالياً وهو حي، مازال متصدّراً لكل شيء جميل، ومنتصراً وملوّحاً بقلبه الأبيض، حتى وهو .. (حيٌّ) أيضاً.


مقالات

14 تموز ثورة البرجوازية الصغيرة في تاريخ العراق المعاصر

(تحليل في الجغرافية الماركسية)

عبد علي الخفاف
دكتور - استاذ متمرس

استندت هذه المقالة الى المنهج الجغرافي الماركسي فهو المنهج العلمي الأدق في تفسير الاسباب التي ترسم خريطة توزيع الظاهرة التي تدرسها الجغرافية. تأتي علمية هذا المنهج كونه يبحث في الاسباب المادية للظواهر ويبعد الأسباب المثالية باعتبارها غير واقعيه.

لقد كشفت الماركسية موضوع فائض القيمة فهو نظريتها التي لا تقل قيمتها في العلم عن قيمة النسبية والجاذبية في الفيزياء. وعن قيمة التحليل النفسي لفرويد وبافلوف وغيرها من النظريات في الكيمياء والبايولوجيا. الحقيقة ان فائض القيمة في انتاج البضائع والسلع والخدمات الذي كشفته الماركسية هو السبب في وجود الطبقات داخل المجتمع.

ان الركون الى المادية التاريخية يضفي على الجغرافية البشرية الصفة العلمية الدقيقة كما ان الركون الى المادية الديالكتيكية يضفي على الجغرافية الطبيعية ذات الصفة العلمية.

للأسف القليل من الجغرافيين العراقيين ومن جغرافي العالم العربي من يعرفون الجغرافية الماركسية حتى اولئك الذين يحملون الماجستير والدكتوراه وعددهم يتجاوز 500 جغرافي في العراق و6000 جغرافي في العالم العربي ام حملة الشهادة الجامعية الأولية (البكالوريوس - الليسانس) وهم على صعيد العالم العربي عشرات الالاف وعلى صعيد العراق أكثر من ألف جغرافي. تعود قلة المعرفة او عدم المعرفة الى محاربة الفكر الماركسي في عالمنا العربي من قبل المستعمر الغربي - الانجليزي والفرنسي والايطالي - سواء في مرحله الاحتلال العسكري المباشر أو في مرحلة الاحتلال غير المباشر عن طريق معاهدات الانتداب او في مرحلة نشره لثقافة معادية لثقافة الوطن والوطنية والثورة والاستقلال والاشتراكية وغيرها من المفاهيم الطبقية والثورية بعد ان أيقن مغادرته لهذه الأوطان. حورب علم الاجتماع الماركسي والاقتصاد الماركسي والجغرافية الماركسية والتحليل الماركسي للأنثروبولوجيا وجميع الخلفيات العلمية الماركسية التي يمكن ان تستفيد منها العلوم والآداب والفنون.

ان المعرفة التي يتعلمها الناشئة ويتربون عليها بمختلف صنوفها في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات هي معرفه برجوازية بعيده عن التحليل العلمي المادي.

والمؤسف ان الجغرافيين العراقيين والآخرين من أبناء العالم العربي من خريجي الجامعات السوفيتية وجامعات البلدان الاشتراكية لم يتمكنوا من تأسيس مدرسه جغرافية ماركسية او اشتراكية وذلك لقلة اعدادهم من جانب ولمحارتهم من قبل العمادات ورئاسات الجامعات.

بذلنا بعض المحاولات المحدودة في التعريف بالجغرافية الماركسية عن طريق نشر البحوث في دوريه (بحوث جغرافية) وهي الدورية الوطنية المعنية بالبحوث والدراسات الجغرافية والتي تصدر عن كليه التربية للبنات في جامعه الكوفة وكذلك عن طريق بعض الأحاديث على قناة youtube.

1) تمهيد - ماذا نعني بالبرجوازية:

تصنف البرجوازية في الادبيات التي تتناولها الى: البرجوازية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة وهي من مفاهيم علم الاقتصاد وعلم الاجتماع والعلوم السياسية وقد دخلت المفردة الى عالمنا العربي مع مطلع القرن العشرين ووصول الثقافة اليسارية والثورية أثر انتصار ثورة اكتوبر - تشرين الاول – البلشفية في 1917م في روسيا.

عن تاريخ ظهور هذه المفردة ودلالاتها يشير قاموس (ويبستر-Webster) الامريكي الى انها لاتينية الاصل فقد ظهرت في اللغة اللاتينية منذ 1007م ودخلت بعد ذلك اللغة الفرنسية في 1100م وهي تدل على سكان المدن باعتبارهم بعيدين عن العلاقات الاقتصادية الاجتماعية للنظام الاقطاعي[1] انهم بعيدون عن النظام الزراعي في الغالب[2] فهم سكان المدن من غير العبيد ومن غير الفلاحين وكذلك من غير النبلاء[3] وهذا يعني ان البرجوازيين هم من ابناء الطبقة الوسطى. يكتفي علم الاجتماع البرجوازي بوصف هذه الطبقة على انها الطبقة الوسطى. ويتركز عملها الاقتصادي بالتجارة. بينما يذهب علم الاجتماع الماركسي الى توصيف دقيق لها فهي مهما اختلف مستواها كما أشرنا طبقة متحكمة بوسائل الانتاج وبمصادر الثروة وهي تحاول ان توظف ادوات الرأسمالية المسؤولة عن نقل الثروة والسلطة نحو الاعلى بدلا من وضعها بيد الجماهير وبهذا الواقع يأتي دورها لمعاداة الثورة العمالية[4].

اما بصدد البرجوازية الوطنية فهو توصيف يعني الفضاء الجغرافي المتواجدة فيه فنقول البرجوازية العراقية والبرجوازية العربية او الهندية او الكونغولية.

تأتي أهميه البرجوازية الوطنية من اهمية المسالة الوطنية وأهمية حركه التحرر الوطني فلا شك ان استقلال بلدان اسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وتخلصها من الهيمنة الاستعمارية هو مطلب شعوبها بما فيهم الطبقة البرجوازية الا ان هذه الطبقة لا يمكن ان تستمر مع الحركة الثورية لشعوبها فتقف حدودها النضالية عند حدود مصالحها الطبقية والمتمثلة عادة بتنمية الاقتصاد وحمايه الاسواق من هيمنة الاستعمار ومن القيود الاقطاعية فهي بذلك حليفا للعمال والفلاحين ضد الوجود

الاقطاعي داخلياً وضد الوجود الاجنبي خارجياً وفق مقتضيات مصالحها[5] وهي بعد التخلص من هذه الهيمنة وهذه القيود تبدأ هي باستغلال البروليتارية العمال الاجّراء، وتشير الادبيات السياسية الى ان الثورة الفرنسية (1799-1789) هي نموذج للصراع بين البرجوازية والاقطاع.

تعّرف الدراسات البرجوازية الطبقة البرجوازية الصغيرة (Petty bou-geoise) على انها طبقه تقع ما بين البرجوازية المتوسطة والكبيرة من ناحية وطبقة البروليتاريا - الاجّراء - من ناحية ثانية بينما تضيف الدراسات الماركسية الى هذا التوصيف ان هذه الطبقة قلقة من حالة الصراع الطبقي داخل المجتمع فهي قد تنحاز الى البروليتاريا في بعض المواقف وقد تنحاز الى البرجوازية الكبيرة.

بشكل عام تقسم الدراسات الماركسية البرجوازية الصغيرة الى عدة فئات يملك البعض منها وسائل انتاج بسيطة وغير متقدمة وينشط البعض الاخر في تقديم الخدمات. لقد ضمّن ماركس هذه الطبقة صغار الحرفيين واصحاب المحلات الصغيرة وصغار المزارعين والمهم انهم لا يشاركون في استغلال الآخرين[6].

2) ثورة 14 تموز

2) - 1 - الواقع الجغرافي للعراق

الجمهورية العراقية هي وريثة المملكة العراقية التي تشكلت سياسياً بعد توحيد السوق بين الولايات العثمانية الثلاث الموصل - بغداد - البصرة أثر سقوط الدولة العثمانية واختفائها من الخريطة السياسية للعالم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. فحصل اول حكم مستقل للعراق لا علاقة للعثمانيين به وذلك في 1921م فعمل الانجليز على تعيين الملك فيصل الاول (فيصل بن الحسين بن علي ثالث ابناء الحسين شريف مكة وقد استمرت حياته ما بين 20 مايس 1828 - 8 ايلول 1933)

خرج العراق من قفص العثمانيين ليدخل قفص الانجليز الذين احتلوه من جنوبه ليدخل الجنرال مود (Maud) بغداد في 11 اذار 1917. قاوم الشعب العراقي قوات الاحتلال حتى تكللت الانتفاضة بثورة العشرين فاضطر الاحتلال ان يرحل لتستمر هيمنته عن طريق الانتداب الذي تخلص منه العراقيون في عام 1932م بعد نضال متواصل الا ان الانجليز ربطوا العراق بعدد من المعاهدات التي تضمن مصالحهم في موقعه الجغرافي وموارده المتنوعة.

يقع العراق جغرافياً في غرب آسيا فهو من بلدان الاسكوا (Escwa*) والاسكوا هي واحدة من خمس مناطق كبرى في العالم تابعه الى المجلس الاقتصادي الاجتماعي التابع الى الامم المتحدة.

يمتد العراق على مساحة 435052 كم2 منها 924 كم2 هي مساحة مياهه الإقليمية في الخليج العربي الفارسي[7]* وكما يبدو من خريطة العالم فأن العراق محاط بـ (6) بلدان هي جيرانه ومحيطه الاقليمي وهي كما في الجدول(1) الاتي مع اطوال حدودها السياسية.

يعد هذا العدد من الجيران عدداً كبيراً كما تقيمه الجغرافية السياسية فهو قد يسبب بعض المشاكل التي قد تقود الى صراعات سياسية تصل لمستوى الصدام المسلح.

نعم هذا صحيح بفعل تنوع السلطات

الحاكمة وتنوع الطبقات التي تنتمي اليها، وبهذا الصدد تقدم الجغرافية البرجوازية مع القانون الدولي نصائحها الاخلاقية في صياغة المبدأ العام للعلاقات الدولية والذي تم مطلع القرن العشرين وينص على حسن الجوار وتوفيق المصالح الوطنية مع مصالح بلدان الجوار[8] ولكن اين هذه النصيحة الأخلاقية من واقع الحروب الإقليمية فلا سلام ولا تعاون دولي فعلي بفعل الأنظمة السياسية الطبقية.

الجدول (1) البلدان المحيطة بالعراق مع اطوال حدودها السياسية		
البلد	طول الحدود -كم	%
البلدان العربية		
المملكة العربية السعودية	812كم	%23.5
الجمهورية العربية السورية	600كم	%11.3
دولة الكويت	195كم	%5.6
المملكة الأردنية الهاشمية	178كم	%5.1
البلدان الاجنبية		
الجمهورية الإيرانية الإسلامية	1300كم	%37.6
الجمهورية التركية	377كم	%10.9
المجموع	3462كم	94% وما تبقى هي حدود العراق البحرية على ساحل الخليج
وزارة التخطيط _ الجهاز المركزي للإحصاء _ المجموعة الإحصائية السنوية (2016_2016) الجدول (1-2)		

الجدول (2) اشكال السطح (التضاريس) الرئيسة في العراق		
شكل السطح	المساحة	%
السهول ومن ضمنها الاهوار والبحيرات	132.500	30.6
الأراضي المتموجة (شبه الجبلية)	42.000	9.7
الجبال العالية والمعقدة	32.370	5.3
الهضبة الغربية	236.258	54.4
جاسم محمد الخلف (1961) محاضرات في جغرافية العراق: الطبيعية والاقتصادية والبشرية - معهد الدراسات العربية العالية - جامعة الدول العربية - ص39 -ص 50- ص63		

على الرغم من صغر مساحة العراق فان ارضه ضمت جميع اشكال السطح المعروفة في العالم حتى باتت دراستها مشوقة[9] ويلخص لنا الجدول الاتي هذه الاشكال:

مع تنوع اشكال السطح في مناطقه من الشمال الى الجنوب وتنوع المؤثرات على طبيعة مناخه السائد تعددت فيه البيئات وهي:

البيئة شبه الجافة فوق السهل الرسوبي: وتتسم بقلة الغطاء النباتي من حيث الكثافة ومن حيث الاجناس والأنواع وهو ينحسر على ضفاف الانهار والجداول.

بيئة السهوب: الحشائش القصيرة، وتمتد فوق المنطقة المتموجة، شبه الجبلية.

بيئة البحر المتوسط: وتمتد فوق المنطقة الجبلية العالية وهي منطقه الغابات.

البيئة الجافة: وهي الصحراء الممتدة فوق الهضبة الغربية.

عموما اشكال السطح التي أشرنا إليها وما نتج عنها من البيئات جعلت سطح العراق منبسطا لدرجة كبيرة لاسيما السهل الرسوبي الذي يغطي حوالي خمس مساحته.

وفرّت الظروف الجغرافية الطبيعية من إنبساط السطح فوق السهل الرسوبي والسهول الواسعة في المنطقة شبه الجبلية، المتموجة، ومن تنوع المناخ بين شمال ووسط وجنوب العراق وتنوع فصلين ما بين الصيف والشتاء والفصلين الانتقاليين الربيع والخريف، والموارد المائية السطحية والجوفية والامطار التي تغطي كمياتها الساقطة في الشمال حاجات الزراعة الديمية. جميع هذه الظروف كانت بمثابة مقومات للعمل الزراعي حتى عرفت بلاد ما بين النهرين في الجغرافيات القديمة انها بلاد زراعية. يعكس الواقع الزراعي للعراق والذي كان منذ القدم الواقع المادي الاساس لاقتصادات المجتمع العراقي حقيقة تفاعل العراقيين مع الطبيعة، فهم منذ حضاراتهم الاولى قبل الميلاد مجتمعاً زراعياً عرف فنون الزراعة واساليبها قبل غيرهم فتكيفوا مع الجغرافية الطبيعية لبلادهم في قوانينها

العامة وفي قوانينها الخاصة، وهذا ما تأكد المادية الديالكتيكية فلا وجود لمجتمع خارج الطبيعة[10]. تشير البيانات ان من بين 6339960 نسمة هم سكان العراق حسب نتائج التعداد في 1957م[11] يعيش أكثر من (4) مليون نسمة منهم في الريف وان حوالي 1،5 مليون نسمة يعملون في الزراعة فعلياً كفلاحين[12] يشكلون نسبة 75% من مجموع القوى العاملة حينذاك[13]. هكذا تبدو القوى البشرية المنتجة الرئيسة المشكّلة للاقتصاد العراقي لاسيما قبل النفط وارتفاع عوائده، هم الفلاحون فهم المنتجون وهم المستغلون من قبل ملاك الاراضي ومن قبل المرابين في المدن.

2) 2-- الاسباب المادية للثورة

يعرّف الادب البرجوازي الثورة على انها تغيير للنظام السائد والظروف السائدة بطريقه ثورية عنيفة وبشكل مفاجئ وتحصل اساساً لأسباب داخلية[14] أما تعريفها في الادب المادي الثوري فهي شكل من اشكال القفزات التي تعد مراحل حتمية وعاملا ضرورياً لكل تطور، كما تقول نظرية المادية الديالكتيكية.

لهذه الثورات او القفزات قوانينها الاجتماعية اللازمة المستندة الى قواعدها الاقتصادية فهي بذلك نتيجة ضرورية لقوى التغيير الاقتصادية الاجتماعية[15] حيث يقترب الصراع الطبقي من الحسم فتتفسخ الطبقة السائدة والمجتمع القديم باسره فيأخذ الصراع طابعاً عنيفاً وحاداً[16].

هكذا يبدو لنا ان الادب المادي الثوري يعرّف الثورة بقوانينها وحتميتها وعلى انها ذروة الصراع الطبقي. ويتضح لنا من ذلك ان ثورة 14 تموز ثورة طبقية قادتها البرجوازية الوطنية العراقية بعد ان عانى المجتمع العراقي من مرحلة الاقتصاد المعاشي التي امتدت على مدى حوالي 600 عاماً، من سقوط بغداد على يد هولاكو وحتى مطلع القرن العشرين.

منذ منتصف القرن التاسع عشر بدأت بوادر التغيير البطيء وذلك بفعل تغلغل البلدان الرأسمالية الصناعية وهي تبحث عن مصالح جديده لها في المنطقة بعد ان ايقنت ان الامبراطورية العثمانية (الرجل المريض) اوشكت ان تغادر الخريطة السياسية للعالم، فتوجهت بريطانية وفرنسا والمانيا وايطاليا الى محاولات للكشف عن الثروات المعدنية وتحديد مواقعها، ومنها النفط حيث باشر الجيولوجيون السويسريون البحث عن مكامن النفط في منطقة الاسكندرونة عام 1889م وسرعان ما توجه الخبراء الانجليز والالمان والفرنسيون للبحث عنه في العراق وفلسطين، كما بحثوا عن المعادن الفلزية في بلدان المغرب العربي وفي شرق الاردن[17] الى جانب ذلك حركة الاصلاحات الادارية والاقتصادية والاجتماعية التي فرضتها عمليه ظهور البرجوازية التي بدأت تستهدف مرتكزات النظام الاقطاعي السائد حيث صدّرت ما بين (1858-1864) جملة تشريعات مهمة منها قانون الولايات (العثمانية) وقانون الاراضي. لقد حصلت هذه التشريعات بعد ان تولد لدى العثمانيين شعور بالتخلف وعدم امكانية مواجهة القوى الاوربية المتوجهة صوب الشرق وصوب ممتلكات دولتهم الواسعة. كانت محاولاتهم

الاصلاحية متأخرة وكان لإهمالهم العالم العربي دور في مساعدة الأوربيين على الانقضاض على البلدان العربية خاصة وان أوروبا كانت تعيش المرحلة الثانية من ظهور الاستعمار وهي المرحلة الصناعية التي اعقبت الازدهار التجاري بعد الكشوف الاستعمارية التي يطلق عليها (الكشوف الجغرافية) وبفعل تحول المجتمع الاوربي الاقطاعي الى مجتمع صناعي تجاري، وقد امتدت هذه المرحلة في القارة الاوربية من نهاية القرن الثامن عشر والى نهاية القرن التاسع عشر. مع هذه الاصلاحات بدأ الاقتصاد العراقي مثل غيره من الاقتصادات العربية يتحرك باتجاه التغير فتنامى الانتاج الحرفي ونشطت التجارة الداخلية بين الريف والمدن، ومع استمرار هذا الحال بدأت البضائع الأجنبية تدخل السوق العراقية، اليشماغ اللندني وقميص الآرو والبنطلون والسيدارة والتنورة النسائية وغيرها من ادوات التجميل وكذلك الاقمشة الحريرية من سورية والصوفية من انجلترا والاحذية الرجالية والنسائية وبعض الاثاث الخشبي والمعدني.

لقد تسببت حركة الاستيراد من الخارج في تقليص اعداد الحرفيين وبدأت تظهر نواة الطبقة العاملة تحت ظل الطبقة البرجوازية التي توجهت لقطاع التجارة اولاً وبتشجيع من التجار الغربيين وبشكل خاص الانجليز فالعراقيون يعملون تحت مظلة الانجليز فأسست مصالح التجارة الخارجية في العراق مصالح بريطانية بشكل طاغ وتتم التجارة في الجزء الاكبر منها بالسفن البريطانية ويكاد كل الرأسمال الاجنبي الموضوع في البلاد يكون بريطانياً بحتاً ومصرفان من أصل ثلاثة مصارف بريطانيان كلياً[18].

لقد شكلت التجارة الداخلية والخارجية طبقة برجوازية واسعه هي طبقة الجلبيين والتجار الصرافين اليهود، وبقيت هذه الطبقة ضعيفة امام التجار الاجانب وتشير تقارير غرفة تجارة بغداد الى ان الغالبية من اعضاء الغرفة ممن هم من الدرجة الاولى هم افراد الشركات المختلطة الانجلو - فرنسية والانجلو - فرنسية امريكية وذلك منذ تأسيسها في 1927[19].

توجه البعض من البرجوازيين الى قطاع الصناعة وقد شجعهم على هذا التوجه تشجيع الحكومة للصناعة الوطنية، وهي من دون شك رغبة الحكومة البرجوازية لتنمية طبقتها داخل المجتمع العراقي فأصدرت قانون تشجيع المشاريع الصناعية في 1929 واعقبت ذلك بتأسيس المصرف الصناعي الزراعي في 1935 الذي فصل في 1946 الى مصرف زراعي ومصرف صناعي، كما اسست معهد المباحث الصناعية التابع الى وزارة الاقتصاد لتقديم الاستشارات الفنية[20] ومديرية الصناعة العامة التي شكلت ضمن هيكل وزارة الاقتصاد في 1950[21].

حصل نمو في الصناعة العراقية فكانت من آثاره نمو البرجوازية ونمو الطبقة العاملة، فيشير الاحصاء الصناعي حسب الألوية (المحافظات) لعام 1954 الى عدد المؤسسات الصناعية وعدد المستخدمين فيها من عمال ومن اداريين وفق الجدول الاتي:

الجدول (3)		
عدد المؤسسات الصناعية وعدد العاملين فيها لعام 1954م		
المحافظات	عدد المؤسسات	عدد العاملين
بغداد	4706	33594
الموصل	2470	8032
البصرة	1285	14519
مجموع العراق	22460	90291
المملكة العراقية - وزارة الاقتصاد - الدائرة الرئيسة للإحصاءات - المجموعة الاحصائية السنوية العامة - 1957 - ص 130		

يبدو من الجدول ان الألوية الثلاثة، بغداد والموصل والبصرة قد حازت على 8461 مؤسسة صناعية تشكل نسبة 37,6% مما موجود في العراق اي قد ترتكز فيها أكثر من ثلث الصناعة العراقية. وبالنسبة للعاملين فقد تركز فيها 56145 من العاملين فيشكلون نسبة 62,1% اي يقترب عددهم من ثلثي العاملين في قطاع الصناعة. هذا التركز الصناعي يخدم الطبقة البرجوازية ولا يساعد على التنمية الاقتصادية الاجتماعية لعموم البلاد فيستثمر البرجوازيون البنى التحتية للصناعة التي تعد الخلفية المهمة للتنمية الاقتصادية الاجتماعية.

وتوجه البعض الثالث من البرجوازيين الى قطاع العقارات ففي جدول أعده حنا بطاطو عن الرأسماليين العراقيين الذين كانوا يملكون مليون دينار وأكثر في عام 1958، وهم يملكون كبرى شركات المال والبنوك وشركات الصناعة والنقل والمواصلات، كان بينهم من يملكون العقارات وشركات التجارة، كان أشهر من يملكون العقارات عشر عوائل من بينهم الدامرجي والخضيري ومرجان والصابونجي وابراهيم (الحاج صالح) وخضوري والبغدادي (عبد العزيز) وبحوشي وحسو وحديد (عبد الحسين) والباجچي (عفيفه) والقاضي (حافظ)[22].

أما البعض الرابع فقد توجه الى امتلاك الاراضي الزراعية والبساتين فهؤلاء هم من يطلق عليهم في الاقتصاد الزراعي الملاك الغائبون حيث يعيشون في المدن عادة.

كان طموح الطبقة البرجوازية المتوسطة المتمثلة بأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة والسراكيل في الريف وتجار الجملة ومتعاطي الربا والورش الحرفية الكبيرة وكبار موظفي الدولة في المدن، هو الصعود الى الطبقة البرجوازية الكبيرة.

أما الطبقة البرجوازية الكبيرة المتمثلة بملاك الاراضي الواسعة، الاقطاعيون الكبار والتجار المستوردون من الخارج واصحاب العقارات الكبيرة والمصانع فكان طموحهم استغلال السلطة وموارد البلاد وتمتين علاقاتهم بالرأسماليين الاجانب وبشكل خاص الإنكليز، لتشكيل طبقه رأسمالية عراقية يدعمهم الى ذلك كبار موظفي الدولة، الصف الاول من السلطة.

أمام هذه الطموحات لكلتا الطبقتين كان الفقر والحرمان يزداد ويتسع ليشمل معظم الخريطة الجغرافية للعراق فكانت

الألوية كافة بريفها ومدنها، تعاني من تدهور المستوى المعاشي ومحدودية الخدمات التعليمية والصحية والبلدية. فبغداد الكبرى على سبيل المثال، وتضم مدينة بغداد ونواحي الأعظمية والكرادة الشرقية والمدائن والدورة وم. ق. الكاظمية ونواحِ ابو غريب والطارمية، والتي بلغ تعدادَ السكان فيها حسب نتائج إحصاء النفوس في 1947م (646024 نسمه)[23] كان عدد العمال الصغار دون العاشرة من العمر -صناع- هو 5474 عاملاً بينهم 165 عاملة[24] يشكلون نسبة 2,6% من القوى العاملة البالغة 209542 عاملاً وعامله. هذا الواقع أحد مؤشرات الفقر في عاصمة البلاد.

وحسب الإحصاء ذاته كان عدد الاسر الساكنة مدينة بغداد الكبرى 66334 اسرة كان بينها 22950 اسرة تسكن دور من طين واكواخ وصرائف وخرائب[25] اي انها تشكل نسبة 34,6% من عدد الاسر، فهي أكثر من ثلث الاسر في بغداد الكبرى.

وفي عاصمة البلاد كانت نسبة الامية بين سكانها 73% ترتفع الى 84% بين الاناث، وقد تم حساب الامية للسكان ممن تجاوزوا سن 5 سنوات من العمر[26].

كان عدد السكان في العراق مطلع القرن العشرين يقدر بحوالي 2000000 نسمة[27] زاد هذا العدد ليصل الى 2824000 نسمة في 1930[28] وما بين هذه السنوات وعلى وجه التحديد في السنوات (1923 - 1924 - 1925) تم تسجيل المرضى المسجلين في الالوية العراقية بواقع 1236202 نسمة [29] وهو يشكل نسبة 44,1% من مجموع السكان، وهم ابناء الطبقات الفقيرة والمهمشة وعمال الاجور اليومية، الذين كان متوسط اجورهم خلال الفترة 1953- 1914 يتراوح ما بين 25 - 75 فلساً للعامل غير الماهر ويتراوح ما بين 42-500 فلساً للعامل الماهر ويختلف مستوى الاجور حسب مواقع العمل فيزداد عادة في ميناء البصرة وشركة النفط التركية (1926) وشركة نفط العراق (بعد عام 1930). وعادة ما تكون الاجور في بغداد هي الاعلى تتراوح ما بين (200-250) فلساً للعامل غير الماهر ترتفع الى (500-1200) فلساً للعامل الماهر[30] علماً بان الدينار العراقي 1000 فلس. لابد من الاشارة ان اجور الاحداث لا تتجاوز 25-20 فلساً[31] هذه الاجور للعمال غير الماهرين وللعمال الماهرين لا يمكن ان تغطي حتى الجزء البسيط من متطلبات الحياة اليومية، على ان فرص العمل غير متوفرة بصورة منتظمة ولا تتوفر لأيام طويلة. من ذلك تعاني هذه الطبقة الواسعة التي تشكل اكثر من 50% من قوى العمل البشري وأسرهم امراض نقص التغذية وامراض سوء التغذية وفي مقدمتها الامراض الشائعة الثلاثة: الانكلستوما والملاريا والبلهارسيا حيث يعاني من الاول حوالي 37% من السكان ترتفع النسبة الى اكثر من 50% في الملاريا وحوالي 80% في البلهارسيا[32] ومع ازدياد حاجة البرجوازية للمتعلمين زاد عدد المدارس وتنامت طبقة المثقفين (الانتيليجنسيا - intelligence) وكان موقفها من حالة الصراع الطبقي داخل المجتمع العراقي متجزأً فالبعض منها انحاز

الى افكار البرجوازية الكبيرة والمتوسطة والى قيمها في الوحدة العربية وانهاض التراث العربي الاسلامي، والبعض الاخر انحاز الى البرجوازية الصغيرة والى افكار العمال والفلاحين وفقراء المدن والريف ومشروعات العدالة الاجتماعية والاشتراكية والوطن الحر المستقل من اية تبعية.

تعمقت هذه الفوارق الطبقية واتسعت بفعل تزايد اطماع البرجوازية العراقية الكبيرة والتي رأت ان تنامي مصالحها يرتبط بوجود البرجوازية الاجنبية. بفعل هذه الفوارق الحادة كان لابد من اشتداد الصراع الطبقي ومن وصوله لمستوى الذروة والذي تمثل بثورة 14 تموز انها ثوره وليست انقلاب عسكري كما يعمل البعض للإقلال من شانها ومن دورها التاريخي. فالانقلاب كما تحدد مفهومه المراجع البرجوازية هو حركة لتغير السلطة بالقوة ودون معرفة الشعب ومعرفة رغبته، وقد ورد مفهوم (coup) اول الامر في اللغة الفرنسية [33] اما الثورة فهي تغيير للنظام السياسي وبالقوة ايضا يتبعه تغير في النظام الاقتصادي والاجتماعي[34] كما تمت الاشارة الى ذلك. نقلت ثورة 14 تموز العراق من النظام الملكي الوراثي الى نظام الجمهورية وانجزت العديد مما يخدم الطبقات الفقيرة المهمشة والعمال الاجراء وفقراء الريف والمدن والبرجوازية الصغيرة. فقد عززت الثورة الاستقلال الوطني فألغت جميع الاتفاقات والمعاهدات الاستعمارية المخلة بالسيادة وفي مقدمتها حلف بغداد في 24 اذار 1959 والانضمام الى كتلة الحياد الايجابي وتوقيع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية.

وفي الجانب الاقتصادي الاجتماعي تم اصدار قانون الاصلاح الزراعي والغاء الاقطاع وهو بمثابة ثورة اقتصادية اجتماعية، والعمل بقانون العمل رقم (1) لسنة 1958 والذي بقي مجمداً حتى اندلاع ثورة 14 تموز واهم ما فيه تحديد ساعات العمل بـ 8 ساعات واجور العمال حسب طبيعة العمل واقرار تأسيس النقابات والجمعيات العمالية. وابطال قانون العشائر الذي سنه الاحتلال الانكليزي عام 1918 ليزيد من صلاحيات شيوخ القبائل الذين تحولوا من اخلاقيات السلطة الابوية في الريف الى اخلاقيات الأقطاع، وتشريع قانون الاحوال الشخصية لصالح المرأة العراقية.

لقد ارشف البعض من الباحثين (193) مشروعاً ومنجزاً لهذه الثورة على مدى أربع سنوات وستة أشهر وخمسة وعشرين يوماً فقط، الا يرى الباحث الموضوعي هذا الارشيف يعني عملية تثوير الزمن! فكيف مع جميع هذه التغيرات السياسية الاقتصادية الاجتماعية لا تعد 14 تموز ثوره!! وهي قدمت الكثير على صعيد العراق والعالم العربي والاسلامي وبلدان العالم الثالث.

إنها ثورة حتى وفق التفسير البرجوازي للثورة فنشير على شبيل المثال الى المفكر الامريكي (بيتر ف دوكر peter- F.dreker) في كتابه الموسوم: القطيعة مع الماضي وفيه يقول ان الثورة تقع ولاتصاغ ولكنها تحصل عندما تطرأ تغييرات جذرية في الاسس الاجتماعية تستدعي

حصول تغيرات في البنية الفوقية تتماشى مع التغيرات التي حصلت في اسس البنية المجتمعية فان لم يحصل التوافق تحصل حالة من التناقض بين القواعد التي تتغير وبين البنية الفوقية التي جمدت على حالة اللا تغيير، فيقود هذا التناقض الى الفوضى الاجتماعية التي تقود الى الثورة.

هذا المفكر الغربي وبسبب خلفيته البرجوازية لا يرغب ان يدرك ان ما وصفة بتغيرات في البنية التحتية والبنية الفوقية في المجتمع هي حاله الصراع الطبقي التي تشتد لتندلع الثورة!!!

جميع من أرخ للثورة وبحث فيها وطرح وجهات النظر العلمية الاكاديمية، يؤشرون علاقة الثورة بتنظيم الضباط الوطنيين ويؤشرون العقيدة الوطنية المخلصة التي اتسم بها الجيش العراقي، كما تناولوا السيرة الحياتية لقادة الثورة وعلى راسهم الزعيم عبد الكريم قاسم ابن النجار، من المهنيين الفقراء في سوق الصويرة، قطعاً انها ثورة كسرت قوتها المسلحة حاجز الخوف لتنطلق الجماهير من دهوك الى الفاو مؤيدة لها عند سماعها البيان الاول من المذياع وكأنها على موعد مع الثورة!!

الهوامش :

1- Webster's Columbia Concise Dictionary of English Language U.S.A-p.8-

2- reality www. Immanuel Wallerstein -2019- the Bourgeoise as concept and -.ilwallerstein.com/p.91 - retrieved -14-11-2019

3- ibid

4- Ibid

5- Anthony Gordan _2019_ Bourgeoise and marxim: definition and concept - www.study.com / Rrtrieved 14_11_2019

6- ibid

7- وزارة التخطيط _ الجهاز المركزي للإحصاء _المجموعة الإحصائية السنوية (2014-2016) - الجدول 1-1-

8- The Yale Law Journal-1973-82-(8): 1664 new perspectives on international Environmental Law

9- هستد، كوردن (1948) الأسس الطبيعية لجغرافية العراق- تعريب الدكتور جاسم محمد الخلف- المطبعة العربية- بغداد- ص3.

10- جماعة من الأساتذة السوفيت (_) أسس الاشتراكية العلمية - المادية الديالكتيكية - نقله الى العربية فؤاد مرعي وزميليه - دار الجماهير- ص186.

11- المملكة العراقية - وزارة الداخلية - مديرية النفوس العامة - احصاء النفوس لعام -1957ج -1 الجدول 1--

12- المملكة العراقية - وزاره الاقتصاد - الدائرة الرئيسة للإحصاء (تقرير عن الاحصاء الزراعي والحيواني لسنة 1952-1953) ص16.

13- بالوك، توماس -1958- سياسة الاعمار الاقتصادي في العراق - ترجمة الدكتور محمد سلمان حسن - مطبعة العاني – بغداد - ص201

14- Webster _op.cit_p.6zz

15- جماعة من الاساتذة السوفيت - من دون تاريخ - المادية الديالكتيكية - ترجمة فؤاد مرعي - بدر الدين السباعي - عدنان جاموس - دار الجماهير- سورية

-16 كارل ماركس وفردريك انجلز 1848- - البيان الشيوعي - ص9

-17 المصدر نفسه - ص60

بطاطو، حنا -2005- العراق: الكتاب الأول - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام

-18 الجمهورية (ترجمة عفيف الرزاز)-الطبعة الاولى - مطبعة فرصاد - طهران - ص 207.

المصدر نفسه _ص168.

-19 المملكة العراقية - وزارة الاقتصاد - معهد المباحث الصناعية التقرير السنوي للسنوات 1949 1950- 1951-،

-20 مطبعة بغداد – بغداد.

المملكة العراقية، وزارة الاقتصاد مديرية الصناعة العامة - التقرير السنوي للسنوات 1949 _ 1954 مطبعة

-21 الحكومة.

بطاطو، مصدر سبق ذكره، ص 170.

-22 المملكة العراقية - وزاره الشؤون الاجتماعية -مديرية النفوس العامة - احصاء السكان لسنة -1947ج1 - لواء

-23 بغداد ، الجدول (1).

المصدر نفسه -الجدول (7).

-24 المصدر نفسه- الجدول (2).

-25 الخفاف عبد علي (2015) وصف الحالة الاقتصادية الاجتماعية لمدينة بغداد الكبرى نهاية النصف الاول من

-26 القرن العشرين- مجله المجتمع العلمي العراقي - المجلد (62)- الجزء4-3-، ص 6.

الدولة العثمانية - ولاية بغداد - سالنامة بغداد - 1312 هـ (1894م).

-27 ارنست داوسن (1932) بحث في كيفية التصرف بالأراضي والمسائل المتعلقة بذلك: مقترحات للشروع بالإصلاح

-28 (منشورات الحكومة العراقية - مطبعة بغداد - ص9-8.

هيكس - (1926) الامراض في الألوية العراق- المجلة الطبية البغدادية - العدد (1) - السنة (2)، ص22

-29 الخفاف عبد علي (1998) مصدر سابق، ص64

-30 المصدر نفسه.

-31 المملكة العراقية - الحكومة العراقية - التفتيش الصحي العام لسنة 1925 (تقرير صحي) -المجلة الطبية-العدد

-32 (1)- السنة (2) بغداد

Webster_ op. cit _ p.17.............

-33 Drucker, F. peter 2013 the age of discontinuity _Elsevier _U.S. A .p 41

-34

استراتيجية ادارة الازمات
(الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) في العراق

د. حيدر عبدالامير الغريباوي



حيدر عبدالامير نعمة كاتب وباحث عراقي، حاصل على شهادة الدكتوراه فلسفة في الاقتصاد / تخصص علاقات اقتصادية دولية، من كلية الادارة والاقتصاد/ من الجامعة المستنصرية، فضلاً عن بكالريوس اقتصاد/ فرع تخطيط، من كلية الادارة والاقتصاد/ جامعة بغداد، مدير البحوث والدراسات في الشركة العامة لتجارة الحبوب، احدى تشكيلات وزارة التجارة العراقية، لي مساهمات عديدة في المشاركة بالندوات والمؤتمرات العلمية التي تعقدها وزارة التجارة، نشر العديد من البحوث والدراسات العلمية والاقتصادية.

إستراتيجيات ومقومات مواجهة الأزمات:

تتعدد إستراتيجيات مواجهة الأزمات، وفقاً للإمكانيات المتوافرة والمتاحة، والتحديد الدقيق لمسارات الأزمة، والتحولات التي قد تطرأ عليها، بين مختلف المجالات، السياسية والاقتصادية والإدارية، وتستند إستراتيجيات مواجهة الأزمات الى الكفاءة والفعالية في استقراء المستقبل، وبالقدر الذي يحقق الإدراك الكامل بطبيعة الأزمة، فإن ذلك يتوقف أساساً إلى الاستنتاج الدقيق لشتّى الخيارات الممكنة، في مواجهة أخطارها.

وبدورها تعتمد إستراتيجيات مواجهة الأزمات، على القدرات الشخصية لفريق المواجهة، والظروف الموضوعية المحيطة بالأزمة، والإمكانيات والقدرات المتاحة، ويمكن اختيار إحدى الإستراتيجيات، لاتباعها طوال عملية المواجهة؛ إلاّ أنه يمكن تغيير الإستراتيجية، طبقاً لمراحل تطور الأزمة. وتتمثل إستراتيجيات المواجهة، وكذلك التكتيكات التي توافقها، في الآتي :

1. التعامل العنيف مع الأزمة: غالباً ما تتبع هذه الإستراتيجية مع الأزمات المجهولة، التي لا معلومات كافية عنها. وكذلك الأزمات المتعلقة بالمبادئ. إضافة إلى اعتمادها في حالة تشعب الأزمة وانتشارها في عدة اتجاهات. وفي إطار هذه الإستراتيجية، تنفَّذ عدة تكتيكات متباينة، هي:

أ. التدمير الداخلي للأزمة: من خلال تحطيم مقوماتها، والتأثير في تفكير محركيها، والسعي إلى خلق صراع داخلي بين القوى المسببة للأزمة، ومحاولة استقطاب بعضها.

ب. التدمير الخارجي للأزمة: بالحصار الشديد للقوى المسببة لها، وتجميع القوى

الخارجية، التي تعارضها، ومحاولة إقحامها في إطار الأزمة، سعياً إلى تدمير مقوماتها.

2. الحدّ من نموّ الأزمة : في إطار هذه الإستراتيجية، يُقْبَل الأمر الواقع، ويسعى إلى منع تدهور الموقف؛ فهي، إذاً، إستراتيجية تلائم مواجهة القوى الكبرى المسببة للأزمات المتشعبة؛ إضافة إلى صلاحها لأزمات الرأي العام وقضاياه، والاضطرابات العمالية. أمّا تكتيكاتها، فهي:

أ. التعامل، بحرص، مع القوى المحركة للأزمة والمسببة لها.

ب. تلبية بعض متطلبات القوى المسببة للأزمة، من خلال التفاوض المباشر، وتقديم بعض التنازلات المحدودة.

ت. العمل على تخفيف حدّة الأزمة، من خلال النصح والتوجيه.

3. تقسيم الأزمة : قوام هذه الإستراتيجية، هو تقدير الموقف، بدقة؛ والدراسة التحليلية لمكونات الأزمة، والقوى المؤثرة فيها، والعلاقات الارتباطية بينها. وتُعتمَد في الأزمات الكبيرة، شديدة التهديد؛ إذ تُقسّم الأزمة إلى عدة أزمات ضعيفة الضغط، ما يسهل التعامل معها. وتركز هذه الإستراتيجية في فك الروابط المكونة للأزمة، وتحويلها إلى عوامل ومكونات متعارضة؛

4. التأثير السلبي في الفكر المحرك للأزمة : يكوّن الفكر المحرك للأزمة مجموعة قيم واتجاهات، ذات تأثير شديد في قوة الأزمة؛ تحاول هذه الإستراتيجية إضعافها، تخفيفاً للضغط، الذي تسبب بظهور الأزمة وتناميها.

5. دفع الأزمة إلى مرحلة متقدمة : تهدف هذه الإستراتيجية إلى دفع القوى المحركة للأزمة، إلى الدخول في مرحلة متقدمة، يظهر خلالها الصراع الداخلي، بين التكتلات غير المتجانسة للقوى المسببة لها. وتتمثل تكتيكاتها في الآتي:

أ. التظاهر بضعف المقاومة.

ب. استخدام الشائعات في إذاعة معلومات عن بعض الانهيارات، الناجمة عن الأزمة.

ت. تقديم بعض التنازلات، التي قد تثير الخلافات، بين القوى المسببة للأزمة.

6. تغيير اتجاه الأزمة : تهدف هذه الإستراتيجية إلى التعامل مع الأزمات شديدة القوة والعنف، ذات التأثير المدمر، الذي يصعب مواجهته أو مقاومته؛ إذ يُبادَر إلى مسايرة الأزمة، أقصر مرحلة ممكنة؛ ثم العمل على تغيير اتجاهها إلى عدة اتجاهات فرعية، تساعد على المواجهة الفاعلة، وتحقيق نتائج إيجابية. ولتنفيذ هذه الإستراتيجية، تُتَّبع عدة تكتيكات، هي:

أ. التنحي بعيداً عن الأزمة، والسماح لها بالظهور.

ب. التحرك مع الأزمة، وخاصة مع اتجاهها الأساسي الفعال.

ت. العمل على خفض سرعة اندفاع الأزمة.

ث. إيجاد اتجاهات فرعية، وبديلة، تساعد على تفتيت الأزمة.

ج. إبعاد الأزمة عن مجالها الأساسي.

إن نجاح إدارة الأزمات يعني بوضوح تطبيق ستراتيجية متوسطة أو طويلة الأمد تمنع بموجبه نشؤ الأزمات أو امتدادها أو تلافي تلك الأزمات قبل تفاقمها، إن الخيار الإستراتيجي يجب أن يكون طويل الأمد بحيث تحدّد التقنيات المطلوبة وتتقارب القطاعات المفروض عملها مع بعض، في أثناء إدارة الأزمة، وإن وضع الاستراتيجية

والخطط المسبقة والشاملة، والمساهمة القصوى من جميع القطاعات تضمن تحقيق الأهداف المرجوة وهي بالتالي أهداف سياسية، لأن الأولويات السياسية سوف تحدد وتحكم أي عمل يتخذ في أثناء الأزمة.

لذا فإن مواجهة وإدارة الأزمات يعد أمرًا ضروريًا لتفادي المزيد من الخسائر المادية والمعنوية، وبهذا فهي تمثل أحد الفروع الحديثة نسبيًا في مجال الإدارة، ويعد التعامل معها محكًا رئيسًا يظهر من خلاله كفاءة الإدارة ومعرفتها في التعامل مع الأزمات.

ويجمع الكثير من الباحثين على أن الاستراتيجيات المستخدمة في إدارة الأزمات، هي:

إستراتيجية الكتمان والتحفظ: وهذه الإستراتيجية تقوم على رصد محاولات الأطراف الخارجية للحصول على معلومات، وهي إستراتيجية لا ينصح باستخدامها إلا في الأزمات المتعلقة بأمور شخصية أو أخلاقية معروضة أمام المحاكم.

إستراتيجية التريث وعدم التورط: وهنا ينصح بضرورة دراسة الآزمة بأبعادها المختلفة، وذلك بدراسة مستفيضة حول أسباب الآزمة وآثارها ونتائجها والإجراءات التي اتخذت والمتابعة الإعلامية لها، والدراسة الدقيقة لمختلف جوانب الآزمة ألا أنه يعاب عليها عدم الآخذ بالمبادرة، لأن ظرف الآزمة يتميز بالضيق وتسارع الآحداث.

إستراتيجية الصمت: بعض المنظمات تعتقد أن الرأي العام لا يعرف بالأزمة، وأن بإمكانهم الحفاظ على سريتها من خلال التعتيم على أحداثها، وبالتالي لا يقومون بأي رد فعل اتصالي، وهنا تلجا وسائل الإعلام إلى البحث عن المعلومات من مصادر أخرى، مما قد يؤدي إلى الإضرار بسمعة المنظمة لذا يطلق عليها البعض إستراتيجية التجاهل والتعتيم.

إستراتيجية التبرير والاعتذار: وفيها تعترف المنظمة بالخطأ، وتعتذر عنه بأكثر الطرق ملائمة ولباقة، وتعلن تبريراتها وتفسيراتها له من خلال إعداد دفاع يتضمن معلومات حقيقية يقدمها المتحدث الرسمي للمنظمة، وهي من التكنيكات الناجحة والفعالة في إدارة الآزمات، ويطلق عليها أيضا اسم إستراتيجية الاستجابة والدفاع.

إستراتيجية الهجوم المضاد: وتستخدم في حالة تعرض المؤسسة للنقد والاتهام بشكل قد يرقى إلى مستوى التشهير من جانب وسائل الإعلام دون استنادها على حقائق أو أدلة فعلية.

الإستراتيجية القانونية: والتي تؤكد على ما يحفظ الحقوق القانونية لها وحمايتها من أية مسائلة قانونية وهي تتمثل فيما يلي:

- ذكر أقل قدر من المعلومات عن سياسة المنظمة.

- عدم الإدلاء بأية آراء شخصية قد يفهم منها مسؤولية المنظمة عن الآزمة.

إستراتيجية الأفعال الصحيحة: هذه الإستراتيجية تقوم على الاعتراف بالمشكلة، والتأكيد على العمل على منع تكرارها، وذكر سياسة المنظمة المستقبلية في هذا الشأن، ويتميز أسلوب الخطاب الإعلامي بالصدق والصراحة، وتحري الدقة، ويطلق البعض على هذه الإستراتيجية "إستراتيجية العلاقات العامة"، وهي إستراتيجية تلقى معارضة شديدة من المسؤولين القانونيين للمنظمة، لأن الاعتراف بالخطأ قد يؤدي إلى استخدام

ذلك في رفع دعاوى قضائية ضد المنظمة، وقد يسبب لها خسائر مادية فادحة.

ويوجد عدة خطوات مهمة في اطار استراتيجية مواجهة الازمة وعلى النحو الآتي:

1. حدد ماهية الأزمة : للتعرف عليها.
2. تشكيل فريق إدارة الأزمة.
3. انشأ الإدارة والسيطرة (القيادة كالسيطرة كالإتصلات الداخمية كالخارجية الرئيسية) للتحكم بها
4. التخطيط.
5. احشد الطاقات كالإمكانات لتمكنك من التعامل معها
6. توفر قاعدة المعمومات والبيانات لمعرفة خصائصها وتاريخيا.
7. تحديد المهام وتفويض الصلاحيات لتطبيق المرونة في القرارات .
8. التنبؤ واستشراف المستقبل وفق محاكاة الأزمة لاحتوائها.
9. استخدام المخرجات للتغذية المرتدة للاستفادة منها في سياق العلاج الآني والمستقبلي لخنق الأزمة وعدم عودتها مرة أخرى وعدم السماح لها بتغيير شكلها أو التستر.
10. التغطية الإعلامية. لكشف الغموض ومنع استغلالها من قبل المستفيدين منها.

أن الأزمات تتألف من ثلاثة مكونات هي: المفاجأة، التهديد الخطير للقيم المهمة، والوقت القصير المتاح لإتخاذ القرار وعلى الآلية الإدارية، وعلى العمليات. فإن الإنخراط السريع أو ما يطلق عليه بالتدخل لمعالجة الأزمة، واتخاذ القرارات السريعة لصنّاع القرار، وهو فريق عمل متجانس يعرف بعضه البعض الآخر، ويعمل بسرعة قصوى وبفاعلية أكبر من الحالات العادية والروتينية.

وتوفر لنا العديد من الدراسات والمصادر الأكاديمية في مجال إدارة الأزمة العديد من الفرص لتجنب أو تحاشي حصول الأزمات أن التنبؤ الاستراتيجي والتخطيط الموقفي وتحليل الموضوعات المهمة وتحليل "السناريوهات" أمور تساعد في تجنب الأزمات أو خفض حدة الأزمات وهذا ما يسمى باستراتيجيات التعامل فأنها لاتتعدى عن كونها إما تكون استراتيجيات وقائية لتجنب حدوث الأزمة أو استراتيجيات علاجيه لتخفيض تأثير الأزمة ، إما الاستراتيجيات العلاجية والتي توضع لتخفيض شدة تأثيران الأزمة وتقليل خسائرها من خلال الخبرة في كيفية التعامل مع الأزمة إلا أنها تكون قاصرة مقارنة الاستراتيجيات الوقائية كونها تتعامل مع الأزمة بعد حدوثها وانحسارها لمعالجة الإضرار.

فضلاً عن ما ذكر من استراتيجيات هناك استراتيجيات اخرى تتعامل مع ادارة الازمات كما يأتي:

- استراتيجيات العنف مع الأزمة: تستخدم هذه الاستراتيجيات مع الأزمة المجهولة أو التي لا تتوفر عنها معلومات كافية أو الأزمات التي تتعلق بالمبادئ والقيم أو الأزمات التي تنتشر بشكل سرطاني في عدة اتجاهات وذلك من خلال تحطيم مقومات الأزمة أو وقف تغذية الأزمة أو حصار العناصر المسببة للازمة وقطع مصادر إمدادها.

- استراتيجية وقف النمو: تهدف هذه الإستراتيجية إلى التركيز على قبول الأمر الواقع وبذل الجهد لمنع تدهوره والسعي إلى تقليل درجة تأثير الأزمة، وتستخدم هذه الإستراتيجية عند التعامل مع قضايا الرأي

العام والإضرابات، وهنا يتوجب تقديم بعض التنازلات وتلبية بعض المتطلبات من اجل حل الأزمة.

- استراتيجية التجزئة: تعتمد هذه الإستراتيجية على دراسة وتحليل العوامل والقوى المكونة والمؤثرة، خاصة في الأزمات الكبيرة حيث يمكن تحويلها إلى أزمات صغيرة ذات ضغوط اقل مما يسهل التعامل معها.

- استراتيجية إجهاض الفكر الصانع للازمة: يمثل الفكر الذي يقف وراء الأزمة بصورة اتجاهات معينة تأثير شديد على قوة الأزمة، وتركز هذه الإستراتيجية على التأثير في هذا الفكر وأضعاف الأسس التي يقوم عليها، ويمكن هنا استخدام التشكيك في العناصر المكونة للفكر.

- استراتيجية دفع الأزمة إلى الإمام: تهدف هذه الإستراتيجية إلى الإسراع بدفع القوى المشاركة في صناعة الأزمة إلى مرحلة متقدمة تظهر خلافاتهم وتسرع بوجود الصراع بينهم ويستخدم في هذه الإستراتيجية تسريب معلومات خاطئة وتقديم تنازلات تكتيكية لتكون مصدر للصراع ثم يستفاد منها.

- استراتيجية تغيير المسار: تهدف هذه الإستراتيجية إلى التعامل مع الأزمات الجارفة والشديدة التي يصعب الوقوف إمامها، وتركز على ركوب عربة قيادة الأزمة والسير معها لأقصر مسافة ممكنة ثم تغيير مسارها الطبيعي وتحويلها إلى مسارات بعيدة عن اتجاه قمة الأزمة ويستخدم هنا الخيارات التالية:-

- الانحناء للعاصفة.
- محاولة إبطاء سرعة العاصفة.
- تصدير الأزمة إلى خارج مجالها.
- إحكام السيطرة على اتجاه الأزمة.
- استثمار الأزمة بشكلها الجديد لتعويض الخسائر السابقة.

استراتيجيات إدارة الأزمة

العراق واستراتيجية ادارة الازمات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية)

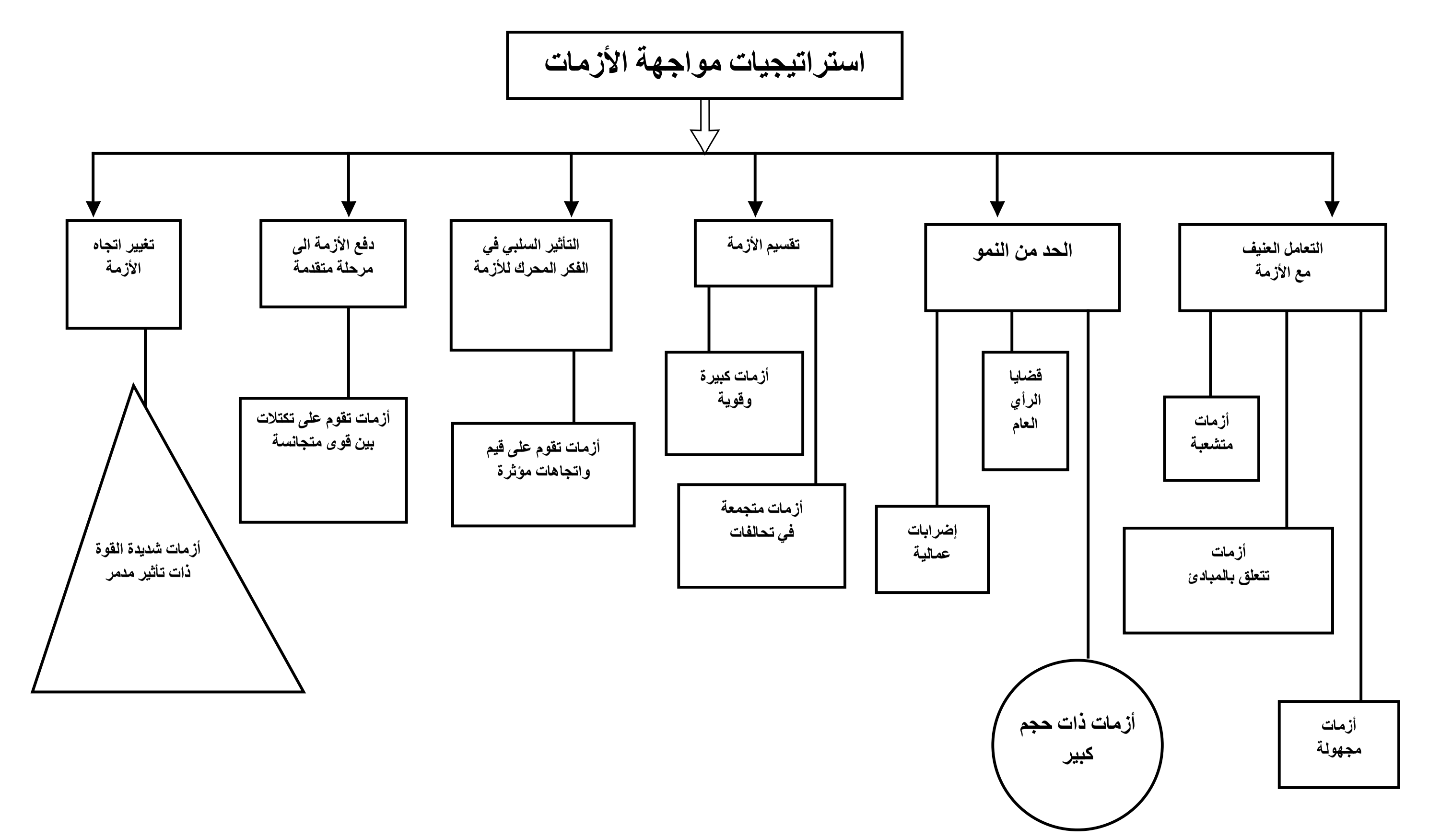
ان الازمة الحالية للاقتصاد العراقي ليست هي الا نتاج تراكمات من سوء السياسات الاقتصادية على امتداد عقود منصرمة وانها مرحلة من مراحل تداعيات الاقتصاد العراقي الانها تتميز عن سابقاتها من التداعيات كونها دقت ناقوس الخطر ما سيحصل في المراحل اللاحقة بل أنها أصبحت المؤشر الذي من خلاله تصور الأحداث القادمة.

كما ان تنوع وتلاحق الازمات التي يتعرض لها الشعب العراقي ومؤسساته جعل الازمة جزءا مرتبطا بحياة المواطن العراقي، حتى اصبحت الازمة من المفاهيم المتداولة وواسعة الانتشار، فضلا عن ان هذه الازمات اسفرت عن تغييرت اجتماعية واقتصادية وثقافية وقيمية ملحوظة في كافة مجالات الحياة.

اولاً: قواعد هامة لإدارة الازمات (الاقتصادية والاجتماعية) في العراق:

هناك عدد من القواعد التي يجب على المعنين في ادارة الازمات في العراق من الالتزام بها:

1. تجنب الكذب، وتجنب نشر كل الحقائق امام العاملين في المؤسسة لأنهم على استعداد



المصدر: السيد سعيد، استراتيجيات ادارة الازمات والكوارث، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة ، 2006، ص 178 .

تام لتصديق الاسوأ وتصحيح الاخطاء بأتخاذ خطوات إجرائية فعلية.

2. التيقن بأن الدقائق احيانا وحتى اللحظات مصيرية فيمكن ان يتغير فيها كل شيء في لحظة واحدة، فيجب عدم تضييع الوقت هذا ما يتفق عليه اكثر الباحثين في اعتبار عنصر الوقت حاسما في عملية ادارة الازمات وفي كل مراحل ادارة الازمة.

3. المركزية في اتخاذ القرارات وتنفيذها والاستفادة من فريق ادارة الازمة الذي تم تشكيلة لهذا الغرض.

4. العمل على تغيير انماط الادارة الى الافضل بما وينسجم وشدة ونوع الازمة واستخدام المنهج العلمي في تحليل الاسباب والنتائج.

5. دراسة مصالح مختلف الاطراف المتورطة في الازمة سواء اكانت مواقفها سلبية ام ايجابية وتنبا بكل استجاباتها، وعند تحديدك لما يريد الطرف الاخر بدقة يمكنك ان تبني دفاعك على المبادرة بدلاٍ من ردود الافعال.

6. تعزيز العلاقات مع كل الاطراف وفتح قنوات الاتصال المختلفة مع الخصوم ومع المساندين ووسع دائرة المساندة ايضا للمنظمة وقيادة المنظمة، ولابتعاد عن المفاهيم او الاساليب التي ان يمكن تشكك في اي من الاعوان فالوقت ليس مناسبا بل هو وقت لأستنفار الهمم وحشد الطاقات.

7. كما يجب توفير الامن والحماية للأعوان، وعدم البخل بأي شيء يرفع من القدرات ومعنوياتهم وبما يساعد على تجاوز.

لا يخفى على الجميع أن العراق يمر بمرحلة اقتصادية صعبة جداً تهدد مستقبلة القريب، كما ويدرك الاقتصاديين أن الأزمة المالية والوضع الاقتصادي المتدهور في العراق ما هو إلا تراكمات ونتاج السنوات السابقة من سوء الإدارة المالية للبلد وعدم وجود تخطيط، لذا سنتطرق هنا إلى بعض أسباب الأزمة والحلول المقترحة لتجاوزها.

سنحاول ان نتطرق الى الاسباب الحقيقية للازمة سواء الاقتصادية منها والمالية في العراق والفرص المتاحة لتجاوزها مع فرضية استمرار الظروف الاقتصادية الموضوعية والذاتية التي يعيشها العراق حالياً:

الاسباب والتحديات للازمة الاقتصادية

1- هبوط اسعار النفط في السوق العالمية

وهذا يعني ان العراق يجب عليه التخطيط للتحول من الاقتصاد الريعي الى الاقتصاد المتنوع والاعتماد على تطوير الاعتماد على الزراعة والصناعة والسياحة ومنافذ اخرى واعطاء دور اساسي للقطاع الخاص لقيادة السوق.

2- نفقات الحرب على الارهاب

ان دخول داعش للعراق باجندات خارجية واقليمية اضافت عقبة جديدة امام النهوض الاقتصادي في العراق حيث تم احتلال بعض المحافظات الكبيرة والمهمة وهي نينوى والانبار وصلاح الدين وبعض اراضي ديالى ولمتطلبات الامن الوطني واعادة الاراضي المحتلة ادى ان تنفق الحكومة مبالغ كبيرة كميزانية حرب منذ حزيران 2014 ولغاية الوقت الحاضر مما اضاف تحديا وسبباً اساسياً في الازمة الاقتصادية والمالية.

3- سوء ادارة المال العام

لقد تفاقمت ظاهرة الفساد الاداري والمالي خلال السنوات 2003 ولحد الوقت الحاضر ادت الى الهدر الكبير باموال الدولة يضاف الى ذلك ما يدور الان من تسأولات مشروعة عن الضياعات في الاموال العراقية المستحصلة من عوائد النفط بسبب جولات التراخيص التي وقعت مع شركات نفطية عالمية خلال السنوات السابقة.

4- ضعف تحفيز وتشجيع ودعم القطاع الخاص

لقد عانى القطاع الخاص منذ عام 2003 ولغاية الوقت الحاضر من الضياع وضعف الدعم الحكومي وتشتت الرؤى في تحديد دوره الاساسي في صناعة القرار الاقتصادي وعدم تأمين بنى تحتية لخلق مصادر تمويل اضافية للموازنة فضلا عن عدم توفير بيئة عمل مناسبة لتأمين مناخ استثماري مشجع لجلب رؤوس الاموال الخاصة والمساهمة في التنمية الاقتصادية مما ادى الى هجرة رؤوس الاموال العراقية وتوقف النشاط الاقتصادي للقطاع الخاص في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة والخدمات.

5- قصور البيئة التشريعية لادارة الاقتصاد

في عام 2004 اصدر الحاكم المدني الامريكي (بول بريمر) القوانين التي تنظم العمل الاقتصادي وهي قوانين المصارف والبنك المركزي العراقي وسوق العراق للاوراق المالية والادارة المالية وغسل الاموال واستمر العمل بقانون تسجيل الشركات 21 لسنة 1997 كما صدر قانون الاستثمار رقم 13 لسنة 2006 وتعديلاته واخرها صدر قانون جديد للاستثمار صادق عليه مجلس النواب العراقي

وان جميع القوانين اعلاه اضافة الى قوانين اخرى كقانون الضريبية والكمارك يحتاج الى اعادة نظر وتعديلات جوهرية تنسجم مع الوضع الجديد لادارة الاقتصاد ولكن بعد مرور كل هذه السنوات مازال الاقتصاد يدار بهذه القوانين التي لم تقدم شيئاً.

6- تفاقم ازمة النازحين

تفاقمت ازمة النازحين بعد احتلال ما يسمى بداعش لبعض المحافظات واضطر السكان للنزوح الى جميع المحافظات حتى بلغ عددهم اكثر من ثلاثة ملايين نازح مما اضطر الحكومة ان تتحمل اعباءاً مالية اضافية لتأمين السكن المؤقت لهم وتأمين الحاجات الانسانية الاخرى مما اضاف للنفقات الحكومية تكاليف كبيرة وانعكس ذلك على الاقتصاد العراقي حيث ارتفعت نسبة البطالة والفقر بسبب ذلك.

7- ارتفاع معدلات البطالة والفقر

بالنظر لسوء التصرف في المال العام منذ 2003 والانفاق غير المخطط في الموازنات السابقة وخصوصا موازنة 2014 والتي لم يصادق عليها مجلس النواب اصلاً واستلام الحكومة الجديدة لخزينة خاويه يضاف اليها ازمة النازحين بسبب الحرب على الارهاب مما افشل الخطط الموضوعة لتشغيل العاطلين والحد من حالات الفقر بل بالعكس ارتفعت حالات البطالة الى اكثر من 30% ونسبة الفقر الى 25% وهما مؤشران سلبيان على تفاقم ازمة الاقتصاد العراقي.

8- تفاقم الصراعات السياسية والطائفية والمحاصصة

منذ عام 2003 تمر العملية السياسية في العراق بازمة مزمنة ودائمة وهي الصراعات السياسية والطائفية والمحاصصة بين الكتل والاحزاب في السلطة كما اثر ذلك بشكل كبير على ستراتيجية الامن الوطني وانعكس ذلك على خلق ازمات اقتصادية داخلية للعراق حيث انه بدون تثبيت مبادئ اساسية اقتصادية تتعدى حماية الوطن وضمان سلامته من الاعداء الخارجين سوف يؤدي الى ارتباك الامن الوطني وهذا ما حصل فعلاً في دخول داعش الى العراق مستغلا تلك الصراعات ما بين اطراف العملية السياسية.

9- ابعاد التكنوقراط من ادارة الاقتصاد:

ان المحاصصة والتوافقية المعمول بها في العملية السياسية ادت الى وصول قيادات اقتصادية وادارية الى مواقع المسؤولية غير كفوءة ولا تمتلك قدرات وخبرات مهنية وتنفيذية ومنهجية على ادارة المؤسسات الاقتصادية المهمة في العراق مما ادى الى عدم تمكن الحكومات السابقة والحالية من القيام بالاصلاح الاقتصادي المنشود وبقيت الاجراءات والتطبيقات تتراوح في محلها ولم تقدم ما مخطط اقتصادياً ببناء مقدمات الانتقال الى اقتصاد السوق الامر الذي يعتبر تجسيداً واقعياً لابعاد التكنوقراط والخبرات الاقتصادية المهنية من قيادة عملية التغيير المطلوبة مما ادى الى الوصول بالازمة الاقتصادية الى هذا الحال.

فرص الاصلاح الاقتصادي للازمات

1- متابعة تداعيات هبوط اسعار النفط:

لغرض السيطرة على تداعيات هبوط اسعار النفط يتطلب من المؤسسات النوعية والمتخصصة الحكومية وتحت اشراف مجلس الوزراء القيام بواجباتها الاختصاصية في المتابعة اليومية لاسعار النفط العالمية وتقلباته بالهبوط والصعود وفق ماهو مخطط والصرف وفقا للايرادات الشهرية وان تكون لجنة الازمة المشكلة في مجلس الوزراء فاعلة في هذا المجال.

2- تحفيز وتشجيع ودعم القطاع الخاص:

يتطلب تفعيل وتطبيق المادة (د) من المحور ثالثا (تشجيع التحول للقطاع الخاص) في البرنامج الحكومي والمرحلة الاولى من ستراتيجية تطوير القطاع الخاص (2014 – 2030) والتي تعتمدها الحكومة حالياً وفق رؤيه جديدة تستند الى ماورد بالمادة (25) من الدستور وهي (تطوير قطاع خاص وطني حيوي ومزدهر مبادر محلياً ومنافس اقليمياً ومتكامل عالمياً بهدف تحقيق التنوع الاقتصادي والتنمية المستدامه وخلق فرص العمل) والايمان بان القطاع الخاص يجب ان يأخذ دوره الكامل في قيادة السوق مستقبلاً.

3- تنمية القطاع الزراعي والصناعي:

ينبغي لكي يتم مغادرة كون اقتصادنا ريعياً ويعتمد بنسبة 93% على ايرادات النفط يتطلب تنمية القطاعات الاقتصادية الحيوية الاخرى كي ترتفع نسبة مساهمتها في الناتج المحلي الاجمالي بمعدلات تخفض من مساهمة النفط في الموازنة العامة وترفع من موارد هذه القطاعات كالقطاع الزراعي والصناعي والسياحي والقطاعات الاخرى وهنا يجب اتخاذ الاجراءات التالية:

أ- اعادة هيكلة الصناعات المملوكة للدولة والتحول التدريجي نحو القطاع الخاص.

ب- تشجيع الشراكات مع المستثمرين المحليين والاجانب.

ت- تقديم الدعم للمشاريع الصغيرة والمتوسطة ومنحهم القروض الميسرة.

ث- اعادة النظر بالبيئة التشريعية لعمل الصناعة.

ج- توفير البنى التحتية لتأمين متطلبات بيئة العمل للقطاع الخاص.

ح- التوسع في اقامة المناطق الصناعية.

خ- النهوض بواقع الانتاج الزراعي والثروة الحيوانية وتوفير المستلزمات والمعالجات الفعالة للحقول والمزارع لزيادة الانتاج وصيانة مشاريع الري والبزل لتأمين الاحتياجات المائية

د- دعم المنتجات الزراعية المعده للتصدير وتحسين نوعية البذور وضمان الدولة لاسعار شراء تشجيعية للمحاصيل الزراعية المحلية.

4- اعادة النظر بالسياستين المالية والنقدية:

ان الخطوة الاولى للاصلاحات الاقتصادية هو اصلاح القطاع المصرفي بشقيه الحكومي والخاص حيث انه يشكل احد الحلقات الاساسية للنظام المالي وهي احد المنافذ للتمويل والاستثمار لذلك يتطلب اتخاذ الاجراءات التالية:

أ- اعتماد سياسة مالية ونقدية جديدة تؤدي الى اصلاح شامل واعادة هيكلة القطاع المصرفي الحكومي ووضع السياقات والاليات للتنسيق بين السياستين المالية والنقدية.

ب- تفعيل الدور الحكومي في بناء استراتيجية لتمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة ووضع وبناء اليات واضحة يشترك فيها القطاع الخاص بشكل فاعل وتفعيل مبادرة البنك المركزي العراقي في هذا المجال.

ت- وضع خطة للتصدي للانهيارات المالية التي يعاني منها بعض المصارف في القطاع الخاص بسبب ظروف نقص السيولة.

ث- التركيز على زيادة الائتمان والتمويل والقروض الميسرة وتفعيل توظيف الودائع في اوجه الاستثمار والاعمار.

-5 دور الاصلاح الاقتصادي في تحقيق الامن الوطني:

ان مواجهة الازمة الاقتصادية والمالية الحالية يتطلب العمل والوقوف يحزم لجميع الجهات الحكومية والسياسية والشعبية من اجل حماية العراق وادامة بناء اقتصاده وفق المعطيات الواقعية واعتماد الاصلاحات الاقتصادية باعتبارها استراتيجية اقتصادية لتحقيق الامن الوطني من خلال العمل وفق المبادئ الاساسية والاقتصادية التالية.

أ- بناء اقتصاد وطني سليم متعدد الموارد.

ب- القطاع الخاص يلعب الدور المحوري لقيادة السوق.

ت- توفير الامن الغذائي والدوائي والبيئي للمواطنين.

ث- اصلاح وتطوير القطاع المالي والمصرفي.

ج- اصلاح وتطوير مؤسسات الحوكمه الرشيدة لتقديم افضل الخدمات المواطنين.

ح- الحد من البطالة وتخفيض نسبة الفقر وتأمين العدالة الاجتماعية والعيش الكريم.

5- معالجة مشكلتي البطالة والفقر

ان البطالة والفقر يشكلان مشكلة حقيقية تقف امام الاصلاح الاقتصادي وابرز هذه المشاكل قلة فرص العمل المتاحة للقادرين على العمل وبشكل خاص الخريجين ومما زاد في نسبة البطالة هو ازمة النازحين واغلب الشباب عاطلين عن العمل كما ان ارتفاع نسبة الفقر يحتاج الى معالجة سريعة لتأمين الغذاء والدواء والسكن لهؤلاء وبشكل خاص منهم النازحين الذي يزيد عددهم على (3) ملايين نازح وان الحل المنطقي هو دعم القطاع الخاص وتشجيعه على تشغيل مشاريعه الزراعية والصناعية والتجارية والسياحية وتمويل المشاريع الصغرى والصغيرة والمتوسطة.

ثانيا: ادارة الازمات(السياسية) في العراق:

ومن الملاحظ على التجربة العراقية في الحكم ابتداء منذ نشأتها في العقد الثاني من القرن العشرين، انها لم تعطي حالات الطواريء الوطنية (بخاصة السياسية) منها الاهتمام المطلوب، وعليه فقد شهد تاريخ البلاد المعاصر اخفاقاً متوالياً على صعيد ادارة الطاقم السياسي للاحداث في اوقات الاضطرابات والازمات العصيبة، فتحكمت عقلية التطرف السائدة في الشخصية العراقية بالفعل السياسي، وطغى العنف والحل العسكري على مباديء التفاوض السليم والوصول الى حلول ترضي اطراف الصراع، ذلك ان السياسي المستبد لا يُقدّر عمل الفريق الواحد، بل انه في احيان كثيرة يعده ضرباً من العبث او التجاوز على صلاحياته الخاصة، وهذا امر ناجم بطبيعة الحال عن احد اعراض امراض القيادة المعروفة.

فوقفت الهيئات السياسية الوطنية في العراق موقفا يتحاشى الدخول في صميم الازمات المستحدثة واتخذت ما يُعرف بسياسة الاجتناب او الاختباء ازاء الاحداث الكبرى التي عصفت بالبلاد اما خشية منها من سطوة الطرف الاجنبي الحاكم او لاسباب تتعلق بمقدار ما تمتلكه من حنكة ونفاذ بصيرة، او بسبب التسويات والإتفاقات والتوافقات السياسية بين بعض الكتل ضد البعض الآخر.

ورغم ان الاعلان عن تشكيل خلايا ولجان لادارة الازمات قد جاء متاخرا من لدن السلطات التنفيذية المتتابعة، الا انها لاقت صدى طيبا في نفوس الراغبين بوضع حد لازمات البلاد المستفحلة بخاصة السياسية منها، وقد احرزت تلك الخلايا واللجان تقدما ملحوظا على صعيد جمع القوى السياسية (المتناحرة) على مائدة المفاوضات وقلصت الى حد كبير من درجات فقدان الثقة فيما بين الخصوم السياسيين وبالتالي الوصول الى اتفاقات احرزت للاطراف السياسية المتنازعة.

وفيما يلي خطوات خارطة طريق حل الأزمات السياسية، ويمكن إيجاز هذه الخطوات الى:

• ايكال مهمة العمل في فض النزاعات الى فريق (محترف) من الخبراء المؤهلين وذوي الخلفيات العلمية والتاريخية المعروفة في فض النزاعات، ممن يمتازون بسمات قيادية، ويمتلكون القدرة على التنبؤ بالازمات

قبل وقوعها واعداد الخطط والخطط البديلة للحلول المناسبة.

• اعلام اطراف النزاع كافة بطبيعة عمل اللجنة الرامية للدخول على خطوط الفرقاء، وطريقة تشكيلها والهدف من ذلك التشكيل واحراز موافقة جميع اصحاب الشان قبل اتخاذ قرار الشروع بالحركة والتنفيذ.

• الحفاظ على سرية المعلومات الماخوذة من طرف وعدم البوح بها الى طرف اخر بتاتا الا في حالات التفويض من قبل الطرف الاصلي كما في حالات نقل الرسائل ونحوها.

• احاطة اطراف العلاقة علماً بافضل واسوأ السناريوهات المحتملة، وكذلك عند الانتقال من اسلوب تفاوضي الى اسلوب اخر في حال تعذر المضي في اسلوب ما، واعتماد اخر جديد مثل الانتقال من طريقة المفاوضات المباشرة الى طرق الوساطات او التحكيم.

• عدم محاباة طرف على حساب طرف اخر، وانتهاج العدل والموضوعية في الكشف عن ملابسات ودوافع القضية او القضايا محل النزاع، وعدم تحول اللجنة او بعض اعضائها في احدى مراحل العمل من مجرد وسيط الى شريك لاحد الاطراف.

ختاما فان ما قدمناه يمكن أن يصلح دليلا يسلط الضوء إلى حد ما على مفاصل الأزمة بخاصة الاقتصادية منها والاجتماعية أو السياسية، الامر الذي يؤدي إذا ما تم التعاطي مع ابرز مفرداتها ايجابيا من قبل صناع القرار إلى وضع تصور اولي لحل الأزمات التي تواجه الطاقم السياسي والاداري بين الحين والحين، لاسيما وان سلسلة الأزمات في البلاد يبدو أنها مرشحة للاتساع من حيث المدى والنوع مع الاخذ بنظر الاعتبار ملفات لم تزل تنتظر الحسم السياسي وأخرى في طور التشكل أو الاستفحال.

المصادر :

1- إدارة الازمات وسبل التعامل معها ومواجهتها، متوفر على موقع الانترنت: https://kitabat.com

2- Lioyd.W.singer and Jan Reben “Acrisis Management systm” secuaity Manamement M.Y.U s sebtember 1987 PP.8-9.

3- هيثم أبو السعود، المجتمع وإدارة الأزمات، ضمن معلومات دولية، العدد 57، صيف 1998.

4- حدادي وليدة، ساعد كريمة، اخصائي العلاقات العامة وادارة الازمات: الادوار والاستراتيجيات، مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، المجلد: 20 العدد: 20 / ديسمبر، 2018 .

5- نعيم ابراهيم الظاهر، ادارة الازمات، عالم الكتب الحديث، الطبعة الاولى، اربد، الاردن، 2009.

6- جبوري شناوي الصافي اثر الخصائص القيادية في استراتيجية إدارة الأزمة دراسة ميدانية لعدد من المديريات العامة وزارة الكهرباء/ العراق، مجلة الإدارة والاقتصاد، السنة الرابعة والثلاثون - العدد التسعون، 2011.

7- ثائر محمد علي محمد السويدي، إدارة الازمات لدى رؤساء الاقسام العلمية في جامعة واسط من وجهة نظر التدريسين، مجلة كلية التربية،جامعة واسط، العدد 21.

8- سمير عباس النصيري: ازمة الاقتصاد العراقي – التحديات —— وفرص الاصلاح، شبكة الاقتصاديين العراقيين. متوفر في شبكة الاقتصاديين العراقيين. http://new-site.iraqieconomists.net/ar

9- نبيل أحمد الأمير، العراق وستراتيجية إدارة الأزمات، متوفر على شبكة الانترنت: http://www.arusal-huar.com

الزراعة العراقية.. الواقع والطموح

هندي حامد الهيتي
رئيس مهندسين زراعيين متقاعد

تتوفر في العراق مقومات الزراعة التي تمكنه لان يكون سلة غذاء للمنطقة خاصة لدول الخليج العربي والأردن ومصر مثل ما كان في السابق الارض الأولى التي عرف فيها الإنسان الزراعة ومارسها قبل اكثر من سبعة آلاف سنة ،فبعد ان اكتشف الإنسان في تلك العصور الغابرة الحنطة والشعير البرية التي كانت منتشرة على ارض ما بين النهرين كمحاصيل طبيعية وتعلم كيف يجمعها ويتغذى عليها ويخزنها ويزرعها حتى انتقل من الحياة القديمة المعتمدة على الصيد والتنقل وجمع الغذاء الى حياة جديدة تعتمد على اناتج الغذاء والاستقرار وما تتطلبه هذه الحياة من العيش في تجمعات تتطلب التفكير والتنظيم والتخطيط والحماية ,انتجت ولادة اولى بواكير الحضارة الانسانية المتمثلة في بناء المدن وتشكيل الدولة ومؤسساتها واختراع الكتابة وسن اول تشريع ينظم حياة الناس وهم يتسلقون عصرهم الجديد في بناء أولى الحضارات سميت في ما بعد بحضارة وادي الرافدين والتي منها انتقلت الحضارة والعصر الجديد الى بقاع العالم الأخرى، وقد استخدم الإنسان في تلك العصور أساليب متطورة في إدارة العملية الإنتاجية والعناية بالتربة واستخدام طرق ري وبزل ساعدت على احتفاظ التربة بخصوبتها وإنتاجيتها، وقد وجد في مدن الجنوب العراقي ما يدل على بناء منظومة بزل مغطاة باستخدامهم انابيب فخارية مثقبة نفتقدها نحن اليوم رغم التطور العلمي والتقني والتكنولوجي الذي نمتلكه. واستمرت هذه الارض تعطي الغذاء لساكنيها وتوفر لهم الحياة المزدهرة والمستقرة والآمنة الى قرون طويله بعد ذلك العصر الذي انطلقت منه الانسانية الى رحاب الرقي والبناء,وعندما دخل المسلمون العراق وشاهدوا كل هذا التطور والازدهار الاقتصادي والعمراني انبهروا به وبدأوا يستقرون هناك ويستثمروا تلك الثروات والبساتين بعد استيلائهم عليها كغنائم حرب ولم يصل منها الى بيت المال في المدينة الا القليل من الذهب والنقود لان اغلب ما وجوده ثروات وملكيات غير منقولة والتي على اثرها صدرت تعليمات من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يمنع التملك في العراق وسمح بالعمل واستغلال الارض وعندما يتركها يستطيع اي شخص اخر استغلالها لذلك سميت الارض بالاميرية نسبة الى امير المؤمنين واستمرت ملكية الاراضي على هذه الحالة حتى نهايات الدولة العثمانية ودخول المستعمر الانكليزي الذين بدأوا يوزعون الارض الزراعية على شيوخ القبائل لكسب ولائهم وتأيدهم لحكمهم ومنع الثورات والانتفاضات التي كانت تقوم

ضدهم. وبعد ان استطاع العباسيون من إنشاء امبراطورية كبيرة كانت تمد العالم علما وفكرا وحضارة ,عاش الإنسان على هذه الارض برفاهية قل نظيرها في مدينة بغداد وبقية امصار ارض السواد التي كانت اكبر مدن العالم انذاك وأكثرها استقرارا ورفاهية بسبب وفرة الانتاج الزراعي وسد حاجة ساكينيها والوافدين اليها كونها مركز العالم في ذلك الوقت وارسال الفائض من إنتاجها الى أقاليم الإمبراطورية آلاخرى.

لكن بعد ان تعرضت ارض الرافدين الى موجة حروب وغزوات عديدة ومتتالية سقطت على اثرها الامبراطورية العباسية وسقطت بغداد كعاصمة لها وانهارت كل قيم المجتمع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وعم الخراب كل مناحي الحياة وفقد الانسان الامن في مدينته وقريته وبيته وانتشر النهب والسلب والقتل وفرضت الضرائب الثقيلة من قبل الحكام الجدد واخذت الاتاوات من قبل العصابات التي تشكلت على اثرها ,هجر الانسان ارضه وعمله فلم يعد يستطيع مجارات كل هذا الظرف الجديد , وقد استمرت حالة الانفلات والضياع مئات القرون وحتى بداية القرن العشرين وانتهاء الحرب العالمية الاولى وتشكيل الدولة العراقية الحديثة عام 1921 بعد قيام ثورة العشرين ضد الاحتلال الانكليزي.

ورغم الاستقرار النسبي بعد تشكيل الدولة العراقية الحديثة واصدار القوانين والتشريعات التي تنظم حياة الناس في الدولة الفتية ,الا ان ذلك لم يمنع من ظهور عوامل جديدة جعلت الزراعة العراقية تبقى رهينة التخلف والتردي واهم تلك العوامل سيطرة طبقة الاقطاع على الاراضي الزراعية التي سجلت بأسمائهم عربون تعاونهم مع السلاطين والامراء العثمانيين والاستعمار الانكليزي من بعدهم , هذه الطبقة المالكة للارض لم تقدم شيئا يؤدي الى تطوير الزراعة وتحديثها رغم المردودات المالية المجزية وبقيت تفرض على الفلاحين استخدام الاساليب القديمة واستغلال جهدهم بابشع الاشكال حتى تحول الفلاح العراقي الى عبد او قن يتصرف به الاقطاعي كما يشاء تسانده حزمة تشريعات وقوانين اصدرتها الحكومات المتعاقبة والتي كانت سببا في هجرت الكثير من الفلاحين وهروبهم من قراهم الى اطراف المدن خوفا من العقوبات التي تفرض عليهم من قبل طبقة الاقطاع,ناهيك عن عدم اهتمامهم بخدمة اراضيهم في شق المبازل والحفاظ على خصوبة التربة مما ادى الى تدهور الاراضي الزراعية وانخفاض انتاجيتها وخروج مساحات واسعة من تلك الاراضي المنتجة وتحولها الى اراضي بور مالحة لا قيمة انتاجية لها. استمرت حالة عدم الاستقرار في العراق بعد سقوط الحكم الملكي وانتهاء طبقة الاقطاع وقيام ثورة تموز 1958وصدور قوانين للاصلاح الزراعي التي كانت جزءا من حل للملكية الزراعية وانطلاق ثورة زراعية بدعم من حكومة الثورة الا ان الصراعات السياسية التي اطاحت بحكومة الثورة وفتحت ابواب التقاتل على السلطة عبر انقلابات عسكرية متكررة ادت الى تراجع دور المؤسسات الزراعية في تقديم خدماتها للفلاحين وللزراعة العراقية مما ادى الى عودة التدهور الى الريف العراقي واهمال القطاع الزراعي من قبل الحكومات المتعاقبة وازدياد مساحات الاراضي الزراعية المتدهورة , ورغم ما قدم للزراعة

في عقد السبعينات من اهتمام واضح من خلال الدعم المالي والخدمي للفلاح وصدور قانون اصلاح زراعي جديد والاهتمام الكبير بشق المبازل واستصلاح الاراضي وادخال المكننة الزراعية الحديثة واستخدام الاسمدة واساليب الري والزراعة الحديثة وتطوير التعليم الزراعي الا ان كل هذه الجهود لم تثمر عن شيء ملموس لعدة عوامل اهمها عدم حاجة الحكومة للموارد المالية بسبب وفرتها من قطاع النفط بعد التأميم وتسليم هذا القطاع بأيدي اشخاص يفتقرون الى الخبرة والتجربة والمصلحة في تطور الزراعة واخيرا دخول العراق في حرب طويلة مع ايران واستمرار القتال في منطقة كردستان ادى الى حرق الاف الدونمات من البساتين واجبار الفلاحين لترك قراهم ومزارعم وتحويلها الى ساحات وميادين للحرب. واستمرت الاوضاع الامنية والسياسية متقلبة غير مستقرة بعد عام 2003 نتيجة الحروب والصراعات المستمرة والتي انعكست على الواقع الزراعي واجبرته لان يتراجع يوما بعد يوم حتى وصل الامن الغذائي العراقي الى مرحلة الخطر واحتمال تعرض شعبه الى مجاعة محققة نتيجة اعتماد الاقتصاد العراقي الريعي على اكثر من 90% على واردات النفط الغير مستقرة والتي تنخفض احيانا الى دون كلفة استخراجه مما يعرض اقتصاد البلد الى هزات كارثية لم تعد الدولة قادرة على الايفاء بالتزاماتها حتى على دفع رواتب موظفيها، وهذا سبب اخر رئيسي يضاف الى اسباب تدهور الزراعة العراقية.فقد اعتمدت الحكومات المتعاقبة على الواردات النفطية في تسير امور الدولة المالية واهملت القطاعات الانتاجية الاخرى مثل الصناعة والزراعة والتجارة.كان من المفترض الاستفادة من الفائض المالي المتأتي من القطاع النفطي لتطوير واقع الصناعة والزراعة والارتقاء بهما ليكونوا رافدا مهما من روافد الموارد المالية للدولة العراقية.

رغم كل هذه العوامل التي ذكرت وادت الى تدهور القطاع الزراعي العراقي ورغم ما ورثه هذا القطاع من تداعيات خلفتها سياسات الحكومات السابقة لا يمكن معالجتها بيسر وتحتاج الى فترة زمنية ليست قصيرة لكنها غير مستحيلة خاصة وان العراق لا زال يمتك مقومات النجاح والانطلاق لان تكون الزراعة رقما بارزا في الاقتصاد الوطني العراقي اذا ما اتخذت تدابير في تقويمه وتطويره وتوفير سبل نجاحه. واهم تلك المقومات التي يتميز بها القطاع الزراعي والتي يمكن ان تكون انطلاقة لثورة زراعية تحقق امنا غذائيا قويا وتنهي ما يسمى الفجوة الغذائية والاعتماد على الاستيراد بل وتقلب المعادلة بتحيقق الاكتفاء الذاتي الامن وصولا الى الميزة النسبية التي تمكن البلد من تصدير فائض انتاجه الى الخارج:

1. الأراضي الخصبة الممتدة لألف الدونمات وقسم منها لا زال بكرا لم يستغل كمنطقة الجزيرة بين نهر الفرات وبحيرة الثرثار والمناطق الصحرواية التي يمكن استغلالها بأستخدام التكنولوجيا الحديثة في مجال الري والمكننة والسلالات المقاومة للجفاف والملوحة.حيث تبلغ مساحة العراق الكلية (173651) مليون دونم وتبلغ مساحة مساحة الاراضي الصالحة للزراعة (48) مليون دونم تشكل (28)% من مساحة العراق الكلية ,وتبلغ مساحة الاراضي المزروعة

(23) مليون دونم وتشكل (47)% من اجمالي المساحة الصالحة للزراعة ،رغم تأثر آلاف من الدونمات الزراعية لعوامل تغير المناخ ودخولها تحت تأثير التصحر والملوحة يتبين اننا نستغل اقل من نصف الاراضي الصالحة للزراعة ,هذا عدا امكانية استغلال مساحات شاسعة كانت من الصعوبة تحويلها الى اراضي زراعية منتجة لكن بفضل التطور العلمي يمكن تحويلها الى ارض منتجة اقتصاديا وسيكون لها تاثيرايجابي على المناخ وايقاف تمدد الصحراء وتهديدها للقرى والاراضي الزراعية

2. توفر المياه السطحية والجوفية بكميات تكفي لقيام نهضة زراعية واسعة اذا ما استخدمت تقنيات الري الحديث مثل الري بالرش والري بالتنقيط واستخدام اصناف من النباتات المقاومة للجفاف

3. يتميز مناخ العراق بالتنوع الواسع بين مناخ المعتدل البارد الى المناخ المعتدل والمعتدل الحار وهذا ما يكسبه تنوع واسع في زراعة المحاصيل المختلفة في الأجواء الطبيعية دون الحاجة الى استخدام البيوت الزجاجية والمحميات المناخية والتي يفضلها المستهلك على المحاصيل المعدلة وراثيا او المزروعة في البيوت الزجاجية.

4. وفرة الخبرات البشرية وتوفر الأيدي العاملة الزراعية ومن هم من حملة التخصص الزراعي التقني والهندسي والخبراء في المجال الزراعي تمكنهم من القيام بنهضة زراعية واسعة وإطلاق ثورة خضراء تغير وجه وحال الاقتصاد العراقي من حالة التردي الريبعي الى الاقتصاد الانتاجي المربح.

5. توفر السيولة المالية من وردات النفط وغيرها من المصادر تدعم القطاع الزراعي في مرحلة انطلاقه الأولى وتوفير مستلزمات انطلاق الثورة الزراعية من استيراد المكننة الزراعية والبذور ذات الأصناف الأكثر إنتاجية وبعض الأسمدة والمعدات التي ستحتاجها الانطلاقة الأولى للبدء بنهضة زراعية مستدامة.

6. توفر السوق المستهلكة داخليا وفي دول الجوار تشجع على انطلاق النهضة الزراعية اذا ما عرفنا رغبة المستهلك الكبيرة للمنتج الزراعي العراقي.

ان وضع الخطط الكفيلة بتطوير الزراعة من قبل الحكومة ودعمها الجاد والفعلي ومتابعة تنفيذ تلك الخطط كفيل بالقيام بثورة زراعية تحقق امن غذائي وعامل مستقر للاقتصاد الوطني ,اذ لا يمكن للزراعة في اي بلد في العالم ان تتطور وتحقق انتاجية عالية وارباح مجزية الا بدعم كبير من الدولة ولو نظرنا الى الدعم الذي يقدمه الاتحاد الاوربي لازراعة الاوربية ولصغار المزارعين ضمن ما يسمى بالسياسات الزراعية المشتركة (The Common Agricu-turl Policy –CAP) وهي احدى انظمة الاتحاد الاوربي في مجال الدعم والبرامج الزراعية والهدف منه هو ضمان مستوى معيشي مقبول لصغار المزارعين وتوفير منتجات زراعية عالية الجودة باسعار معتدلة يالتوازي مع الحفاظ على التراث الريفي ,هذا النظام قائم على دعامتين اساسيتين هما الدعم النقدي المباشر لصغار المزارعين وبرامج التنمية الريفية. في عام 2010 بلغت الميزانية المقررة للدعامتين 58 مليار يورو من اجمالي ميزانية الاتحاد الاوربي البالغة 123 مليار يورو.اي ان الدعم النقدي وبرامج التنمية الريفية حضيت بحوالي

47% من اجمالي ميزانية الاتحاد الاوربي هذا وقد تكلف الدعم النقدي المباشر لصغار المزارعين وحده حوالي 43 مليار يورو.

وبعد الهدوء النسبي التي شهدته الساحة العراقية بعد 2007 وبسط نفوذ الدولة على اغلب مناطق العراق اثر دحر موجة الارهاب اطلقت الحكومة العراقية العمل بما سمي (المبادرة الزراعية) بهدف خلق معالجات سريعة للتدهور الذي اصاب القطاع الزراعي واعادة الثقة لصغار الفلاحين وبث الامل في نفوسهم عن طريق اطلاق قروض ميسرة يستطيعون انشاء مشاريع كبيرة ومتوسطة وصغيرة تكون انطلاقة لنهضة زراعية شاملة وقد خصصت مبالغ كبيرة لهذه المبادرة وبدأ المصرف الزراعي باطلاق القروض المالية للمتقدمين وصلت الى 1350مليار دينار خلال العشرة سنوات من عمر المبادرة الزراعية التي بدأت بعد منتصف عام 2008 وادت الى النهوض بالقطاع الزراعي في كثير من محافظات العراق ووصل انتاج بعض المحاصيل الى الاكتفاء الذاتي مثل محصول الذرة والحنطة والشعير في كثير من المواسم اضافة الى التطور الملحوض في قطاع الدواجن من بيض المائدة ولحوم الدواجن وفي تربية الاسماك وفي صناعة الالبان ولعشرات المحاصيل الموسمية الاخرى, لكن هذه المبادرة التي عول عليها الكثير في تحقيق الاكتفاء الذاتي والامن الغذائي المؤمن للمواطن في ظل ازمات اقليمية ودولية خانقة وخطيرة تهدد معيشة المواطن لم تحقق اهدافها بالكامل ولم يوصل الانتاج الزراعي في اغلب حقوله الى الاكتفاء الذاتي وقد كان بالامكان الوصول اليه لو قدر لهذه المبادرة ان تنجح بما خصص وصرف لها من اموال.

ان من اهم اسباب عدم الوصول الى الاهداف المخطط لها في المبادرة الزراعية هي:

- ضعف المتابعة والمراقبة لتنفيذ المشاريع التي صرفت لها القروض من قبل الدوائر الزراعية والرقابية.

- تفشي الفساد في قروض المبادرة الزراعية سواء في صرفها لغير مستحقيها او انفاقها في مشاريع غير زراعية بالاضافة الى وضع العراقيل امام المستفيد الحقيقي من القرض الا بعد دفعه رشاوي للموظفين المعنيين.

- ضعف الدور الارشادي من قبل الشعب الزراعية لصغار الفلاحين في كيفية ادارة واستغلال المشاريع المقامة خاصة وان هناك مشاريع جديدة يفتقر الفلاح للخبرة في ادارتها وحل المشاكل التي ستواجهه.

- ابقاء السوق العراقية مفتروحة للمنتج المستورد ومنافسته للانتاج المحلي سبب في خسائر مالية كبيرة خاصة لصغار المزارعين لعدم قدرته على المنافسة وهو في اول الطريق.

- ضعف الدعم الحكومي للمزارعين وخاصة المزارعين الصغار في توفير البذور المحسنة والاسمدة والمبيدات التي يحتاجها هؤلاء المزارعين وكأن العملية محددة بـ "خذ قرض واذهب وحدك تجابه كل المشاكل والمعوقات".

- عدم وجود رؤية واضحة لما سيؤول إليه الانتاج الزراعي وكيفية التصرف بالفائض الذي يزيد عن حاجة السوق المحلية مما سبب في خسائر كبيرة لصغار المزارعين بعد زيادة المعروض من الانتاج وانخفاض اسعارها الى ما دون كلفة الانتاج ادى الى

عزوف الكثير من المزارعين من الاستمرار في مشاريعهم التي اقاموها ضمن المبادرة الزراعية.

- عدم قيام المعنيين على المبادرة الزراعية في الشعب الزراعية او دوائر وزارة التخطيط من دراسة الحاجة الى قيام صناعات تحويلية زراعية للمحاصيل التي يفيض انتاجها عن حاجة السوق المحلية مثل صناعة معجون الطماطة والمخللات وحفظ المحاصيل حتى يستطيع المزارع من تسويق فائض انتاجه الى المعامل التحويلية وانقاذه من خسائر قد لا يستطيع تحملها.

- عودة الارهاب الى محافظات عديدة مما تسبب في تدمير مئات المشاريع التي اقيمت ضمن المبادرة الزراعية مما سبب تراجع ملحوض في الانتاج.

- عدم تسديد الكثير من المستفيدين من الميادرة الزراعية للقروض التي استلموها مما عرقلة امكانية الاستمرار باقامة مشاريع جديدة.

ان هذه المعوقات كما يلاحظ ليست معوقات كبيرة مستعصية على الحل بل بالعكس يمكن حلها بمجموعة قرارات سياسية ومتابعتها من قبل فريق يشكل لهذا الغرض يتكون من اصحاب المصلحة الحقيقية في نجاح القطاع الزراعي ومن ذوي الخبرة والاختصاص والنزاهة.ومن خلال متابعة ظروف الانتاج الزراعي العراقي نجد ان هناك مشاكل ومعوقات رئيسية يمكن حلها بسرعة وتأتي ثمارها بوقت قياسي واهمها:

• ايقاف استيراد المحاصيل الزراعية الغير رئيسية عدا محاصيل الحبوب الرئيسية التي لا يمكن الاستغناء عنها.اذ ان المستهلك العراقي يمكنه الاستغناء عن بعض المحاصيل لفترة معينة مثل المحاصيل والخضراوات.

• تشجيع الاستثمار في المجال الصناعات التكميلية (الزراعية الصناعية) عن طريق شركات القطاع الخاص او حث المهندسين الزراعيين من اقسام الصناعات الغذائية بالتنسيق مع نقابة المهندسين الزراعيين بأعطائهم قروض مالية لاقامة مشاريع صناعية زراعية مثل صناعة معجون الطماطة والالبان وحفظ المحاصيل الزراعية والمخللات لتلافي اتلاف المحاصيل والخضر التي تزيد عن حاجة السوق المحلية ولا يمكن تصديرها الى الخارج. وتكون موزعة على محافظات البلد التي يتوقع حصول فائض في الانتاج.

• دعم المزارعين والفلاحين الصغار وعدم تعرضهم لخسائر كبيرة نتيجة وتدني اسعار المحاصيل الزراعية بسبب وفرة المعروض منها في الاسواق عن طريق تعويضهم ماديا حتى لا يحدث تراجع في انتاج تلك المحاصيل للمواسم السابقة.

• تشكيل فريق يقوم بجرد كل المشاريع الزراعية التي صرفت لها قروض مالية ضمن المبادرة الزراعية لمعرفة واقعها الحالي هل هي منتجة او متلكئة او غير مكتملة وكيفية معالجة كل حالة واحالة اصحاب القروض الذين لم ينفذوا مشاريعهم رغم استلامهم المبالغ المالية الى القضاء لاعادة تلك الاموال الى المصارف الزراعية.

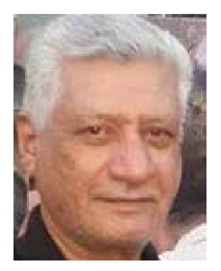
ان هذه مجموعة ملاحظات رئيسية لو قدر الاخذ بها لاستطاعت الزراعة العراقية ان تنهض وتاخذ دورها في توفير السلة الغذائية الامنة في ظروف يعاني اكثر من نصف مليار انسان من نقص الغذاء باستمرار حتى اصبحت مشكلة نقص الغذاء واتساع ما

يمسى بالفجوة الغذائية محط اهتمام العديد من الدول والمنظمات بموضوع توفير الغذاء للانسان ومنها مؤتمر 1996 الذي عقد تحت شعار (الغذاء للجميع) وبحث امكانية معالجة 839 مليون انسان معرض للمجاعة ,وقد بلغ عدد الجياع في العالم حسب احصائية الامم المتحدة حوالي 820 نسمة لعام 2018ويتوقع ان يتضاعف العدد بعد الركود الاقتصادي الذي اصاب الاقتصاد العالمي بعد جائحة كورونا,خاصة ونحن نمتلك من الخبرات والايدي العاملة الزراعية والتي تعاني البطالة او نجدها موزعة في قطاعات خدمية غير انتاجية لو وضعت البرامج عن طريق وزارة التخطيط والزراعة ونقابة المهندسين الزراعيين وزج هؤلاء الشباب في مشاريع زراعية جديدة على شكل مجاميع صغيرة تقدم لهم القروض المالية الميسرة وتعطى لهم الاراضي الزراعية لحققنا طفرة نوعية في الانتاج الزراعي وفي تقليل البطالة ولفتحنا مجالات عمل واسعة لالف الشبيبة. وامامنا تجارب في بلدان عديدة سبقتنا في هذا المجال وكلما جرى الحديث في هذا الجانب استذكر مداخلة الرفيق الراحل عامر عبدالله في الندوة الاقتصادية التي عقدت في منتصف سبعينات القرن الماضي وطرحه لتجربة شبيبة الاتحاد السوفيتي في تطوعها لاستصلاح صحراء سبريا بعد النداء الذي وجهه الحزب الشيوعي السوفيتي واتحاد الشبيبة الشيوعية وبعد اكمالهم لعمليات الاستصلاح استمروا بالعمل هناك وتزوجوا فيما بينهم واسسوا تعاونيات زراعية وحولوا صحراء سبريا الى مزارع منتجة خضراء تقدم انتاجها لكل جمهوريات الاتحاد السوفيتي فما احوجنا اليوم الى مثل هذه المبادرات لانقاذ شبابنا من البطالة وتحويل الاف الدونمات من الاراضي الصحراوية وشبه الصحراوية الى مزارع منتجة ومروج خضراء تغير وجه الاقتصاد العراقي وتحسن من مناخه وتسهم في تحسين البيئة ووقف التصحر الذي يجتاح العالم ويهدد الحياة على كوكبنا....

المصادر :

1- وثائق المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي العراقي
2- الجهاز المركزي للاحصاء ,المجموعة الاحصائية السنوية
3- المنظمة العربية للتنمية الزراعية
4- European Commission The CAP

كيف يسهم العامل الاقتصادي في توجيه حركة المجتمع وتشكيل نموه وتطوره.؟



عادل عبد الزهرة شبيب

عادل عبد الزهرة شبيب، بكالوريوس تربية جغرافية / كلية التربية / جامعة البصرة، عضو النقابة الوطنية للصحفيين في العراق. كاتب في الصفحات الاقتصادية للعديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية.

يرى ماركس أن النشاط الاقتصادي هو اصل كل حركة اجتماعية وجوهر كل تغير ثقافي وانعكاس ذلك على حركة التاريخ. والصراع الطبقي دوما هو جوهر الديالكتيك ونبع حركة المجتمع. ويرى انجلز ان التطور السياسي والقانوني والفلسفي والأدبي والفني...الخ يقوم على التطور الاقتصادي. ورأى كل من ماركس وانجلز الحركة الاجتماعية بأسرها كصراع بين الطبقات ورأيا في السياسة انعكاسا للحركة الاقتصادية والصراع الطبقي. ويشير انجلز الى ان كل تاريخ الماضي كان تاريخ صراعات طبقية , وان هذه الطبقات المتحاربة هي دوما نتاج ظروف الانتاج والتبادل وباختصار نتاج الظروف الاقتصادية لعصرها.

كما بين ماركس ان التاريخ يتحرك الى الأمام ليس من خلال افعال الأفراد ذوي السلطة وانما من خلال الصراع الطبقي، وان البشر هم الذين يصنعون التاريخ ولكن ليس في ظروف يختارونها بأنفسهم فالتاريخ يتحرك الى الأمام من خلال الصراع الطبقي. فتاريخ كل المجتمعات الطبقية هو تاريخ الصراع الطبقي.

يعتبر الأساس الاقتصادي حجر الزاوية في الفهم الماركسي للمجتمع , وهذا الأساس شرط لا بد منه لظهور البناء العلوي أي البناء السياسي والتشريعي والفلسفي والأخلاقي والجمالي للمجتمع وما يترتب على ذلك من علاقات ومؤسسات ومنظمات. ولو اخذنا المجتمع البدائي على سبيل المثال لوجدنا ان انعدام الملكية الخاصة والطبقات فيه كان السبب في انه لم يكن في هذا المجتمع دولة او مؤسسات سياسية او تشريعية. ومع ظهور الملكية الخاصة والطبقات (سادة وعبيد) ظهر بناء علوي من نوع مخالف حيث ظهرت افكار تبرر حكم صاحب العبيد للعبيد وظهرت مؤسسات مثل الدولة لتحمي هذا الحكم. ويرى ماركس ان افكار ومؤسسات

الطبقة المسيطرة هي التي تسود. وفي ظل الرأسمالية يكون للبرجوازية السيطرة الاقتصادية ولهذا فإن لأفكارها ومؤسساتها السيادة في المجتمع وتستخدم هذه الأفكار لمحاربة الطبقات الكادحة التي تكون افكارها ومؤسساتها مثل النقابات العمالية والأحزاب السياسية تتصارع مع البرجوازية.

لم تكن الدولة موجودة في كل زمان وانما ارتبط ظهورها مع انقسام المجتمع الى طبقات، فهي قوة نشأت في المجتمع ولكنها تضع نفسها فوقه وتنفصل عنه اكثر فأكثر، وتحتكر الطبقة الحاكمة السلطة وتسيطر على وسائل العنف فيه. فالمجتمع البدائي مثلا الذي ساد في عصر ما قبل التاريخ لم تكن هناك دولة تحكمه حيث كان المجتمع البدائي عبارة عن مجموعات بشرية تعيش في الكهوف ويعتمدون على الجمع والالتقاط. وبعد اكتشاف النار من قبل الانسان القديم وتمكنه من صنع القوس والسهم والرمح والتي ادت الى زيادة قدرته على ممارسة النشاط الاقتصادي وظهور فائض انتاجي وزيادة خبرته.ثم عرف الانسان القديم الزراعة التي مكنته من الاستقرار وظهور القرى دون ان تكون هناك معالم لظهور الدولة. وكان المجتمع البدائي يعتمد على مجلس من كبار السن العاجزين عن العمل في تنظيم مهامه وتقسيم العمل بين المجموعات البشرية وحل مشاكلهم وكان العمل جماعيا ونجم عن ذلك ظهور الملكية العامة المشاعة للأرض وما عليها ولباقي وسائل الانتاج البسيطة. وادى ظهور الفائض في الانتاج الى امكانية التبادل مع الجماعات البشرية المجاورة في الحيوانات والثمار. ثم تطورت ادوات العمل الخاصة وظهور السكن الخاص وملكية الارض وزراعتها ما ادى الى ظهور الملكية الخاصة واسهم هذا التطور في تقدم المجتمع البدائي وانتهائه في نفس الوقت حيث بدأ انقسام المجتمع الى فقراء وأغنياء وظهور استغلال الاخرين وامتلاكهم كعبيد، وهذا اسهم في ظهور نظام اقتصادي جديد اكثر تعقيدا يعرف بنظام الرق.

من هذا نستنتج بأن الدولة وحسب النظرية الماركسية ليست نظاما حتميا ولازما لوجود الجماعات. وكما يقول انجلز فالدولة لم توجد منذ الأزل وانما ظهرت الدولة وسلطتها عندما بلغ التطور الاقتصادي في المجتمع درجة اقترنت بالضرورة بانقسام المجتمع الى طبقات حيث يعتبر مجتمع الرق بداية انقسام المجتمع الى طبقات وظهور ما يعرف بالعبيد ومالكي العبيد وظهور الاستغلال الطبقي. فالدولة اذاً هي النظام الذي يحمي مصالح الطبقة المسيطرة اقتصاديا كما يرى ماركس. فاذا وجد مجتمع خال من الطبقات والتناقضات فإنه سوف ينعدم وجود الدولة كنظام.

وتبدو الرؤية مأساوية حين تظل صيرورة المجتمع سائرة في اتجاه طبقي حيث يزداد الفقير فقرا ويزداد الغني ثراء بشكل مضطرد .

الدولة العراقية:

وهذا الأمر ينطبق على العراق فقيام الدولة فيه كانت مرتبطة بالطبقة الغنية من البرجوازية والاقطاع المرتبطة مصالحها بالاستعمار البريطاني الذي احتل العراق خلال الحرب العالمية الاولى عام 1914 الذي شجع الاقطاع ولم تكن لهذه الدولة التزاما بحقوق الانسان والمواطنة والقوميات والحياة الديمقراطية الحقيقية غير المزيفة

, ما ادى الى سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والذي قاد في النهاية الى اندلاع ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958 والتي حققت عدد من الانجازات المهمة للشعب العراقي خلال عمرها القصير ,وتم الاطاحة بها بانقلاب شباط الاسود عام 1963 بحكم فاشي معادي للشعب ومعادي للديمقراطية.

منذ عام 1927 تم اكتشاف النفط في العراق حيث سيطرت الشركات النفطية الاحتكارية على نفطه وبدأ بزيادة الانتاج النفطي ومنذ ذلك التاريخ تميز الاقتصاد العراقي بأنه اقتصاد ريعي وحيد الجانب اعتمد كليا على تصدير النفط الخام وكان في السابق يعتمد على ريع القطاع الزراعي وهيمنة العلاقات الانتاجية شبه الاقطاعية ثم احتل القطاع النفطي منذ العقد الخامس من القرن العشرين والى اليوم المكون الرئيسي للناتج المحلي الاجمالي الى جانب تهميش الصناعة وضعف مشاركة الصناعة التحويلية بتكوين الناتج المحلي الاجمالي وتهميش الزراعة مما قاد الى ان تكون الدولة العراقية دولة ريعية بامتياز تتميز بالسمات السلبية التي تميز الدولة الريعية والمتمثلة بـ:

1. الاقتصاد الريعي الوحيد الجانب.
2. الاقتصاد الاستهلاكي.
3. الاقتصاد الاستيرادي.
4. تبعية الاقتصاد.
5. تدهور البنية الطبقية.
6. علاقات انتاج متخلفة.
7. تفشي الفساد بأنواعه.
8. الاستبداد السياسي والتخلف الاجتماعي وغياب الديمقراطية وتغييب الحريات وحقوق الانسان والقوميات..
9. تهميش المجتمع والخضوع للمراكز الرأسمالية المتقدمة التي تقف حائلا دون تخلصها من التخلف ووحدانية الجانب الاقتصادي وتكريس الطابع الريعي.

وبسبب العائدات المالية النفطية الكبيرة الناجمة عن بيع النفط الخام في الأسواق العالمية، لم تبذل الجهات الحاكمة الجهود الضرورية اللازمة لتغيير بنية الاقتصاد العراقي والتخلص من وحدانية الجانب في بنية الانتاج المحلي، أي بقي طابع الاقتصاد الوطني استهلاكيا غير انتاجي والذي ينعكس بالتالي على بنية المجتمع الطبقية. ولم تعمل الجهات الحاكمة على توجيه العائدات المالية النفطية صوب التنمية الزراعية وتنمية الصناعة التحويلية وتطوير التعليم والبحث العلمي والحياة الثقافية الضرورية , غير ان القوى المتنفذة قامت بتوجيه هذه العوائد صوب استيراد السلع الاستهلاكية والترفية والتسليح والعسكرة لحماية نظامها السياسي وامتيازاتها واعتمدت على استيراد كل شيء لغرض سد احتياجات السكان الاستهلاكية المتزايدة بزيادة تعدادهم، الى جانب تفشي الفساد المالي والاداري الذي قضم حصة كبيرة من هذه العوائد. وفي ظل الاقتصاد الريعي الاستهلاكي الاستيرادي انتعشت حياة ومعيشة فئات قليلة من السكان المرتبطة بالدولة واحزابها الحاكمة في حين بقيت فئات اخرى من الشعب وهي تمثل الاغلبية تعاني من الفقر وشظف العيش والبطالة والامية وازمات السكن وغيرها. فاقتصادنا الوطني بهذه المواصفات عاجز عن تحقيق التنمية والتشغيل وتغيير بنية الناتج المحلي الاجمالي وهو يمثل الجزء المتخلف والتابع والمستنزف في موارده الاقتصادية وامواله من النظام

الرأسمالي وهذا الوضع يتعارض مع اقامة الدولة المدنية الديمقراطية، مما يتطلب التغيير واصلاح الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

لقد فشلت كل الحكومات المتعاقبة بعد 2003 في تحقيق مهمة الانتقال نحو الاقتصاد التنموي من خلال استثمار الثروة النفطية في تنويع الاقتصاد وخلق فرص التشغيل المنتج ورفع مستوى التنمية البشرية. وقد عملت هذه الحكومات على التوجه الريعي للاقتصاد العراقي وساهمت في تفاقم الاختلالات الهيكلية بمختلف انواعها بعد ان اعلن هذا النظام صراحة عن تبنيه نموذج النظام الاقتصادي الريعي التابع وانسحابه الكامل من النشاط الانتاجي المحلي غير النفطي. وقد اسهم هذا التوجه الريعي في تكريس التبعية بمختلف اشكالها والتخلي عن الاستراتيجيات والخطط والسياسات الاقتصادية الهادفة الى تحقيق التنويع الاقتصادي والنهوض بالتنمية الداخلية ممثلة بقطاع الزراعة والصناعة التحويلية. وقد قاد الاقتصاد الريعي في العراق الى اهمال وتهميش قضية التنمية والتنويع الاقتصادي.

هناك تعارض بين الاقتصاد الريعي الذي تتميز دولته بالاستبداد والاستغلال والاستهلاك والتخلف، وبين اقامة الدولة المدنية الديمقراطية، ويعتبر الاقتصاد الريعي بسلبياته المتعددة احد معوقات اقامة الدولة المدنية الديمقراطية فقيام هذه الدولة يتعطل بسبب غياب مقوماتها الأساسية المتمثلة في:-

1. المساواة بين المواطنين.
2. المشاركة السياسية.
3. وجود مجتمع مدني فاعل من خارج اجهزة السلطة.
4. عدم اضفاء القدسية على الحاكم.

وهذا لا تحققه الدولة الريعية المستبدة. ان تحكم الدولة بالاقتصاد الريعي (الدولة الريعية) يعتبر من العوائق المهمة امام تكوين المجتمع المدني، فالاقتصاد ا لريعي يعتمد بشكل أساس على الريع الذي يأتيه من الخارج وهو من أهم القواعد الأساسية التي تستند عليها الدولة في استبدادها السياسي واحتكارها للاقتصاد وهيمنتها على المجتمع ككل ومنع تحقيق المجتمع المدني لما يعطيها هذا الاقتصاد من قوة للدولة الريعية. فالدولة الريعية تتحكم بها فئة محدودة من المجتمع تحصل بشكل مباشر على عناصر الثروة (الريع الخارجي) ويتم تركيز القوة الاقتصادية بيد الحكومة التي يمكنها من الاستحواذ على السلطة السياسية وتقديم المنافع للأفراد والاحزاب المرتبطين بها بعيدا عن مبدأ المواطنة والمساواة. وفي الدولة الريعية هناك سيطرة قسرية للمجتمع السياسي على الاقتصاد وما يترتب على ذلك من تبعية المجتمع ككل لعلاقات القسر السياسية التي تملك الدولة جميع خيوطها وهو ما يتنافى مع الشروط التاريخية الخاصة بتكوين المجتمع المدني في الغرب .

ان تحقيق الاستقرار السياسي والتقدم واقامة الدولة المدنية الديمقراطية لا يتحقق الا بتفكيك الدولة الاستبدادية المهيمنة على كل شيء، حيث ان تفكيكها يفتح المجال واسعا للتحكم بالراهن والمستقبل , وان الدولة الدكتاتورية المستبدة التي تمنع السيطرة على اسباب التطور والتقدم والمهيمنة عل كل مقدرات الشعب هي المشكلة الحقيقية والتي تمنع التقدم وصناعة المستقبل. لذلك فان الخطوة الاولى في مشروع التقدم هي تفكيك الدولة الظالمة

المستبدة والمسيطرة على كل القدرات.

وبهذا الصدد فقد أشار الحزب الشيوعي العراقي في مؤتمره العاشر بوثيقته الموسومة مشروع ''التغيير.. دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية'' الى:

''ان التغيير المطلوب لن يتحقق الا عبر بناء بديل يكسر محاولات احتكار السلطة المستندة الى الهويات الفرعية واعادة انتاجها ويؤسس لوعي اجتماعي جديد وتوجه ثقافي يشكل نفيا لثقافة الاستبداد ولنزعات العودة الى الماضي المناهضة للحداثة والتنوير ويرسي الاعتراف بالآخر واحترام التنوع ، وليس افضل من البديل المدني الوطني الديمقراطي اداة لتحقيق ذلك ولإعادة بناء الاقتصاد والمجتمع والدولة على اسس جديدة تجعلها دولة مواطنين احرار وليس رعايا''. كما اشارت الوثيقة ايضا الى وقوف الاقتصاد العراقي بفعل الازمة العميقة التي شملت البناء السياسي والمؤسسي للدولة في مفترق طرق. ففي حالة استمرار الأوضاع ومسارات السياسة الاقتصادية وتوجهاتها على ما هي عليه سيتعمق العطل في الاطار الاقتصادي العام للبلاد من حيث تعمق الطابع الريعي والاحادي للاقتصاد الوطني وتخلف الصناعة والزراعة وغياب التنمية المستدامة... واكدت الوثيقة على انه لا يمكن انجاز تنمية مستدامة في غياب الرؤى والاستراتيجيات والسياسات الموحدة للدولة في المجال الاجتماعي – الاقتصادي وفي ظل تردي البنى التحتية اللازمة.....وفي غياب مستوى مناسب من الاستقرار السياسي والامني. وتطرقت تلك الوثيقة الى ضرورة وجود سياسة اقتصادية واجتماعية تختلف عن تلك التي ادت الى ما نحن عليه اليوم يكون محورها توفير شروط تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة.... وان الطريق الى الاصلاح والتغيير الحقيقيين واقامة الدولة المدنية الديمقراطية الاتحادية التي تكفل العدالة الاجتماعية يتطلب نضالا متواصلا ومتراكما من اجل احداث التغيير المطلوب في موازين القوى السياسية لصالح اصحاب مشروع التغيير وانصاره.

المصادر :

1- احمد محمد انور / الأثر الاقتصادي على تطور المجتمع من وجهة النظر الماركسية / الحوار المتمدن / العدد 4293 في 2/12 / 2013.

2- د. خليل اندراوس / الفلسفة الماركسية وتطور المجتمع / حزب الشعب الفلسطيني.

3- محمود عبد المنعم (ترجمة)/ نظرية ماركس / مركز الدراسات الاشتراكية.

4- مجدي مشعل / علم الاجتماع الماركسي / الحوار المتمدن / العدد 4125 في 16 /6 /2013.

5- فلاح خلف علي / هوية النظام الاقتصادي في العراق بين الدولة الريعية والدولة التنموية.

6- مي حسين عبد المنصف / النظرية الماركسية ونشأة الدولة / الحوار المتمدن العدد 2028 في 31 /3 /2013

7- د. كاظم حبيب (الاقتصاد السياسي للفئات الرثة الحاكمة في العراق).

8- هاشم نعمة / الدولة المدنية الديمقراطية.. مقوماتها ومعوقاتها / الحوار المتمدن 18 /5 /2013.

9- مركز كارنيغي للشرق الأوسط /أزمة الدولة في الوطن العربي / ندوة.

10- ليث زيدان / عوائق تكوين المجتمع المدني في الدول العربية / الحوار المتمدن في 30/5/2007.

11- محمد محفوظ / الدولة المدنية وصناعة المستقبل في العراق / في 29 /9/2016.

12- الحزب الشيوعي العراقي / المؤتمر الوطني العاشر / وثيقة مشروع ((التغيير.. دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية)) بغداد 1 – 3 كانون الأول 2016.

توماس مالثوس والماركيز دو كوندورسيه والتأمين الاجتماعي[1]

مصباح كمال



تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية)(1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978 وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي-عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر. يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي http://misbahkamal.blogspot.com/ مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقي.

ترتبط شهرة توماس مالثوس (1766 - 1834) بكتابه مقالة في مبدأ السكان An Essay on the Principle of Population وهو كتاب لا علاقة له بالتأمين بتاتاً، وقد صدر الكتاب بعدة طبعات منقحة. يرد ذكر التأمين مرة واحدة في الطبعات اللاحقة لكتابه الذي نشره لأول مرة في عام 1798 بدون أن يحمل اسمه، إذ أن الطبعة الأولى لم تذكر التأمين. وله كتاب بعنوان مبادئ الاقتصاد السياسي (1836) لا يرد فيه ذكر للتأمين.

(1)

تأثير الحرب على أسعار التأمين

يرد التأمين في مقالة في مبدأ السكان في الفقرة التالية:

الآن فإنه من المؤكد أنه لم تكن الصناعة والتجارة وتجارة المستعمرات للبلاد، في أي فترة، في وضع لاستيعاب الكثير من رأس المال كما هو الحال خلال العشرين عاماً المنتهية عام 1814. ومنذ عام 1764 ولغاية معاهدة اميان [1802]، فإنه من

المعروف عموماً أن التجارة والصناعة في البلاد ازدادت بوتيرة أسرع من الزراعة، وأنها أصبحت تدريجياً أكثر وأكثر اعتماداً على الحبوب الأجنبية [المستوردة من الخارج] لمعيشها. ومنذ معاهدة اميان فإن حالة احتكارها الاستعماري وصناعاتها كانت في وضع يتطلب كمية غير عادية من رأس المال؛ ولولا أن الظروف الخاصة للحرب اللاحقة، وأسعار الشحنات والتأمين العالية، ومراسيم بونابارت[2]، التي جعلت استيراد الحبوب الأجنبية صعبة للغاية ومكلفة، فإنه كان علينا في هذه اللحظة، وفقا لجميع المبادئ العامة، أن نكون عاملين على دعم جزء أكبر بكثير من سكاننا عليه [على رأس المال]، أكثر من أي فترة سابقة من تاريخنا[3].

ويرد ذكر التأمين أيضاً في الهامش 15 من الطبعة المنقحة من كتاب مقالة في مبدأ السكان (1803)[4] كما يلي:

ووفقًا للأدلة المعروضة على مجلس اللوردات (التقارير، ص 49)، كان الشحن والتأمين لوحدهما على كوارتر[= 28 باوند = 12.7 كيلوغرام][5] quarter من الحبوب أكبر بمقدار 48 شلناً في عام 1811 عن عام 1814. وبدون أي تدخل مصطنع، يبدو أن الحرب لوحدها قد تؤدي بالضرورة إلى زيادة مذهلة في السعر.

إن هاتين الإشارتين للتأمين تأتيان في سياق تأثير الحرب على زيادة مستوى الأسعار ومنها بشكل خاص أسعار التأمين على الشحن البحري والسفن. وتفيدنا الدراسات التاريخية أن الطلب على التأمين يزداد خلال فترات الحرب من قبل أصحاب الأموال، وبالنسبة لموضوع هذه الورقة هناك دراسة مهمة حول التأمين والحرب في القرن الثامن عشر[6]. يعالج كاتب هذه الدراسة، جيفري كلارك، أستاذ التاريخ في جامعة ولاية نيويورك، ”الميل الكبير جداً للتجار لشراء التأمين البحري في زمن الحرب. هناك كمٌ كبير من الشواهد تبين انه في حين أن عادة شراء التأمين كانت تنتشر بثبات في القرن الثامن عشر فإن هذا النمو الدائر كان يتخلله زيادات مفاجئة حادة في طلب أصحاب السفن للتأمين مع اندلاع الحرب، متبوعاً بهبوط حاد في طلب التغطية مع حلول السلام.“

وقد اختبرنا الزيادة في أسعار التأمين البحري في البلدان العربية مع بدء الحرب العراقية الإيرانية عندما قامت لجنة تسعير أخطار الحرب [7] War Risks Rating Committee في لندن برفع أسعار التأمين على البضائع والسفن المتجهة إلى الموانئ العربية وبخاصة في منطقة الخليج. وقتها أثارت هذه الزيادة عدم قبول من شركات التأمين العربية فقامت بتأسيس الصندوق العربي لتأمين أخطار الحرب لتضمن تطبيق أسعار عادلة ومناسبة. وما زال هذا الصندوق يمارس عمله بنجاح من مقره في البحرين.

توماس مالثوس هو الأقل اهتماماً بالتأمين من أقرانه من الاقتصاديين الكلاسيكيين كآدم سمث، وديفيد ريكاردو وكارل ماركس، على سبيل المثل. واهتمامه بالتأمين لا يتجاوز الرصد، ولمرة واحدة، لظاهرة زيادة أقساط التأمين البحري في زمن الحرب. فقد كان اهتمامه منصباً على مسألة تزايد السكان بموجب متوالية هندسية (مضاعفة الرقم الأخير في سلسلة حسابية:

16-8-4-2...) وتزايد إنتاج الغذاء بموجب متوالية عددية (مضاعفة الرقم الأول في سلسلة حسابية: 4-3-2-1...). وباعتبار أن الموارد الاقتصادية محدودة سيأتي اليوم الذي لا تجد فيه الأعداد المتزايدة من السكان ما يكفيها من إنتاج هذه الموارد.

ولكن ''خلافاً لمعظم التفسيرات، لم تكن نظرية مالثوس تدور حول خطر ''الاكتظاظ السكاني'' الذي قد يحدث في وقت ما في المستقبل. ذلك أن حجته أن هناك ضغطاً مستمراً من السكان على الإمدادات الغذائية، وهو ما كان قائماً وسيظل كذلك. وهذا يعني انه لا يوجد في الواقع ما يسمى ''اكتظاظ سكاني'' بالمعنى التقليدي... إن الفكرة الأساسية وراء هذه الحجة هي محاولة إثبات أن التحسينات المستقبلية للمجتمع، وبشكل أكثر جوهرية تحسين وضع الفقراء، أمرٌ مستحيل'' [8].

وهذا يقودنا إلى فهم مناقشته ورفضه لأفكار ونظم المساواة الاجتماعية وتوفير الضمانات للطبقات الفقيرة، كما عرضها في نقد أفكار ومشاريع الضمان الاجتماعي للفلاسفة والمصلحين ومن بينهم الماركيز دو كوندورسيه. فقد ربط مالثوس الفقر والحرمان والبؤس بالتزايد السكاني.

(2)
نقد مالثوس للتأمين الاجتماعي

في عرضه المختصر لبعض الكُتّاب الذين وردت اسماؤهم في مقالة في مبدأ السكان، يذكر محرر الكتاب اسم عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي الماركيز دو كوندورسيه (1743 - 1794).

يقول المحرر بأن مالثوس انتقد كتاب كوندورسيه [9]. إذ يظهر كوندورسيه في كتاب مالثوس كشخص يؤمن بالكمال العضوي للإنسان، وصاحب مقترحات لتكوين صندوق للتأمين الاجتماعي، ومن دعاة ما اسماه مالثوس بالطرق ''غير الطبيعية'' لتحديد النسل[10].

كان مالثوس أميناً في نقل أفكار كوندورسيه:

من خلال تطبيق حسابات احتمالات الحياة، والفائدة على النقود، يقترح [كوندورسيه] إنشاء صندوق لضمان المساعدات للمسنين، يتكون جزئياً من مدخراتهم السابقة، وفي جزء منها من مدخرات الأفراد، الذين يقومون بنفس التضحية [الادخار] ويموتون قبل أن يجنوا فائدة منها. وينبغي أن يقوم نفس الصندوق أو صندوق مماثل بتقديم المساعدة للنساء والأطفال، الذين يفقدون أزواجهن أو آبائهم؛ ويوفر رأس المال لأولئك الذين كانوا في عمر يؤهلهم لتأسيس أسرة جديدة، كافية للتطوير السليم لكدهم. هذه المؤسسات، كما يلاحظ، قد تكون باسم، وتحت حماية المجتمع. ويذهب إلى أبعد من ذلك، بالقول إنه من خلال التطبيق العادل للحسابات، يمكن العثور على وسائل للحفاظ على حالة من المساواة بشكل كامل، من خلال منع الائتمان من الامتياز الحصري لأصحاب الثروات الكبيرة، ومع ذلك يعطيها أساساً متساوياً بشكل متين، من خلال جعل تقدم الصناعة، ونشاط التجارة، أقلّ اعتماداً على الرأسماليين الكبار [11].

بعد تلخيصه لأفكار كوندورسيه التي انتقدها بشدة واستنتاجه المليء بالسخرية

من الصورة التي رسمها كوندورسيه يقول مالثوس:

قد تظهر هذه المؤسسات والحسابات واعدة على الورق؛ ولكن عند تطبيقها على الحياة الواقعية، سيُكتشف بأنها باطلة بشكل مطلق.

وأحد أسباب ذلك هو تخفيف ”مهماز الضرورة“: ”إذا كان تأسيس هذه المؤسسات يؤدي إلى نزع هذا الحافز للعمل، وإذا تمَّ وضع الخاملين والمهملين في نفس المستوى فيما يتعلق بالائتمان، والدعم المستقبلي لزوجاتهم وأسرهم، فهل يمكن أن نتوقع أن نرى الناس يبذلون ذلك النشاط الدائب في تحسين أوضاعهم، والذي يشكل الآن الدعامة الأساسية للازدهار العام؟“ والسبب الآخر، و“إلى حد بعيد أكبر صعوبة،“ هو مبدأ السكان ذاته. ”عندما يكون كل واحد متأكداً من توفر مؤونة كافية للعائلة، وأن كل شخص تقريباً سيحصل عليها؛ وإذا كان الجيل الصاعد متحرراً من ”الصقيع القاتل“ للبؤس، فلا محيص من تزايد السكان بسرعة“ (12).

إن الوجه الآخر لهذا القول يؤكد الموقف الطبقي لمالثوس في الدفاع عن منافع التفاوت الاقتصادي ونقد نظام إعانة الفقراء ونظرته الدونية لهم – كما يعرضه في الصفحات اللاحقة من كتابه (ص 45-55).

إن تأسيس شبكة للأمان الاجتماعي تقوم بتوفير معاش تقاعدي مدى الحياة مآله الفشل، من وجهة نظر مالثوس، حتى لو أن مثل هذه الشبكة تقوم على تطبيق مناهج الاحتمالات وقيمة المال عبر الزمن time value of money التي كانت قائمة في القرن الثامن عشر، وذلك بسبب الميل الطبيعي للبشرية للتكاثر. وهو يرى بأن هناك حدود طبيعية لتقدم البشرية كامنة في هذا الميل. ففي الأوقات الجيدة، سيتكاثر السكان وسيتنافسون في نهاية المطاف على الموارد المحدودة، وعليه فإن نظام التأمين الاجتماعي الذي يستهدف إزالة معاناة البشر يجلب معه خفض معدل الوفيات وزيادة النمو السكاني المدمر، والقضاء على حافز العمل الذي بدوره يؤدي إلى إبطاء إنتاج الغذاء والنمو الاقتصادي بالنسبة للنمو السكاني. وقد أثبت التاريخ خطل هذه الحجة في بريطانيا والدول الأوروبية الأخرى التي قامت بتطبيق أنظمة الضمان الاجتماعي.

(3)
كوندورسيه والتأمين الاجتماعي

فيما يلي نعرض بعض أفكار كوندورسيه حول الضمان الاجتماعي (13).

لقد طور كوندورسيه نظرية عامة للضمان الاجتماعي في الفترة التي ترافقت مع قيام الثورة الفرنسية سنة 1789 وارتباطاً بالتحولات والأفكار الاقتصادية. كان موقفه متقدماً في نظرته إلى الإعانة الاجتماعية، ضمن النظام الرأسمالي الناشئ، كمسألة قائمة على العدالة وليس الشفقة. وقد ضمّن أفكاره في كتابه مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري (1794)(14).

يُعرِّف كوندورسيه الرفاهية بأنها ”عدم التعرض للبؤس والإذلال والقمع“. وبهذا المعنى، فإنها هدف حكومي مناسب، أو ”واجب تقتضيه العدالة“: ”هذا هو الرفاه الذي تدين به الحكومات للشعب“. ”أن يكون لجميع أفراد المجتمع مورد رزق

مضمون في كل موسم، وكل عام، وأينما كانوا يعيشون؛ وأن أولئك الذين يعيشون على أجورهم، قبل كل شيء، يجب أن يكونوا قادرين على شراء قوُتهم الذي يحتاجون إليه: هذه هي المصلحة العامة لكل أمة.“

اقترح كوندورسيه اثنين من السياسات الرئيسية لمنع الفقر. الأولى، التي ربطها مراراً وتكراراً مع آدم سميث، كانت إشاعة التعليم العام. إذ قال إنه من بين جميع أسباب الفقر، هناك سبب واحد فقط ينشأ نتيجة للتقدم الاقتصادي وليس لوجود المؤسسات السيئة. وهذا هو الفقر الناتج عن ”اختراع الآلات“، الذي يؤدي إلى البطالة بين ”العمال الذين لا يعرفون سوى كيفية فعل شيء واحد.“ ولكن إذا تمَّ تعليم العمال بشكل أفضل، فإن سبب الفقر هذا سيكون مؤقتاً. فالتوازن التنافسي العام لن يتحقق بكفاءة إلا إذا استطاع الناس الانتقال من صناعة إلى أخرى ومن وظيفة إلى أخرى: ”سيستغرق الأمر بعض الوقت لإعادة تأسيس التوازن، ولكن سيكون الوقت أقصر طالما أن هناك حرية أكبر [في التحول من عمل إلى آخر].“

ومثل آن روبير جاك تورغو (1727 - 1781) الاقتصادي والسياسي، كان كوندورسيه يصرُّ على أن النساء والرجال يجب أن يكونوا متعلمين، ولا يكفي تدريبهم بل إعادة تدريبهم: ”نحن نقترح تعليماً مشتركاً للرجال والنساء، لأننا لا نرى أي سبب ليكون مختلفاً“. إضافة إلى ذلك فإن التعليم له أهميته السياسية والاقتصادية. فالأشخاص الذين لا يعرفون الحساب، أو الذين لا يفهمون القوانين المحلية، يعتمدون على الآخرين: ”يجب على المؤسسات الاجتماعية أن تقاوم، قدر الإمكان، عدم المساواة هذا الذي ينتج التبعية.“ فالتعليم ضروري، قبل كل شيء، ”لإضفاء الحقيقة على التمتع بالحقوق التي يضمنها القانون للمواطنين“؛ ”هل يستمتع الشخص بحقوقه، عندما يكون جاهلاً بها، عندما لا يستطيع معرفة ما إذا كانت هذه الحقوق عرضة للهجوم؟“

كانت سياسة كوندورسيه الثانية للحد من الفقر، وتعزيز المساواة الاجتماعية، النتيجة المباشرة لتجربته وتجربة تورغو مع أزمات الغذاء في سبعينيات القرن السابع عشر. إن أحد أسباب الفقر، كما قال، هو الفقر نفسه: ”كل أسرة لا تملك أرضاً، ولا ممتلكات منقولة، ولا رأس مال، مُعرَّضة للوقوع تحت طائلة البؤس بسبب أصغر حادث. وبالتالي، كلما ازداد عدد العائلات المحرومة من هذه الموارد، زاد عدد الفقراء.“ وكان اقتراحه، في ظل هذه الظروف، إنشاء نظام لبنوك الادخار الاجتماعي: ”من خلال فتح بنوك ادخار، يمكن عن طريقها توفير مدخرات صغيرة للمساعدة في المرض وفي الشيخوخة، بحيث يمكن للمرء أن يمنع البؤس.“

أثناء الثورة، طوّر كوندورسيه أفكاره حول المدخرات الصغيرة إلى نظام رئيسي للضمان الاجتماعي. ووصف الآفاق المروعة للمرأة التي يعتمد وجودها ”بشكل مطلق على طول حياة الزوج“، و“العدد الكبير من المعوَّقين والمسنين والنساء والأطفال الذين تتدهور أوضاعهم من حالة من الراحة إلى حالة من الفقر والبؤس.“.. وقال إن من الضروري،

بالنسبة لرجل يعتمد عيشه على عمله، ''أن يضمن من خلال مدخراته وسائل العيش في سن الشيخوخة،'' فضلاً عن الموارد لزوجته وأطفاله في حالة مرضه أو وفاته. وهذا يتطلب وجود وسائل آمنة لوضع مدخرات صغيرة للغاية - حتى يومية. وقال إنه يمكن توفير مثل هذه الوسائل من خلال ''جمعيات الأفراد أو الشركات أو حتى الدولة.'' لكن الجمعيات صغيرة جداً بحيث لا تستطيع تقديم منافع على المستوى الوطني، في حين أن الشركات الخاصة ترى أن الأعمال غير مربحة بما فيه الكفاية.

على النقيض من ذلك يمكن للدولة إنشاء مؤسسات للتأمين الاجتماعي بالاستفادة من ''جداول الوفيات العامة'' لأعداد كبيرة جداً من الأفراد المؤمن عليهم. وبهذا الشأن كتب كوندورسيه إن الجمعيات والشركات الخاصة لديها خيار قبول ''الأشخاص الذين يقرّر طبيبهم، والذين تثق بهم، أنهم قد يصلون إلى متوسط العمر المتوقع للناس في عصرهم.'' ولكن هذه الوسيلة لا يمكن أن تكون مناسبة لمؤسسة أنشأت لعموم الناس.

سيكون الناس في المستقبل آمنين في شيخوختهم، مع زيادة مدخراتهم بفضل مدخرات الآخرين الذين ماتوا قبل التقاعد. وسوف تحصل العائلات على بعض ''التعويض'' إذا نكبوا بالوفاة المبكرة للأب. ويمكن إنشاء مؤسسات التأمين ''باسم السلطة الاجتماعية،'' ولكن يمكن أيضاً أن تتشكل كـ''جمعيات للأفراد،'' لأن مبادئ التأمين الاجتماعي ستكون مألوفة بشكل أكبر. ''إن تطبيق الحساب على احتمالات العمر المتوقع، وعلى التوظيفات المالية'' ستستخدم، من الآن فصاعداً، لصالح ''المجتمع بأكمله.'' ومن رأيه أن الحقبة القادمة لن تكون حقبة للمساواة الاقتصادية ''الكاملة'' - التي اعتبرها غير ملائمة للصناعة - ولكن حقبة ''المساواة الاجتماعية'' التي ستنشأ في أعقاب التعليم والتأمين الاجتماعي. ومن رأيه أيضاً أن ''المساواة الاجتماعية كافية، بحد ذاتها، للتخلص من سببين رئيسيين للفساد والإجحاف corruption and prej-dices، وهما الخمول والمثال السيئ.''

(4)
موقف من الدخل الأساسي الشامل والتأمينات الاجتماعية

في مناقشة للدخل الأساسي الشامل كتبت إيما روتشايلد، مديرة مركز التاريخ والاقتصاد في كلية كنغز في جامعة كمبردج، الآتي:

لقد كانت سياسات الاقتصاديين في القرن الثامن عشر الخاصة بزيادة الضمان الاجتماعي مختلفة إلى حد كبير عن مفهوم الدخل الأساسي الشامل لجميع المواطنين Universal Basic Income UBI.

ففي تسعينيات القرن الثامن عشر، اقترح كوندورسيه حزمة تضم التأمينات الاجتماعية، والتعليم، والإغاثة في حالات الطوارئ، ونظام شامل لمصارف الادخار، حيث يمكن حتى إيداع أصغر المدخرات اليومية بأمان (نوع من الائتمان الصغير micro-credit، حيث يكون الفقراء بمثابة الدائنين). إن السياسات الاجتماعية من هذا

النوع هي مكملة للدخل الأساسي الشامل للجميع، وستظل هذه السياسات مهمة حتى لو تم تنفيذ UBI. إن هدف زيادة الضمان الشامل للإعانة لا يتطلب وجود UBI لا بل أن الـ UBI قد يزيد من عدم المساواة فعلاً، إذا تم تمويله من خلال تخفيض النفقات الاجتماعية، أو في المدفوعات للمسنين والعجزة، أو الإعانة في حالات الإغاثة الطارئة [15].

إن أفكار مالثوس حول السكان ما زالت تثير النقاش، أما أفكار كوندورسيه فقد تُرجمت فلسفتها في أنظمة الضمان الاجتماعي المختلفة التي تبنتها معظم الدول الرأسمالية.

الهوامش:

1- فصل من كتاب بعنوان التأمين في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي لم ينشر بعد.

2- كانت هذه المراسيم جزءاً من الحرب الاقتصادية ضد بريطانيا بدأها نابليون سنة 1806 و 1807 والتي فرضت الحظر على التجارة مع بريطانيا.

3- (3) T. R. Malthus, An Essay on the Principle of Population, edited by Donald Winch (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), p 175.

4- المصدر السابق، ص 176.

5- تورد الموسوعة الحرة التفاصيل التالية عن هذا المقياس:

https://en.wikipedia.org/wiki/Quarter_(unit)

In measures of weight and mass at the time of the Magna Carta, the quarter was ¼ ton or (originally) 500 pounds. By the time of the Norman French copies of the c. 1300 Assize of Weights and Measures, this had changed to 512 lbs.[6] These copies describe the "London quarter" as notionally derived from 8 "London bushels" of 8 wine gallons of 8 pounds of 15 ounces of 20 pence of 32 grains of wheat, taken whole from the middle of an ear;[7][8] the published Latin edition omits the quarter and describes corn gallons instead.[9]

The quarter (qr. av. or quartier) came to mean ¼ of a hundredweight: 2 stone or 28 avoirdupois pounds [10] (about 12.7 kg).

6- Geoffrey Clark, "Insurance as an Instrument of War in the 18th Century," The Geneva Papers on Risk and Insurance, Vol. 29, No. 2 (April 2004) 247-257.

قمت بترجمة هذه الدراسة إلى العربية لكنها لم تنشر بعد.

7- تمَّ حل لجنة تسعير أخطار الحرب في تموز/يوليو 2004 كونها تتنافى مع قوانين المنافسة في المملكة المتحدة والاتحاد الأوروبي، والاكتفاء بإصدار النشرات الخاصة للمكتتبين حول المناطق الساخنة التي تنطوي على خطر الحرب.

8- John Bellamy Foster, "Malthus' Essay on Population at Age 200," Monthly Review (December, 1998)

https://monthlyreview.org/1998/12/01/malthus-essay-on-population-at-age-200/

وهي منشورة أيضاً كفصل في كتابه:

Ecology Against Capitalism (New York: Monthly Review Press, 2002), pp 137-154>

9- Antoine-Nicolas De Condorcet, A Sketch for a Historical Picture of the Progress of the Human Mind.

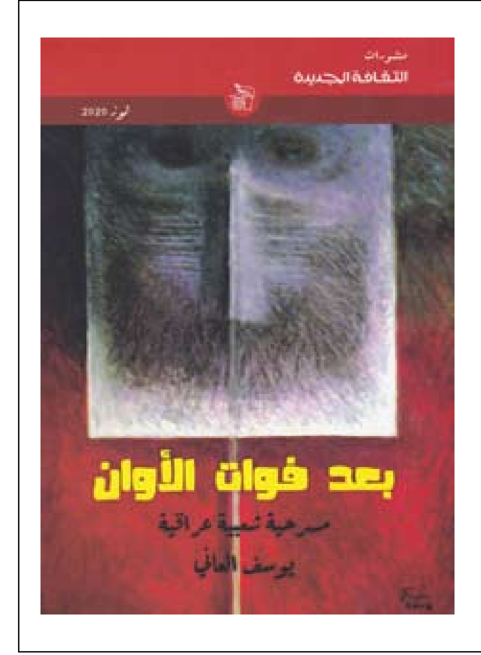
10- Malthus، مصدر سابق، ص xxvii.

11- Malthus، مصدر سابق، ص 47.

12- Malthus، مصدر سابق، ص 47.
13- اعتمدنا في كتابة هذا القسم على ترجمة ما ورد من نصوص لكوندورسيه (وبعضها مذكور في كتاب مالثوس) في دراسة:
Emma Rothschild, "The Debate on Economic and Social Security in the Late Eighteenth Century, Lessons of a Road Not Taken," United Nations Research Institute for Social Development Dp 64 (1995)
http://unrisd.org/80256B3C005BCCF9/(httpAuxPages)/0CBF81D9A5B6F87580256B67005B67D7/$file/dp64.pdf
وكذلك الاقتباسات المختارة من كتابات كوندورسيه المنشورة في موقع Humanistic Texts
http://www.humanistictexts.org/condorcet.htm
14- للتعريف بكوندورسيه وكتابه راجع: د. السيد محمد البدوي، مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، سلسلة تراث الإنسانية.
file:///C:/Users/Misbah%20Kamal/Downloads/Booksstream_k33_BookK2RTFTF6.pdf.
15- Emma Rothschild, "A response to "A Basic Income for All" by Philippe van Parijs," Boston Review http://bostonreview.net/archives/BR25.5/rothschild.html.

«بعد فوات الأوان»

ضمن منشورات مجلة « الثقافة الجديدة» صدرت حديثا مسرحية بعنوان « بعد فوات الأوان» للفنان الراحل يوسف العاني. كان قد كتبها في السجن عام 1963 وأرسلها للاستاذ عبد الله حبه. ولم تنشر من قبل. قدم للمسرحية د.جبار خماط. وقد أهدى المؤلف نصه الى مقداد احمد العامل شقيق الشاعر رشدي العامل. وكان مقداد قد تعرض لمرض السحايا واصبح اصم وابكم وتعرض للتعذيب بعد انقلاب 1963.



سبعة أعوام على اخفاق الاخوان في الحكم
قراءة تحليلة لمسار الثورة في مصر *

محمد الكيم
باحث أكاديمي

في الثلاثين من حزيران الماضي، مرت الذكرى السابعة لمظاهرات 30 حزيران 2013 ضد حكم الاخوان المسلمين في مصر، ومع أخذ مكانة مصر الجيوسياسية والمعطيات التاريخية والظروف التي مرت بها منطقة بنظر الاعتبار، يمكننا تسليط الضوء على اشكال القوة وطرائقها اثناء التغييرات السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية في مصر بين عامي 2011 و2013.

بعد هذه السنوات السبعة يمكننا وبأريحية تامة إعادة قراءة تلك الفترة والتي يمكن أعتبارها من أسرع فترات التحول السياسي وتغيير المسار في ثورات الربيع العربي.

الأهمية الجيوسياسية

يقول هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي الاسبق في حديث له أنه ”لا حرب دون مصر ولا سلام دون سوريا“، في حين يختصر محمد أنور السادات الرئيس المصري الأسبق المكانة الاستراتيجية لمصر برده: ”لا حرب ولا سلام دون مصر“، فمكانة مصر التاريخية والجغرافية جعلت منها محورَ الشرق الاوسط الكبير الممتد من افغانستان وحتى المغرب العربي لتكون بذلك العمود الفقري للعالم العربي. فضلا عن ان مصر حاملة للواء القومية العربية الموازن للقوى الاسلامية في المنطقة. ومن باب آخر للموازنات فيمكننا اعتبار مصر والسعودية وباكستان هي القوى الاسلامية السنية المواجهة للقوى الاسلامية الشيعية المتمثلة في ايران[1]. أما جغرافياً فان موقع مصر على بحرين متقاطعين تم ربطهما بقناة السويس جعلتها باباً بين افريقيا وآسيا، والجدير بالذكر ان هذا الباب يدر عليها ما يقارب 5 مليار دولار سنويا[2]. أما وجود نهر النيل والذي تمتد منابعه من قلب افريقيا يحتم على مصر ان تلعب دورا اقليميا كبيرا في الجانب الافريقي. بالاضافة الى ان هذا الموقع الجغرافي المميز اعطى لمصر أهمية تأريخية دينية بأن يكون وصول الاسلام للمغرب والاندلس من خلالها.

تمتاز مصر بانها دولة لها مقومات ”دولة كبرى“[3]، وظهر ذلك واضحا منذ أيام نهضة محمد علي باشا، فعلى سبيل المقارنة، في العام 1952 كانت مصر تملك سينما ومترو في حين كانت اليابان مدمرة وتخلصت للتو من الاحتلال الأمريكي. وفي

ذلك الوقت ايضا كانت مصر تنافس كوريا الجنوبية في اقتصادها وتسبقها، لكن هذه الدولة ذات المقومات الكبرى لم تتطور منذ ثلاثين سنة سوى في زيادة أعداد السكان والتي لا تتناسب مع الزيادة الضئيلة الحاصلة في الدخل[4].

كامب ديفد

بعد هذا التقديم عن أهمية مصر الجيوسياسية، لا بد من الاشارة الى ان هنالك عوامل تعرية سياسية أثرت على هذه الأهمية سلبا و ايجابا، ويمكن اعتبار ان اهم عامل خارجي قد اثر على مكانة مصر الاقليمية في القرن العشرين هي اتفاقية كامب ديفد، حيث انهت الاتفاقيةُ الحربَ المباشرةَ، بتقسيم القوة العربية عن طريق تأمين جانب مصر، والذي أدى الى خسارة مصر دورها الاقليمي. ومن الجدير بالذكر فأن خارطة العالم العربي تتسم بالطول لكنها تفتقر الى العمق، اي انها اشبه بالمستطيل ومصر تكون في وسط هذا المستطيل فبعد كامب ديفيد خرجت مصر من اللعبة[5]، وانقسم المستطيل من وسطه. ان اتفاقية السلام كانت يمكن ان توفر لمصر أجواء جيدة لشق طريقها نحو الازدهار الاقتصادي، لكن ذلك لم يكن بهذه السهولة، والاسباب كثيرة لسنا بصدد ذكرها ولا بصدد تقييم الاتفاقية.

الثالوث المصري

يقول الكاتب جمال حمدان في كتابه "شخصية مصر" لا بد من فهم ديناميكية مصر السياسية والاجتماعية والقائمة على ثالوث لا يمكن تغييره (العسكر – الحاكم – الدين)، فالسلطة في مصر لها وجه واحد لم يتغير منذ أيام محمد علي باشا، اي ان الحكم ذو رأس واحد، الرئيس هو الحاكم العسكري[6]، وهذه الصورة هي الثابتة أمام الجمهور الذي يُعتبر عنصرًا اساسيا في البناء الاجتماعي لمصر بعد الجيش والدين. هنا يمكننا القول ان الحكومة يمكن ان تبقى بسلام وأمان اذا ما عملت على توازن بينها وبين الجيش والامن الداخلي، وهذا التوازن الصعب موجود على الاقل منذ العام 1952،اي انه اثبت فاعليته بعد الثورة ضد الملكية. وهنالك امثلة على اهميته فمثلا ان الرئيس السادات قام بتهميش الجيش وخصوصا بعد كامب ديفيد، وبالتالي اصبحت الحكومة أقوى من الجيش مع سوء ادارة في الملف الديني فإنتهى الأمر باغتياله. أما الرئيس مبارك فقد حول الدولة الى دولة بوليسية من خلال اعطاء الامن الداخلي اهمية كبرى وصار هو المسؤول المباشر عليها تقريبا، ثم اعطى للجيش سلطة مستقلة مع اقتصاد مستقل بعائدات تقدر بـ 4 مليار دولار سنويا، واوكل اليه مهمة الدفاع عن الوطن، وأهمل بدوره البناء الحكومي فاختل التوازن وتداخلت الاوضاع، فبدأت الجماهير بممارسة شرعيتها بخروجها ضد الفساد والدكتاتورية ومن أجل الكرامة في العام 2011، حيث ان ما حصل لم يكن ثورة فقط وانما هي نقمة على نظام لم يلبِ احتياجات الشعب فالاعداد الهائلة التي طالبت بالتغيير لم تكن لأي قوة عسكرية او أمنية أو حتى روحانية ان تدفعهم للخروج او التجمع، فقد كانت رغبة حقيقية بالتغيير الذي كان من المفترض ان يحدث في وقت سابق من القرن العشرين حيث الثورات نحو الديمقراطية[7].

ثورة بعوامل نجاح حديثة

لم تكن ثورة يناير وليدة ساعتها أو ثورة غضب عابرة، وانما كانت نتيجة طبيعة لتراكم الحراك السياسي الوطني لكثير من التنظيمات والحركات التي نادت بالديمقراطية منذ مطلع القرن الحادي والعشرين. وبعيدا عن كل التوصيفات والتحليلات فأن الشباب المصري استغل بذكاءٍ عالٍ السوشيال ميديا في التأسيس لثورة يناير 2011 واشعالها وساهم الاعلام العالمي على استمرارها، ويمكن القول بأن تهديد وجود الطبقة الوسطى المصرية بسبب قلة الموارد ادى الى ذلك الهيجان الشعبي، اضافة لكل ما ذُكر فأن موقف الجيش المصري الى جانب المتظاهرين كان مشرفا، ويجعلنا نغض النظر فيما اذا كان الدافع الاهم في دعمه للثورة هو للخلاص من فكرة التوريث الرئاسي التي طفت على السطح في تلك الفترة أم لا، فالجيش المصري مجموعة مؤسسات مستقلة متكاملة متخصصة لا تتحمل قيادة الدخلاء غير العسكريين.

الاخفاقة الأولى

بعد تنحي مبارك عن السلطة أصبح وجود الجيش أساسيا في المشهد وخصوصا ان خروج مبارك من اللعبة يعني تشققات في بناء الامن الداخلي. بعد نجاح الثورة والسير بخطى ديمقراطية نحو الانتخابات، اعتقد الاخوان المسلمون بوصولهم للسلطة بأنهم سيتمكنوا من أقامة تغيرات كلية في الجيش ومؤسساته او التلاعب بامكانياته الاقتصادية، فالرئيس المصري الراحل محمد مرسي والذي يمكن اعتباره اول رئيس مصري مُنتخب منذ 5000 سنة أراد السيطرة على السياسة والعسكر والدين والجمع بينهم، فقد حاول لعب دور اقليمي في الازمة السورية مستخدما العامل الديني بدلا عن عامل القومية العربية[8]، متناسيا أن هذا المشروع لا يمكن تنفيذه دون استقرار داخلي واقليمي، خصوصا وان مرسي لم يستطع الانسلاخ من انتمائه للأخوان ولم يتجاوز البعد الايديولوجي الديني طوال فترة حكمه لمصر.

صراع القومية والدين

كان يمكن لمصر ان تلعب دورا اساسيا اقليميا في المنطقة أثناء فترة حكم الاخوان عام 2012، فيما لو كانوا قد اسسوا لإطار عام سياسي ويقوم على مفاهيم دينية لا تشابه مشروع السعودية العربية تلافيا للتعارض والخلاف، فالسعودية سابقا كانت تدعم الاخوان نكاية بجمال عبد الناصر وهاجس القومية العربية المسيطر عليه، اما في العام 2012 أي بعد أن أصبح الاخوان في هرم السلطة، صارت السعودية تعتبرهم تيارًا راديكاليًا متطرفًا، لانه تيار منافس بايديولوجيا مختلفة. بالاضافة الى سريان مفعول اتفاقية كامب ديفيد بوجود مرسي او بغيره يزيد من صعوبة هذا الدور. أما داخليا فقد اتسمت فترة حكم الاخوان لمصر بالتخبط ولاسباب كثيرة أهمها هي ان عقيدة الاخوان لا تتناسب مع تركيبة مصر الاجتماعية، فقد استهان الاخوان بحلفائهم الذين أشعلوا جمرة الثورة في العام 2011 وعملوا على استمراريتها[9]، حتى انهم نسوا مزاجيات الثوار وتطلعاتهم. فلم يقرأ الاخوان كيف يفكر الجيش، كيف

تفكر أمريكا، كيف يفكر الشارع المصري، الذي حاول مرسي تحريكه بدوافع وأفكار الاسلام السياسي بعد ان كان قد تعود على الدوافع والافكار القومية منذ تولي عبد الناصر الحكم.

تحديات أربكت الاخوان

أراد الاخوان السيطرة الكاملة على الاوضاع نتيجة طموحهم السياسي غير المبرر والذي لم يكن كافيا للسيطرة على الأوضاع وأدى ذلك الى فشلهم السريع، ولا نستبعد وجود نية مبيتة من الجيش لتركهم يصطدموا بواقع لم يتعودوا عليه. فكان من جملة المشاكل التي واجهت الاخوان في العام 2012:

1. يعيش المواطن المصري بمعدل 2 دولار يوميا مع ازدياد البطالة بنسبة 15% وعجز في الميزانية 31 مليار دولار نهاية العام 2012

2. بلغت الديون الداخلية حوالي 200 مليار دولار، والخارجية 34 مليار دولار مع فجوة تمويلية 14 مليار دولار[10].

3. في الربع الاخير من العام 2012، بلغ الاحتياطي النقدي المصري 16 مليار وهذا كافي لثلاثة أشهر فقط، فأصبحت مصر بحاجة للدعم السعودي والقطري والامريكي في حينها.

4. احتلت مصر مراتب متدنية بالأمن السياحي بين عامي (2011-2013) وهذا يعتبر ضربة قاسية لدولة مثل مصر تعتمد كثيرا على السياحة.

5. تفاقم مشكلة تداخل المياه المالحة في منطقة الدلتا بسبب الاحتباس الحراري وهذا شكل خطرا كبيرا على 85% من السكان والذين يتركزون في الدلتا والتي تشكل 20% من مساحة مصر.

6. تراجع زراعي – بيئي حيث تراجع الدخل القومي 5% عما قبل 2012 ليكون 257 مليار جنيه، صاحبه انتشار واسع الجراد في الحقول الزراعية.

7. ازدهار تجارة السلاح غير المرخص والذي كان يدخل عبر الحدود الليبية بين عامي (2011 - 2013)، وما تزال الازمة متفاقمة وتداخل المواقف حول الوضع الداخلي الليبي والتهديد المصري بالتدخل العسكري.

8. المشكلات الاقتصادية بسبب مشروع التقشف والذي أثر على مقدار العملة الصعبة في البلد وهذا بدوره أثر على كميات البضائع المستوردة وايضا على سعر الجنيه والذي يعتبر من اساسيات الاستقرار الاقتصادي.

9. زيادة عدد السكان دون وجود نمو اقتصادي حيث ان الثورة ورثت اختلالات هيكلية، فالنمو الاقتصادي قبل ثورة يناير 2011 كان 6% أما بداية 2012 فقد كان 3.5% مع وصول حد الفقر لنسبة 40%.

مظاهرات تعيد الثالوث

في 30 حزيران 2013 ونتيجة لكل ما تقدم مارست الجماهير شرعيتها مرة أخرى بعد أن ألفت طعم الحرية وعينت نفسها راعيا على نتائج الثورة، وبدعم أكبر من الجيش هذه المرة وبغض النظر عن الدوافع ايضا، وصل عبد الفتاح السيسي الى سدة الحكم في العام 2014، وهنا لابد من الاشارة الى ان اسلوب السيسي يختلف عن اسلوب مرسي في التعامل مع الوضع العام، عبد الفتاح السيسي ابن المؤسسة العسكرية،

وهذه المؤسسة يثق بها المصريون الى حد كبير. فاعتبره بعض المصريين خليفة ناصر في توحيد الصف والتعامل مع الازمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. على الرغم من الفرق الكبير في تعداد الشعب المصري بين أيام عبد الناصر والسيسي، لكنه استطاع خلال هذه السنوات اعادة التوازن للثالوث آنف الذكر والمحافظة عليه على الرغم من تفاقم الكثير من الازمات في مصر، ابتداءًا من آخرها (أزمة جائحة كورونا) والتي أثرت سلبًا على الاقتصاد العالمي بشكل عام والمصري بشكل خاص، والذي يعاني من مشكلات كبيرة منذ العام 2012 وفي قطاعات مختلفة كالاستثمار، والسياحة[11]، ومشاكل استيراد الرز وتصدير القطن والتي لمّا تزل قائمة حتى اليوم، وانخفاض معدل تصدير الغاز السائل يوما بعد يوم، بعد اكتشاف الغاز الصخري في امريكا. ومن الأزمات الاقليمية التي تنامت في السنوات الأخيرة هي مشكلة سد النهضة الارتيري على منابع النيل، والتي وصلت طريقا شبه مسدود بعد فشل المفاوضات في النصف الاول من هذا العام، ناهيك عن اللااستقرار في المنطقة بعد الربيع العربي وظهور قوى اقليمية جديدة متحكمة (ايران – اسرائيل – تركيا) الذي يمكن ان يحد من الدورين الجيوسياسي، والأمني على اعتبار ان مصر الآن في حالة حرب مع المجموعات الارهابية المتمركزة في سيناء والمدعومة من جهات اقليمية.

التغيير يكمن في العامّة

لم تكن قراءة الأحداث مرتبطة ارتباطا وثيقا بما يدور اليوم في مصر، فلم يكن هدف المقال المقارنة بين فترة حكم الرئيس مرسي وفترة حكم الرئيس السيسي، والتي يعتبرها بعض المراقبين حكما عسكريا استغل مظاهرات حزيران 2013 للوصول الى سدة الحكم. وانما محاكاة لهيكلة المنظومة السياسية في مصر، بوجود قوتين كبيرتين هما العسكر والدين، ونقاط التلاقي مع قوة الجماهير التي اختارت ان تكون رقما صعبا في المعادلة السياسية المصرية، جابهت الفساد والدكتاتورية في العام 2011، ورفضت تغيير هوية البلاد في العام 2013، ولا غرابة اذا ما رأينا نفس الجمهور، خارجا بالملايين اذا ما أحس بالظلم والاضطهاد. فالمليونية والسلمية كانا السلاح الأمضى للجماهير المصرية التي خرجت بين عامي 2011 و2013.

خلاصة القول ان السبب في خروج مرسي من الحكم بشبه انقلاب هو فشله في ادارة التوازن الداخلي بين الحكومة والجيش والدين، فالاطاحة بمرسي المنتخب من قبل 12 مليون مواطن والاتيان بالسيسي بانتخابات أخرى هو اثبات آخر لنظرية الثالوث المصري الثابتة، وتأكيد على الشخصية المصرية المنبسطة غير القابلة للتغيير بسهولة مثل مجرى النيل الذي يعدل مساره دائما ويعرف استقراره.

الهوامش:

1- جاء على لسان محمد مرسي الرئيس السابق لمصر في أحد المؤتمرات الاسلامية (ان السعودية العربية هي بيت الاسلام السني ومصر هي الحامي لهذا البيت).

2- (2) في يوليو الماضي صرحت هيئة قناة السويس المصرية لرويترز إن ايرادات القناة للعام المالي 2020-2019 بلغت حوالي 5.72 مليار دولار، وهو اقل من ايرادات العام السابق بنسبة 9.6% على اساس سنوي في آيار، بسبب جائحة كورونا.

3- الدولة الكبرى هي دولة ذات سيادة، لديها القدرة والخبرة العالميتين لممارسة نفوذها على نطاق عالمي، حيث تمتاز بقوة عسكرية واقتصادية، ودبلوماسية يجعلها قادرة على فرض آرائها على القوى المتوسطة أو الصغيرة.

4- كان الدخل السنوي لمصر في العام 1981، 40 مليار دولار ونسبة المتعلمين من السكان هي 50%، اما في العام 2012 فالدخل السنوي 140 مليار دولار ونسبة المتعلمين 66% من السكان.

5- خصوصا بعد ان قامت اسرائيل بتقسيم سيناء الى ثلاث مناطق دفاعية واعتمادها مبدأ (Early warning).

6- تغير هذا الوضع لفترة مؤقتة أثناء حكم مرسي.

7- يقول الكاتب وليد عربيد: "ان فلسفة الثورات في القرن العشرين كانت قائمة على القيم اما فلسفة الثورات في القرن الواحد والعشرين فهي قائمة على المصالح".

8- وهذا العامل تتقن مصر اللعب عليه ببراعة في المنطقة منذ أيام جمال عبد الناصر.

9- الحركات التي ساهمت في اشعال فتيل ثورة يناير 2011 مثل شباب حركة كفاية، شباب 6 أبريل وغيرهم من الاحزاب والتنظيمات التي دعمت الثورة منذ يومها الاول.

10- بلغت الديون الخارجية المصرية لهذا العام 2020 حوالي 120 مليار دولار، بحسب صندوق النقد الدولي.

11- في العام 2009 كان دخل مصر السنوي من السياحة 10.7 مليار دولار اما في العام 2013 فكان 1.3 مليار دولار، لكنها عاودت للارتفاع بداية هذا العام اي قبل انتشار جائحة كورونا لتصل الى 16.5 مليار دولار.

المصادر:

جمال حمدان، شخصية مصر، دار الهلال للنشر، القاهرة 1967.

Agnieszka Dobrowolska, Khaled Fahmy, Muhammad ‘Ali Pasha and His Sabil, American University in Cairo Press, 2004.

Beverley Milton-Edwards, The Muslim Brotherhood: The Arab Spring and its future face, Routledge, London,2015.

Ephraim Dowek, Israeli-Egyptian Relations 1980-2000, Frank Cass, London, 2001.

Lloyd C. Gardner, The Road to Tahrir Square: Egypt and the United States from the Rise of Nasser to the Fall of Mubarak, Saqi, Cairo, 2011.

Mona L. Russell, Egypt (Middle East in Focus), Abc-Clio, California, 2013.

Nael Shama, Egyptian Foreign Policy From Mubarak to Morsi: Against the National Interest, Routledge, London,2013.

Sam Witte, Gamal Abdel Nasser, The Rosen Publishing Group, New York, 2004.

Sherif Khalifa, Egypt’s Lost Spring: Causes and Consequences: Causes and Consequences, Abc-Clio, California, 2015.

https://www.alarabiya.net/ar/aswaq/economy/2013/11/05/تقرير-ارتفاع-ديون-مصر-الخارجية-والداخلية-في-عهد-مرسي.html

https://thenewkhalij.news/article/201097/ديون-مصر-الخارجية-تصل-إلى-120-مليار-دولار-بنهاية-يونيو

https://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2013/6/27/اقتصاد-مصر-في-عهد-مرسي

https://www.alhurra.com/egypt/2020/07/04/انخفاض-إيرادات-قناة-السويس-572-مليار-دولار

http://archive.aawsat.com/leader.asp?article=707714&issueno=12428#.WotAIKinFPY

http://archive.arabic.cnn.com/2012/middle_east/7/12/mursi.saudi.visit/

https://www.bidayatmag.com/node/281

* قدّمَ الكاتب محاضرة مقتضبة حملت نفس العنوان في مؤتمر "مصر اليوم والأمس بين الحداثة والتقليد" الذي اقامه معهد الثقافات المتوسطية والشرقية التابع لأكاديمية العلوم البولندية، بالتعاون مع قسم الدراسات العربية والاسلامية في جامعة وارسو، ايلول 2017.

قراءة في كتاب:
الشيخ عبد الكريم الماشطة
صوت شعب وقامة سلام

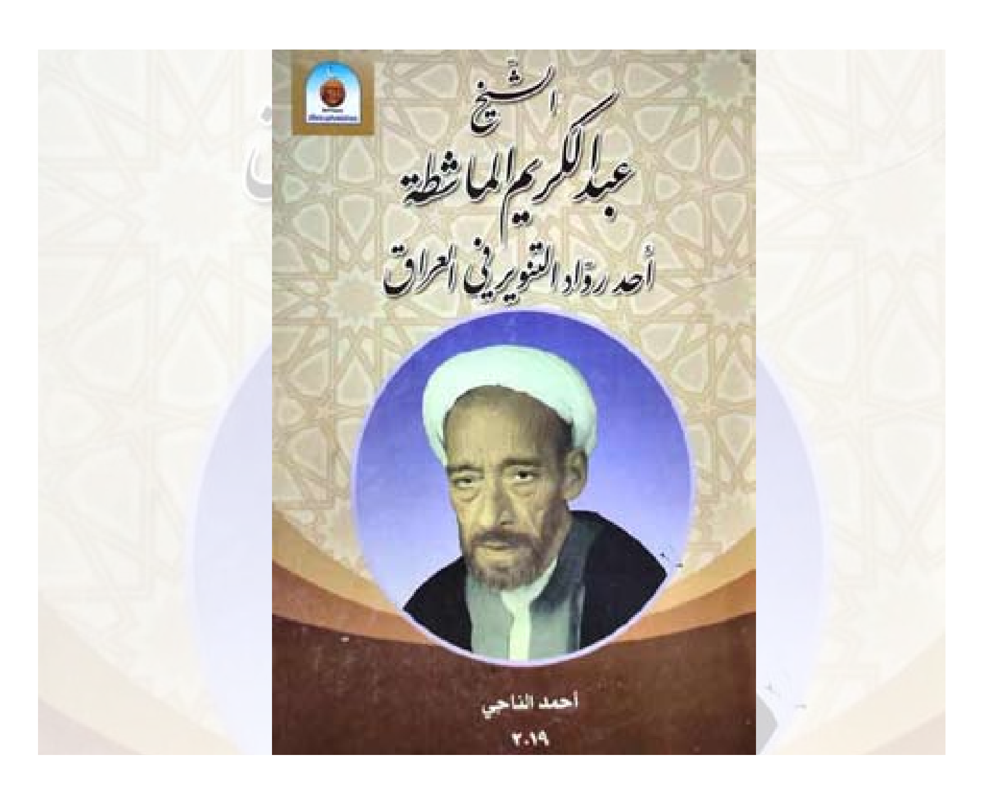
شريف هاشم الزميلي

أيّ وجع تحمله عينا الشيخ الجليل على صدر الغلاف الأول ؟* لكتاب (الشيخ عبد الكريم الماشطة أحد روّاد التنوير في العراق) للمؤرّخ أحمد الناجي الصادر عن وزارة الثقافة العراقية 2019م. عمّ تُفصح ملامحه؟ وقد أدرك ما يُعاني العراقيون من اضطهاد, بسبب تمكين الأنظمة الرجعية النفوذَ الأجنبي من السيادة الوطنية, تلك السيادة التي ظلت موضع اهتمام المخلصين العراقيين, ومنهم الشيخ الماشطة, بأفكاره المتطلعة إلى عراق حرّ, يسوده ما في قاموس الحياة من معان تسمو بالإنسان, من وعي وحكمة, نبوغ وعدل, جهاد وبناء, يتقدمها جميعاً سعي مخلص إلى مناصرة قضية السلام العالمي، سلام ترفرف راياته في سماء صافية صفاء نفوس الحالمين بها, والارتقاء إلى حريّة ينعمون بها, وعدالة بها تستقيم الحياة, في ظلال ما يحققانه معاً من مساواة تشكّل مساراً باتجاه حياة كريمة للإنسان.

والعلامة الكبير, الشيخ عبد الكريم الماشطة بذل أقصى جهوده, بما عُرف عنه, من حرص وعزم عاليين, للنهوض بما ائتمنه عليه العراقيون, فضلاً عن ضميره الذي كان صمام أمان لخطواته, زادها اتساعاً خلوص نواياه, وإخلاصه لمنهج اختطّه بإرادة واعية وعزيمة لا تلين.

أن يبرز في مدينة الحلّة الشيخ الجليل عبد الكريم الماشطة, بالرغم من سطوة الدولة العثمانية, ومن بعدها الاحتلال البريطاني, فليس ذلك بغريب, مادام في الغيارى من العراقيين ما يمكّنهم من تحدّي ما يعوق مسيرتهم.

"كان للحاج عبد الرضا والد الشيخ عبد الكريم الماشطة مجلس تحضره نخبة من رجالات المدينة, من المهتمين بالعلم والدين والأدب... لهذا المجلس المنفتح على الثقافة أثره البالغ على نشأة الشيخ عبد الكريم, حيث: تربية مركزة على تعاليم الدين الإسلامي, من المعرفة والثقافة, وهو ما منحه فرصة الانطلاق نحو أبواب العلم والمعرفة" (ص22)



إن ما يسعى إليه الشيخ الماشطة, أن يكون للحقّ والعدل والسلام صوت, وقامة تفوق قامات أولئك الساعين إلى هدر مقومات المجتمع, وتفكيك أواصر العلاقات الإنسانية, مثل تلك المهام الجسيمة تتطلب عدّة رصينة, في مقدمتها الفكر الذي ''بدأ تشكيله في مدينة النجف الأشرف, إذْ أكمل فيها دراسة المناهج المقررة في الحوزة الدينية: النحو, البلاغة, المنطق, وأصول الفقه, وبذلك امتلك أرضية رصينة ومقدرة حفزت لديه شغف البحث في الموروث الإسلامي, والتواصل مع كل ما هو جديد, فتتبّع الأصالة, وتقصّى في النظريات الفلسفية للكون والوجود''. (ص23)

لم يكتفِ الشيخ عبد الكريم الماشطة بإغناء ثقافته في حدود منابعها المحليّة, كان مُتابعا ما يدور في الجوار من أحداث وحركات يرى في متابعتها ما يعينه على تحقيق أهدافه. ''ارتبط بالفكر التنويري, مُمثّلا بأفكار رفاعة الطهطاوي, وعبد الرحمن الكواكبي, وجمال الدين الأفغاني, ومحمد عبده. وكانت أولى الومضات.. هي أحداث المطالبة بالدستور في إيران عام 1905, التي استمرت أحداثها عاصفة إلى أن تمّ إعلان الدستور''1907. (ص24)

وخلال ثورة العشرين أسهم الشيخ الماشطة والمخلصون من أبناء الحلة فضلاً عن الحريصين على قدسيّة الأرض

العراقيّة من دنَس الاحتلال البريطاني الذي لا يفهم سوى لغة القوّة, وليس بخافٍ على الحليين اعتقال الشيخ الماشطة بتهم جاهزة, بما فيها إشعال فتيل الثورة. ''ويمكن ملاحظة بواكير سمة الانسجام والتوافق بين الفكر والسلوك عند الشيخ عبد الكريم الماشطة, التي ظلّت ملازمة له طيلة حياته من خلال تتبّع مواقفه من أحداث المطالبة بالدستور 1908. وحركة الجهاد ضد الاحتلال البريطاني 1914-1918 وثورة العشرين 1920''. (ص38)

فتحت تلك الأحداث أمام الثائرين فسحة من التأمّل لترسيخ قيم ومفاهيم مقرونة بأنشطة جماعية من شأنها أن توحّد جهودهم لتحقيق, استقلال البلاد, وتعميق الوعي الوطني الذي بدت بشائره تلوح في الأفق مع تزايد وطأة الاحتلال, ولتعزيز ذلك الوعي ''لم يتهيب الشيخ الماشطة من مخالفة فتاوى تحريم التعليم.. - الذي يرى فيه- وسيلة للتحرر, فالتعليم بنظره من مقومات نهضة المجتمع.. ولم يقف الشيخ في قضيّه التعليم عند هذا الحدّ بل انتصر بكل جرأة لقضية تعليم المرأة وعبّر عن ضرورة تمكينها من أداء دورها في بناء المجتمع. وقد جسّد قناعته بتلك الأفكار والرؤى واقعاً ملموساً على حياته الشخصية حين دخل أبناؤه إلى المدارس منذ بداية تأسيسها''. (ص43)

ثمة فضاء واسع تحرّك فيه الشيخ الماشطة متمثلاً بالسلام , هذه المفردة السحرية, فالسلام حلم تسعى البشرية جمعاء إلى تحقيقه باعتباره الحاضنة الأمينة لكل ما هو جميل في الحياة وهذا ما دعا إليه الشيخ الجليل بالرغم من مضايقات الأجهزة الأمنية.

''كان عقد الخمسينات في الحلة حافلاً بالنشاطات السياسيّة المتميّزة, ومنذ بدايته انضم الشيخ الماشطة إلى حركة أنصار السلم, وظف أنشطته الاجتماعية والسياسيّة والفكريّة لتكريسها في المدينة على وجه الخصوص, وفي العراق عموماً كتيّار تقدمي مناصر لقضيّة السلام في العالم, وفي الوقت نفسه كان ظهيراً ومسانداً للقوى والأحزاب الوطنية لتفعيل دور الجماهير في تحقيق آمالها في التحرر الوطني وبناء الحياة الديمقراطية''. (ص56)

لم يتوقّف الشيخ الماشطة عن الأنشطة المناهضة لسلطات الاحتلال, وأفعال المشبوهين الذين اشترت تلك السلطات أصواتهم بقصد إخماد جذوة الشعور الوطني لأولئك المكتوين بنار الاحتلال, تلك الأنشطة التي ''بلورت ضرورات قيام جبهة الاتحاد الوطني مطلع شباط 1957, التي أسهمت بتكوين الأرضيّة الاجتماعية والسياسيّة الممهدة لقيام ثورة 14 تموز 1958''. (ص67)

ولكي تصل أفكار الشيخ الماشطة إلى أولئك الذين أذكى الحسّ الوطني فيهم جذوة التطلع إلى واقع أفضل يمكّنه من طرح تلك الأفكار, وعليه هو نفسه إيصالها إلى الجماهير, لذلك كانت مجلة

(العدل) التي ”أصدر منها عدداً واحداً في آذار 1938م , طبع في المطبعة العصرية في الحلة, وقد قامت السلطة بمصادرته قبل توزيعه, ومن ثمّ ألغت امتياز المجلّة“. (ص69) ما الذي دعا إليه الشيخ الماشطة في مجلته (العدل) حتى بادرت السلطة إلى إلغاء امتياز المجلة؟

إنّ نظرة متأملة إلى عناوين المقالات المحرّرة بقلم الشيخ الماشطة فضلا عن مقدمة العدد, توحي بما يريد إيصاله إلى أولئك المتعطشين إلى مثل هذه القيم والمفاهيم التي ندر الحديث عنها في ظلّ سلطة الاستبداد. ”تتبدّى مقاصد الشيخ الماشطة بوضوح في اختيار عنوان أولى المقالات, إذ جاء متطابقاً مع اسم المجلّة (العدل) ومنسجماً مع غاياتها, ولعلّ معناه الواسع يتكامل مع المقالة الثانية.. (الحريّة), إذ يشكلان مرتكزات رئيسة لفكره, وعناوين محدّدة لاشتراطات نهوض الأمة“. (ص70)

أمّا مقالته (بين الوطنية والأممية), التي جاءت بعد تقديمه مهاداً عدّه مناسباً لإيصال طروحاته, ولإغنائها فهي تؤسّس ”أبعاداً إنسانية, وأفكاراً منفتحة, غاياتها تجاوز الحواجز المفتعلة, والأطر الضيّقة التي من الممكن أن تبلور شروط استغلال الإنسان, ومناخات منتجة لعوالم الظلم والاضطهاد فتغدو الوطنية في فكره منسجمة مع ما هو إنساني,.. وضمانة لحرية الشعوب والعدل والمساواة“. (ص80)

ويؤكّد الشيخ الماشطة في مقالة (الدعوة الإسلامية) قواعد ينبغي اتباعها وتدارسها, ”والمتحصّل من هذه القواعد هو أن الإسلام يدعو إلى الخضوع إلى الأحكام العقلية وتجنب المنكرات والفواحش التي يأباها الضمير... -هذا يعني- أنّ الشيخ الماشطة تعامل بوعي العالم الديني المتبحّر مع التراث الإسلامي ونهل من معينه الثرّ علماً نقياً من غير اختلاطات وأوهام“. (ص86) وفي ضوء ذلك يضمن وحدتهم وصفاء نفوسهم وغرس روح المودّة والرحمة ليكونوا أشدّاء على أعدائهم. أما المقالة الخامسة فهي عن (ياسين الهاشمي) وقد أعلن الشيخ الماشطة عن جرأته وحسّه النقدي في تناول سيرة أحد رجال السياسة عبر.. ”كشف للنوايا من خلال محاكمة الأقوال بدليل الأفعال, حاول فيها أن يعكس المديات المؤثرة للنفاق السياسي حيث يتخفى تحت مضلّة مصلحة الشعب“.)ص86)

أمّا المقالة الأخيرة فقد جاءت منسجمة مع مسار مجلّة العدل ”ردّ فيها على بعض الأفكار التي وردت في كتاب رشيد عالي الـگيلاني, المعنون (النظريات العامة في الحقوق الجزائية) وهو أحد الكتب المنهجية التي تُدرّس في كلية الحقوق ببغداد“. (ص89)

وللشيخ الماشطة قبل أكثر من سنة من إصدار مجلته (العدل) ”خمس مقالات بعنوان مبادئ الصوفيّة وحكمة الإشراق, نشرها متسلسلة في أعداد

مجلة (الحكمة) التي أصدرها الشيخ رؤوف جبوري في الحلة: فكشف بذلك عن ثراء معرفي وعمق فكري, مكتنز من سنين قضاها في البحث والتقصي عن ينابيع معرفية نقلت الفكر إلى حالة من الانفتاح العقلي". (ص92,91) ولأهمية مضامين تلك المقالات, لا بدّ من الإشارة إلى موضوعاتها دون التوغل في أبعادها, تلك التي نُشرت في أعداد مجلة الحكمة وهي على التوالي الاعداد (6,5,4,3,1).

"تصدّى في العدد الأول إلى تبيان مقاصد الصوفية, وما هو منسوب إليها ببواعث التشويه, كاشفاً حقيقة بعض التباسات متواترة اختلطت معها من مذاهب البابليين والفرس واليونان والهند". (ص92)

وردّ في العدد الثالث "على مقال منشور في مجلة (الرسالة المصريّة) للدكتور إبراهيم بيّومي مدكور.. فتصدّى إلى كشف الفوارق الأساسية بين الفلسفات القديمة, مبيناً صلة الصوفية بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة التي مزجت بين فكر اليونان وفلسفات وديانات قديمة سعى إلى تهذيبها علماء الاسكندرية وأتباعهم من فلاسفة العراق وسوريا". (ص93)

أما مقالة العدد الرابع فكانت "بحثاً خاصاً عن جذور الصوفية, وتأصيل ارتباطاتها مع الفلسفة اليونانية القديمة بصفتها مغايرة لفلسفة المشّائين أتباع المعلم الأول أرسطو ومن جنح خلفهم من فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا". (ص94)

وفي مقالته في العدد الخامس تناول "ما رآه خلطاً وقع فيه الدكتور إبراهيم بيّومي مدكور حينما عدَّ أنّ الزهد خاصيّة من خواص الصوفية مقصورة عليهم". (ص98)

ولم يغب عن الشيخ الماشطة أن يسلّط الضوء على الهدف الاسمى للنفس الإنسانية في التقصّي عن (البهجة المعنوية) حيث أشار في مقالته الأخيرة إلى "أنّ علماء المسلمين أجمعوا على وجوب محبة الله غير أنّ الفقهاء وعلماء الكلام وأصحاب الحديث والصفّ الثاني من الصوفيّة يقصدون بها الرغبة في طاعته وعبادته توصّلا إلى ثواب الآخرة أو شكر النعمة الدنيوية وأما فلاسفة الصوفية فمرادهم بالمحبّة.. التوغل في معرفة ذاته وصفاته". (ص100)

أبرز ما أقترن بالشيخ الماشطة, أنّه من أنصار السلام, ذلك الحلم الذي تسعى شعوب العالم إلى تحقيقه لتسود المحبّة والعدالة والإخاء في ربوعها, فتُمهد بذلك أرضاً خصبة للعمل والإبداع في أمن وأمان, وقد عُقد أكثر من مؤتمر في أكثر من دولة أبرزها "في آب 1948 في بولونيا ثم في وارشو في اكتوبر 1950 وفي هذا المؤتمر تم تشكيل مجلس السلم العالمي واختير الجواهري ليكون أول عضو في المجلس الذي رأسه العالم الفيزيائي الفرنسي فردريك جوليو كوري وضمّ بين أعضائه شخصيات

عالمية شهيرة منهم بابلو بيكاسو وناظم حكمت". (ص107و108)

مؤتمر للسلام فيه تلك النخبة من الشخصيات المعروفة بما لها من تميّز في ميدان اختصاصها فضلاً عن مكانتها الاجتماعية لابدّ أن تترد أصداؤه لا سيّما بعد الدعوة لمناصرة "نداء ستوكهولم في 19 آذار 1950 حول تحريم القنبلة الذريّة". (ص109) "وجاءت استجابة الشيخ الماشطة سريعة لذلك النداء.. وجد فيه انعكاساً لأفكاره وتطابقاً مع مفاهيمه وإنسانيته في نبذ الحروب, وخفض التسلح ونتيجة لازدياد المدّ الجماهيري المعاضد لقضية السلم والمقترن بتعاظم دور الحركة على الساحة السياسية حظرت وزارة الداخلية أنشطتها.. وتعرض أنصار السلم لملاحقة الأجهزة الأمنية, وغادر الجواهري للإقامة في مصر احتجاجاً على اضطهاد الحكومة له ولنشاطه الفكري والصحفي". (ص111)

تلك الأحداث وما لها من صدى محلي وإقليمي قابلتها الحكومة آنذاك بعقوبات وصلت حدّ اسقاط الجنسية العراقية كما حصل مع الشاعر كاظم السماوي, و"أُبعِد عزيز شريف عن العراق (وكان معه الاستاذ كامل قزانجي) بعد اسقاط الجنسية عنه لجأ إلى سوريا, وجرى اختياره عضواً في مجلس السلم العالمي.. عاد إلى العراق حال قيام ثورة 14 تموز 1958 وأصبح هو الوجه الرسمي للحركة". (ص126)

يتعذّر حصر أنشطة الشيخ عبد الكريم الماشطة, فهو إلى جانب كونه من الفاعلين في مسيرة النضال الوطني, له مواقفه المشرّفة من قضايا وطنه التي سعى إليها مع القوى الوطنية, فقد شرع وببصيرة نافذة إلى إعداد مشروعه الخاص فغدا "واحداً من روّاد التنوير وشيوخ النهضة الفكرية في العراق.. نضج مشروعه مع توالي الأيام والسنين والأحداث متبلوراً إلى رسالة تنويرية, متوافقة بدرجات متفاوتة مع قيم وأيديولوجيات أخرى". (ص151)

ولأن الشيخ الماشطة بحكم جدّيته في التعامل مع الأخرين ممن يرى فيهم توافقاً في الأهداف والرؤى "نجده قد توحّد بالاشتراك مع نضالات الوطنيين العراقيين, واقترب فكرياً لا انتماءً مع الحزب الشيوعي العراقي وبعض القوى اليسارية التي وجدها صادقه تشاركت معه في التطلعات والآمال والطموحات, وتبنت تحقيق حلمه بعراق مستقل أكثر حريّة وعدلاً... وكان من الطبيعي أن يُنبز بالشيوعية مثلما كان من الطبيعي أن يصف الحكام الرجعيون أنصار السلم يومها بالحركة الشيوعية". (ص152)

يبقى منجز الشيخ الماشطة عصيً على الإحاطة لتنوعه وثرائه, ولجرأته في اقتحام أكثر من ميدان مادام فيه تجسيد لرؤاه في ما يُعلي من شأن السلم والعدالة والحرية وكل ما هو إنساني في الحياة, حيث "شدّد الشيخ الماشطة على الحريات المدنية والديمقراطية وحقوق

المواطنة والعدل والمساواة.. باعتبار أن ذلك كلّه من أساسيّات التحريض على النهوض بالمجتمع لكي يُساير المجتمعات الغربية المتقدّمة". (ص179)

ولإدراكه ما للعقل من دور في تحليل الواقع واجتراح الحلول لما فيه من مشكلات عبر بصيرة نافذة, "نادى بإعلاء شأن العقل وتقديمه على النصّ, فهي بداهة تنتهي إلى العلمانية -كما- أهتم بتدريس الفلسفة, وذلك لأنها مُحرّضة على انفتاح العقل والتفكير النقدي ومحفّزة على الإبداع والابتكار". (ص180)

ومثل ذلك لن يحصل دون تمكّن من دراسة الواقع والكشف عن مواطن الحيف, والسعي إلى إعلاء شأن العقل وهذا يدعو إلى "الاستيعاب الشامل لمجمل إنجازات العقل الحديث ومعطيات التجربة الإنسانية ومكتسباتها التي تحققت في إطار الحضارة العالمية على المستوى العلمي والفكري.. والإفادة من التجارب المحلية من خلال استلهام ما في الذات من ومضات مشعّة على الفكر الإنساني لإغناء الحاضر". (ص183) بما يزيد من اتساع المساحات المضيئة, وتوظيفها عتبة أمينة باتجاه رؤى مستقبل أكثر إشراقاً.

وعلى الرغم من أنّ الشيخ الماشطة لم يصرّح بعلمانيته غير أن ملامحها واضحة في أطروحاته "من حيث أنها أساس يُبتنى عليه وليس سقفاً يُحتمى به ذلك ما يحقق دلالتها بكونها طريقة أو آلية أو رؤية لمعالجة شؤون الحياة من خلال تمكين العقل دون مفترضات مسبقة". (ص185)

بهذه المسيرة الغنية بعذوبة ثمارها وجمر متاعبها وتحدياتها يبقى الشيخ عبد الكريم الماشطة وساماً على صدر العراق الذي احتضنه حيّاً وخالداً.

هذا بعض ما استوقفني في ما أنجزه المؤرّخ أحمد الناجي لذاكرة التأريخ بين دفتي كتابه عن الشيخ الجليل عبد الكريم الماشطة, إذ لم أُرِدْ أن أحرم القارئ من متابعة ما لم أتناوله، فهو كتاب جدير بالتأمّل متعة ودراسة.

كما أُكبِر بالمؤرخ أحمد الناجي جهده المخلص الذي لا تفيه الكلمات حقه، فالأمانة واحدة من مفرداته في قاموس الحياة التي اعتمدها فرصة للوفاء بما عليه لأولئك الذين أفنوا حياتهم في تجسيدها فكراً وعملاً وسعياً مخلصاً من أجل الاخرين، وفقه الله لما فيه خير الكلمة الطيّبة.

*** صمم الغلاف الفنان هادي أبو الماس**


نصوص
قديمة

الانتفاضة الفلاحية المسلحة في سوق الشيوخ عام 1935 *

صاحب حمادي

لقد أصبح المناخ ملائماً جداً لإعلان انتفاضة سوق الشيوخ بفعل عدد من المؤثرات والعوامل المادية والفكرية، من بينها اعلان ما يسمى بميثاق الشعب، وهو وثيقة سياسية سبق وان وقعها وقدمها للملك غازي في 23 آذار 1935، عدد من رجال السياسة والدين المعارضين، ووزعت على نطاق واسع في المدن والارياف الجنوبية والوسطى. وقد تضمنت بعض المطالب الاصلاحية الجزئية.

وقد بدأت العشائر (بالهوسات) ورفع الاعلام التقليدية في كل مكان، ونفض الغبار عن السلاح، وارتفعت أسعار العتاد والبارود، وأشعلت النيران في واجهات المضايف، وعقدت (العمرات) (أي المؤتمرات العشائرية) وتقلص النفوذ الحكومي الى الصفر.. ومما ساعد على نشوء هذا الوضع هو قيام شيوخ العشائر بإسقاط حق (السركلة) (+) والتنازل عنها طوعاً لصالح الفلاحين، بعد أن شعروا بتذمرهم الذي بدأ يتطور ويتسع، في وقت كان فيه أولئك الشيوخ بحاجة الى توحيد صفوف الفلاحين الى جانبهم.. سيما بعد اشتعال نار الأحداث في الرميثة.. لذلك قاموا بهذه الحركة اللبقة التي كانت ثمناً لانقياد الفلاحين لهم، وشرطاً أساسياً للحصول على تأييدهم، وتنفيذ أوامرهم. وهكذا أصبحت سلطة الشيوخ (بهذا الائتلاف) مصدر قلق شديد للحكومة مضافاً الى سوء ادارة الموظفين في القضاء.

وفرض هذا الوضع، مهمة تصفية الخلافات بين العشائر، التي لجأت الى حمل السلاح ضد بعضها البعض، وضرورة تأجيل البت فيها، الى ما بعد انتصار الانتفاضة، وتحقيق بنود الميثاق. لذلك عقدوا (العمرات) خاصة بعد ان هاجمت عشيرة (الجواريين) عشيرة (آل دبين) لاسترجاع أراضي يدعي الجواريون بعائديتها لهم تأريخياً.. وهكذا تمكنوا من الحيلولة دون اثارة ما يضعف الحركة، ويوجه النار الى قواتهم، وقد انتظم حادث الزورق (خلوق) في سلسلة الأحداث. فبينما كان الزورق يقل عدداً من أفراد الشرطة في

طريقهم من ناحية كرمة بني سعيد الى سوق الشيوخ، أوقفهم عدد من أفراد العشائر المسلحين، وانتزعوا بنادقهم وعتادهم، وتركوهم يذهبون في الزورق الى المدينة مجردين من سلاحهم. وعلى أثر ذلك تحرك المعاون (حميد الهنداوي) الذي كان يتعاطف مع الحركة ويؤيد الميثاق، وذهب الى مضيف أحد الشيوخ الذي أعاد اليه السلاح إكراماً له. ثم أحيل المعاون على التقاعد فيما بعد كعقاب له على موقفه هذا.

وخلال أيام التحضير للانتفاضة وفقدان السلطة لنفوذها خشي الأهالي على بلدتهم. فطلبوا الى القائممقام (وفيق حبيب) أن يسمح لهم بحمل السلاح لحراسة المدينة، ولذلك نظموا فرقاً للحراسة ـ سنتكلم عنها فيما بعد ـ انضم الى تشكيلاتها شاب من كل دار. وهكذا كانت تلك الفرق تجوب الشوارع مسلحة بالبنادق لإداء مهماتها. فبدت المدينة قلعة مسلحة ذات شأن في مجرى الأحداث، وقوة قادرة على الدفاع عن شرف المدينة وتقاليدها العريقة.. ونصبت المجالس في الساحات العامة، وصار السلاح والمعارك القديمة ضد الاتراك والانكليز وجهاد الشعيبة، حديث الدواوين، فامتزجت رائحة القهوة برائحة الانتفاضة.

بدأت قوات الانتفاضة باستخدام اسلوب قتالي سمي محلياً (الدكاكة) وهي لفظة تعني المناوشات باللغة العسكرية، ويقصد بها ارباك الخصم والتأثير على معنوياته.. ففي الأول من مايس عام - 1935 وفي ساعة متأخرة من الليل أطلقت بعض العيارات النارية ضد قوات الحكومة التي كانت قد دخلت مواقعها على شكل ربايا ومتاريس تحيط بالمدينة من كل جانب، وكان عدد أفراد الشرطة يزيد على (500) شرطي مع رشاشاتهم وبنادقهم وسياراتهم المسلحة. وعندما سمع الشرطة تلك الطلقات من (الدكاكة) افرغوا كل ما بحوزتهم من العتاد دون جدوى، مسلطين نيرانهم على غابات النخيل الكثيفة، التي تكون موقعاً حصيناً مناسباً للمقاتلين. وبتلك العملية وحدها اطلق الشرطة ما يقدر بعشرين ألف اطلاقة بتأثير الرعب الذي أصابهم بينما لم يطلق (الدكاكة) أكثر من بضعة امشاط من العتاد.. ثم أعيدت العملية مرتين وثلاثاً قبل التاسع من مايس.

لم يكن للانتفاضة توقيت مقرر ولا ساعة صفر محددة كما هو معروف في الانتفاضات والثورات المصممة والمخططة، التي تقودها أحزاب سياسية منظمة، بل تركت الاحداث المتوالية، وتراكم العوامل والأسباب تفعل فعلها في الهشيم اليابس، وتوقد النار في السهل المنبسط على ضفاف الفرات.. فبالرغم من اتفاق العشائر وتحالفها على عدم اثارة المشاكل القديمة، فقد هاجم الشيخ دخيل البشارة، بيادر الشيخ دخيل آل شهيب – كلاهما من عشائر بني خيكان – ليلاً واستولى

على البيادر، ونقلها الى مضيفه، فلجأ الثاني الى الحكومة عارضاً شكواه عليها مخالفاً قرار المقاطعة. فاستغل القائممقام هذه الحادثة، وتمكن بدهائه من احضار الشيخ المتجاوز لاجراء المصالحة بين الاثنين، لكنه فوجئ بقرار اداري فوري، حكم بموجبه ثلاثة اعوام، وارسل حالا بسيارة مسلحة الى سجن الناصرية، فحاولت عشيرته التصدي الى السيارة التي أفلتت منها. وفي داخل السجن وجرياً (على العادة) في مثل تلك الظروف الملتهبة، استقبله السجانون بعصيهم الغليظة ومارسوا ضده ألواناً من التعذيب البشع، حتى فارق الحياة، تحت الهراوات القاسية، فاضطرت السلطة الى اعادة الجثة الى العشيرة في صباح اليوم التاسع من مايس 1935، فسرت اشاعة مفادها، ان الحكومة قد دست له السم فمات مسموماً، وحسب البقع الزرقاء التي تركها الضرب الشديد، بقعاً خلفها السم.. فحملت تلك الجريمة الناس على ترك الجنازة والتوجه الى مهاجمة مركز (ناحية العكيكة) حوالي الساعة الثانية عشرة من ظهر ذلك اليوم.. وانتشر خبر الانتفاضة.. وتحركت الجموع من الجبايش حتى سوق الشيوخ، مكتسحة في طريقها كافة المراكز ومستولية على السلاح. وما ان حل الظلام، إلا والمدينة مطوقة من كل جوانبها، والقتال على أشده.. هكذا بدأت الانتفاضة في التاسع من مايس لتنتهي في الخامس عشر منه، بعد ان استولت جموع المقاتلين على البلدة، وعلى دوائر الحكومة، وما فيها من أسلحة وسيارات مسلحة، وما في الخزينة من نقود. ولم يبق شيء من الأثاث أو السجلات إلا وتم الاستيلاء عليه أيضاً، أو تلف تماماً.

كيف سارت المعارك ؟

قوات الحكومة تقدر بـ 500 شرطي مع ضباطهم، ويقودها معاون كفوء يدعى (أديب بك).. أما قوات العشائر فيزيد عددها على 20 ألف مقاتل من الرجال الأشداء الذين تمرسوا بالقتال، وأذهانهم تحمل تقاليد ثورية لا يحيدون عنها.. قوات الحكومة تعاني النواقص الأساسية في الحرب، وذلك بسبب عجز السلطة عن تزويدها بالطعام والعتاد رغم محاولاتها المتكررة، ففي اليوم الثالث من المعارك ألقت الطائرات صناديق العتاد التي وقعت خطأً بأيدي العشائر.. أما الطعام فلم يكن له وجود في ربايا القوات الحكومية، لذلك فإنها قد عانت الجوع منذ اليوم الأول من المعارك، لاعتمادها فقط على المطاعم البسيطة في البلدة، والتي هجرها أصحابها وأغلقوها تماماً.. لقد كانت حقاً معارك قاسية، تجرع مرارتها أفراد الشرطة، أبناء الفلاحين والكادحين قبل غيرهم، وتحملوا أهوالها عطشاً وجوعاً وقلقاً ودماء، حينما نجح المستعمرون وخدمهم في استخدامهم جيشاً مسلحاً ضد شعبهم.

ذكرنا قبل قليل ان قوات العشائر يزيد عددها على 20 ألف مقاتل وتستند الى قاعدة تموين ثابتة وقوى احتياطية تزيد على مائة ألف، تتكون من سكان ريف المنطقة. وهكذا صارت المدينة في قلب المعركة، تضيء نار القتال دياجيها الحالكة، وكأنها هدف نهائي لكلا الطرفين المتصارعين؛ طرف يريد دخولها ظافراً وآخر يصر على الدفاع عنها، وعن هيبة الحكومة المتمثلة فيها. واستمر القتال حامياً خلال التاسع والعاشر والحادي عشر من مايس، فوجهت النداءات الى قوات الحكومة بضرورة الاستسلام، مقرونة بضمانات الحفاظ على حياتهم. ولكنها لم تستجب فكان رد الفعل هوسة "اشهد يلله اعليه حل موته" واستمراراً "شديداً" في القتال.

ورغبة في حقن الدماء، توجه الشيخ عبد الحسين آل شحتور، الى دار قائممقام (وفيق حبيب) للدخول معه في مفاوضات تبدأ بتسليم المدينة دون قتال أولا، ومن ثم تتناول تلك المفاوضات ضمان حماية أرواح الموظفين والشرطة وعوائلهم، وتسفيرهم بأمان الى الناصرية، مقابل تسليم كافة الأسلحة والدوائر الحكومية، وما فيها بموجب قوائم يوقع عليها رؤساء العشائر ويتعهدون بإعادتها عندما يتم الاتفاق مع الحكومة. وتعود لحكم المدينة من جديد، فوافق القائممقام على تلك الشروط – كان باستطاعته الاتصال بجهاز اللاسلكي الموجود لديه في تلك الساعات في مركز اللواء، وعرض نقاط الاتفاق على مسؤوليه – لذلك طلب إليه الشيخ المفاوض أن يفسح أمامه المجال برفع علم أبيض يخترق به الحصار ليذهب بنفسه الى العشائر المرابطة خلف البساتين لمفاوضتهم، وعرض ما توصل إليه مع القائممقام أمامهم. وفيما كان يهم بالتحرك مع بعض رجاله الى العشائر ظهرت في الجو، ولأول مرة ثلاث طائرات ألقت صناديق العتاد على الثوار خطأ ـ كما ذكرنا آنفاً ـ وألقت قنابلها على البيوت والقرى الخالية إلا من الأطفال والعجزة. لأنها كانت تتجنب الاقتراب من المنطقة التي يشغلها المقاتلون، بسبب كثافة النخيل، وخوفاً من نيران اسلحتهم. وكان ظهورها عاملا مباشرا لفشل المفاوضات مع القائممقام، وسبباً في اصرار المقاتلين على دخول المدينة مساء ذلك اليوم. فمهد قادة الحركة لهذه الغاية بمؤتمر فوق العادة عقد في الهواء الطلق قبيل التوجه لاحتلال المدينة.

فكانت عشيرة احجام هي بطلة الهجوم على المدينة. وكان (حيال الكاصد) الذي قاد كوكبة من افرادها، فتاها المغوار الذي انهارت أمامه أولى ربايا الحكومة التي تقع على شاطئ الفرات، وفي زاوية بستان الحار بالقرب من موقع المستشفى الجمهوري الحالي، وهكذا سهل الزحف الى بستان الحاج أحمد اليوسف، وطهرت من كل مقاومة حكومية. وسلك بعدها المقاتلون

الطريق المارة بالجامع الكبير، فبيت الدبوس، وبيت الحاج كامل الحاج بخيت، ثم بيت آل حمدي، والربايا تتساقط الواحدة بعد الاخرى. وعلى حجرة (ربح) المبنية من الطين وقف حيال أمام ربية خلف دار آل حمدي، يطلب الى من فيها الاستسلام، ووعدهم بالحفاظ على أرواحهم، وما ان سار الشرطة وعريفهم (الزيرجاوي) نحو حيال لتسليم أسلحتهم، حتى انطلقت إطلاقة طائشة جعلت الشرطة يتصورون تلك العملية بأنها خدعة، فصوب العريف رشاشته الى بطل المعركة (حيال آل كاصد) وأرداه قتيلا، فكان لمقتله صدى حزن عميق وألم وأسف شديدان، وأحدث نبأ مصرعه دوياً هائلاً ليس في المنطقة وحدها، بل وتعداها الى الفرات والغراف، ومناطق اخرى من العراق. وسمي باسمه عدد كبير من أبناء الريف. وردد المقاتلون بفخر واعتزاز هذه الهوسة كما تناقلها الناس "جف غازي أم حيال تريده".

أخذ أهالي المدينة يفتحون دواوينهم والمساجد لاستقبال قوات العشائر، ويلجأ الشرطة الى دار الشيخ جعفر آل شيخ حيدر، كما يلجأ الموظفون الى دار الشيخ محمد حسن حيدر، فيكون الجميع في أمان، وفي ضيافة المدينة الكريمة، التي يمثلها هذان الرجلان الكريمان. أما الشرطة المعتصمون بالسراي، والذين التحق بهم بعض أفراد الربايا المنهارة، فقد أصروا على المقاومة لمدة يومين آخرين في ظروف غاية في القسوة.. لقد تسلق المقاتلون المآذن وسلطوا من عليها الرصاص الى السراي الذي كان في خان الهنداوي مقابل البلدية، في تلك الساعات العصيبة استطاع المعاون (أديب بك) ارسال المفوض عبد الرزاق العبيدي الى دار الشيخ محمد حسن حيدر، لمفاوضة قادة الانتفاضة هناك، لتسليم السراي مقابل اعطائهم الأمان والمحافظة على حياتهم. وفيما هو مستمر في المفاوضة قام بعض المقاتلين بعملية جريئة شقوا فيها نفقاً من السوق حتى السراي الذي دخلوه ظافرين فاستولوا على كل ما فيه من أسلحة وذخائر وأسروا من فيه قبل أن تنتهي المفاوضات التي يجريها المفوض. وعلى أثر احتلال السراي تنكر المعاون ببراعة ورافق أحد افراد الشرطة من عشيرة آل حميدي، واحتمى بتلك العشيرة التي يسكن بعض وجهائها داخل المدينة فصار (دخيلها) وهكذا سلم ولم يصب بأي أذى.

بطولات في الانتفاضة ..

1- في انتفاضتنا بسوق الشيوخ جنود مجهولون لم يتحدث عنهم الناس. كما يتحدثون عن قادة الحركة ورؤساء العشائر، ومن هؤلاء الجنود السيد (عذافة) الفلاح الخاقاني الذي أسهم بشجاعة نادرة في معركة ناحية العكيكة يوم التاسع من مايس، وحينما اشتد القتال وتعذر احتلال سراي

الناحية طرح السيد عذافة مع حلول الظلام فكرة احتلال السراي بطريقة لا يصدقها العقل. لقد اتفق مع اخوانه ان يتسلل الى باب السراي ليشعل النار في السعف الذي أحاط نفسه به، حتى يتمكنوا هم من تسلق جدران السراي الخلفية، في لحظات توجه قوات الشرطة الى مصدر النار المشتعلة وتصويب رشاشاتهم اليها.. وهكذا مزق رصاصهم صدر سيد عذافة في حين تمكن اخوانه الأبطال من احتلال القلعة من الخلف بأسرع من لمح البصر، وأسروا من فيها. انها بطولة فريدة تذكرنا بذلك الفلاح من السماوة المدعو عباس الذي سد بجسمه باب (المفتول) المتهدم الذي كان رفاقه، متحصنين فيه لمقاتلة الإنكليز عام 1920 حتى ردوهم على أعقابهم، وقد نخرت جسمه ثلاث عشرة رصاصة، ولكنه لم يمت، وقد عاش على عكاز، وعرف في ما بعد باسم (عباس الباب) اعتزازاً بمأثرته الرائعة.. لقد كانت مثل هذه البطولات قد استأثرت باهتمامات المؤرخين والفنانين على حد سواء. فأوحت بعطائها الثر للفنان يوسف العاني بوضع كتاب عنوانه (شعبنا) سجل فيه نماذج ناطقة عن تلك البطولات العراقية ـ كان يذاع من راديو بغداد بعد ثورة تموز 1958 ـ ورسمت على غلافه صورة رمزية للسيد عذافة، وتحتها الهوسة جسدت ايمانه بالتضحية: (كل حي بالدنية اعليه موتة).

2- أما دور الشباب في الانتفاضة فإنه لم يكن منحصراً في الاطار الفكري وحده، بل تعداه الى مشاركات فعلية في العمليات القتالية. فكانت نداءاتهم: (زيود.. زيود .. زيود..) المنطلقة مع اهازيجهم وهوساتهم تغطي جو المعركة، وتثير نخوة المقاتلين، وتبعث فيهم البسالة والاقدام، بحيث أسهمت بشكل مباشر في احتلال الربية الأولى الواقعة على ضفة الفرات، التي سقطت تحت ضغط قوات الشباب بقيادة (حيال الكاصد).

3- ومثلما حدثنا التاريخ عن دور المرأة في معارك كثيرة عبر الزمن، فانه يحدثنا كذلك عن دورها في تلك الانتفاضة، وعن مدى تأثيرها فيها.. فبالاضافة الى كونها (عمارية) ـ حسب التسمية المحلية ـ يقتصر عملها على الجانب المعنوي: اثارة النخوة والحماس في نفوس المقاتلين، فانها قامت بحكم وجودها في ساحة المعركة بتقديم العتاد والطعام، ومداواة الجرحى. ويروى ان امرأة من حجام صادفت بعض الرجال المتراجعين من المعركة الى قراهم، فنزعت خمارها (الشيلة) وألقت به عليهم، قائلة ما معناه: انكم غير جديرين بحمل هذا السلاح، الذي لم تستخدموه في المعركة، فخذوا هذا الخمار بدله. وهكذا وضعتهم في موقف حرج دفعهم الى العودة للمعركة بعزائم جديدة وحماس جديد.

أيام بلا حكومة

لقد عاشت المدينة أياماً بلا حكومة، ولم يستطع أهلها ادارة شؤونها، فكنا نرى الحياة شبه معطلة، والاسواق مغلقة، والاوساخ تملأ الشوارع والظلام يلف المدينة. وكان الحكم الحاسم للسلاح وحده.. وتدل هذه الحالة على عدم قدرة الانتفاضة على ادارة المنطقة التي شملتها على غرار ما فعله ثوار العشرين ـ على الأقل ـ حين أقاموا ادارات محلية في المدن التي حرروها من قبضة الإنكليز في النجف وكربلاء والحلة وغيرها.. والسبب في ذلك يعود الى عدم وضوح الرؤية الثورية، وغياب القيادة المجربة التي تأخذ على عاتقها مهمة تثقيف الجماهير الشعبية بأهداف الانتفاضة، ولفها حولها لاستيعاب قدراتها وكسب الحلفاء لها من أجل ترسيخ انتصاراتها وتطويرها.

ان الفرق التي شكلت لحراسة المدينة وتسلم الاسلحة الفلاحين الذين يدخلون المدينة، واعادتها إليهم عند خروجهم منها ـ المسماة بفرق الحراسة كما جاء ذكره آنفاً ـ كانت تلقى العون والدعم والاستجابة من الجميع، لكنها لم توفر البديل لأبسط أداة مسلحة تقف وراء السلطة الشعبية، ويأتي هذا النقص ليعبر عن طبيعة العناصر المؤلفة للانتفاضة ولظروف قيامها.

امتدادات الانتفاضة ونهاياتها

1- تحركت العشائر المحيطة بالناصرية عندما بلغها نبأ الانتفاضة فقام آل غزي والحسينات وآل ازيرج بالهجوم على محطة القطار في (أور) وقلع قضبان السكة الحديد، واستولوا على المحطة وصادروا البضائع وأثاث الدوائر ثم أضرموا النار في المحطة وأحدثوا كسرة بالفرات غمرت مياهها الطرق التي تربط (أور) بالناصرية.

2- أرسلت رئاسة اركان الجيش فوجين الى الناصرية عن طريق الكوت. وكانت الطريق تغمرها المياه بعد وصول القطعات الى مركز اللواء. في حين هبط وزير الدفاع جعفر العسكري، ووزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني في الناصرية لدراسة الموقف.. واستدعيا بعض الرؤساء الموالين للحكومة، مثل الحاج خيون العبيد للاتصال بالرؤساء المشتركين بالانتفاضة. واتصل هذا بـ(كاطع البطي، عجيل آل تويلي، منشد الحبيب) الذين قرروا احتلال الناصرية، وطلب اليهم الاجتماع برؤساء الغراف فاجتمعوا عند الشيخ خضر المحسن أحد رؤساء خفاجة، واتفقوا على وجوب المحافظة على دور الحكومة وعدم هدمها، مع ضرورة تسوية الخلاف مع السلطة بالتي هي أحسن، فعقدوا اجتماعاً آخر عند الشيخ موحان الخير الله، حضره رؤساء الطوقية والشويلات، والقره غول وبني زيد وآل ازيرج والحسينات وخفاجة. وكان التردد والخوف وتأثير الرؤساء الموالين يسود الاجتماع. لذلك لم يتوصلوا الى نتيجة.

3- ثم استدعى وزير الدفاع الرؤساء الثلاثة (كاطع ومنشد وعجيل) فأبوا

الذهاب إليه في بادئ الأمر، ثم اجتمعوا مع موحان الخير الله وخيون العبيد بعد ان اعطاهم (الحظ والبخت) وسألهم عن هدفهم فقالوا: ان لنا ميثاقاً يجب أن ينفذ، فأجابهم الوزير ان الحكومة مستعدة لمفاوضة الشيخ محمد الحسين في الميثاق، واتفق الطرفان على أن يصدر الوزير البيان الآتي وأن يوقف حشد الجيش.

نص البيان :

ناصرية – المنتفك – التاريخ 13 صفر 1354 الموافق 16 مايس

الى حضرات رؤساء عشائر المنتفك بالاشارة الى مقابلتي والشيخ منشد الحبيب الذي دعوناه مع الشيخ موحان الخير الله والشيخ صكبان العلي وبقية رؤساء الغراف والشيخ خيون العبيد في سراي الناصرية أبدي عن لسان الحكومة تبليغكم بلزوم المحافظة على الهدوء والسكينة وعدم الاخلال بالأمن الى ان تجري المفاوضات بين الحكومة والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، عن المطاليب التي ذكرتموها، والتي لم تصل الى الحكومة للآن وتقريرها حسب الاصول . واني بلغت القيادة لايقاف حشد الجيوش في المنتفك وأن ترسل فوراً الى عشائر سوق الشيوخ ليعيدوا أفراد الشرطة ومأموري الحكومة الى الناصرية بأقرب وقت ممكن، ولا أرى بأساً بأن تنتخبوا وفداً ليأتي الى العاصمة لمقابلة الحكومة والمداولة معهم لمعالجة الحالة بصورة مطمئنة للجميع والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وزير الدفاع جعفر العسكري

وزير الدفاع ينجح في مسعاه

لقد تكللت مساعي وزير الدفاع (بالنجاح) حيث استطاع بمساعدة رؤساء عشائر الغراف الموالين للحكومة من جهة، واستسلام رؤساء عشائر الناصرية للوعود التي اقترنت (بالحظ والبخت!!) واقتناعهم ببيان الوزير الذي تجاهل تماماً معالجة قضية سوق الشيوخ من جهة ثانية.. استطاع الوزير بذلك عزل بؤرة الانتفاضة عن قوى احتياطية كان بالامكان زجها في المعركة كما هو متفق عليه سابقاً. وبذلك مهد الطريق لخنقها بشتى الوسائل، وبمختلف خبرات الأعوان المستعدين في كل الأوقات للركوع أمام أطماعهم الذاتية!!

الحكومة تسلك طريق المفاوضات

وبعد أن وصل الأسرى من الموظفين والشرطة الى الناصرية بملابسهم المدنية رافعين الأعلام البيضاء برفقة الشيخ محمد حسن حيدر بدأت الحكومة تبحث عن أفضل الطرق للوصول الى تفاهم مع قادة الانتفاضة والعودة الى سوق الشيوخ عن طريق المفاوضات فأرسلت الشيوخ الموالين لها: خيون العبيد وموحان الخير الله وصكبان العلي وغيرهم ونزلوا في دار الشيخ محمد

حسن حيدر الذي كان محور النشاطات الدبلوماسية، وفي اليوم التالي نزلوا في مضيف الشيخ ريسان الكاصد، أبرز رجال الانتفاضة فتحدثوا بإسم الحكومة وبإسم (صاحب العرش) وأقسموا له بشرف الملك على اصدار عفو عام وعدم اتخاذ أية اجراءات قانونية ضد القائمين بالحركة. ولكن المفاوضات فشلت، وفشلت كذلك محاولات الشيخ محمد حسن حيدر وحسن بدر الرميض.. وفي 25 مايس/ 1935 عرض السيد عبد المهدي وخيون العبيد وموحان الخير الله وصكبان العلي ومحمد الشلال على وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني الموجود في الناصرية استعدادهم لاعادة (هيبة الحكومة) مقابل اعفاء القائمين بالحركة من العقوبات فوافقهم على فكرتهم، وطلب اليهم تنفيذها على أن لا يشمل العفو كلا من ريسان الكاصد، مزهر الكاصد، فرهود الفندي..

قوات الانتفاضة أمام جيش الحكومة ووفد المفاوضة

طريق السيارات بين الناصرية وسوق الشيوخ تغمرها مياه الفرات فتحول دون تحريك القطعات.. قائد القوات المرابطة (بكر صدقي) يرى عدم جدوى التحرك عن طريق النهر، رئيس أركان الجيش (طه الهاشمي) يتفق مع هذا الرأي ويقترح ارجاء العملية الى أن تجف المياه.. إلا ان وزير الداخلية يقدر في التأجيل سقوط الوزارة، تحت وطأة الانتفاضة القابلة للاتساع والشمول. لذلك أصر على ضرورة توجيه القوى العسكرية نهراً مهما كلف الأمر لتقطع (30) كيلو مترا بسفن شراعية بقيادة (بكر صدقي) وعندما بلغ خبر زحف الجيش قادة الانتفاضة تحركت الجحافل الشعبية مملوءة بالعزم والحماس، والتقت بجيش الحكومة وجهاً لوجه في منطقة (الفضيلية).

وفي سحابة من دخان البارود ألقى السيد عبد المهدي بنفسه بين الفريقين وارتمى على قادة الانتفاضة وأخذ يتضرع اليهم، ويتوسل طالباً اليهم الرجوع الى قراهم وعدم سفك الدماء، واعداً اياهم برغبة الحكومة في تنفيذ بنود (ميثاق الشعب) وأقسم للمرة الثانية (بشرف الملك).. فصدق قادة الانتفاضة أقوال رجال الوفد المفاوض ووعودهم، وأوقفوا اطلاق النار واتجه وفد الحكومة فوراً الى دار الشيخ محمد حسن حيدر، لاستكمال بعض الامور وفتح المدينة أمام قوات الحكومة.. وهكذا دخل الجيش المدينة بسلام.

الحكومة تتنكر لوعودها

فعلى أثر دخول الجيش مدينة سوق الشيوخ بالطريقة التي ذكرناها آنفاً، لم يكن أمام الحكومة إلا سلوك طريق البطش والارهاب واعلنت الاحكام العرفية، فسحقت بأقدامها (شرف الملك) الذي أقسمت به بالأمس، وزجت بأبناء المدينة في السجون وفرضت الاقامة

الاجبارية على: ريسان وفرهود ومزهر في مدينة الرمادي لمدة ثلاثة عشر شهراً بعد فترة من الحجر أمضوها في مضيف الشيخ بدر الرميض، رئيس بني مالك. كما فرضت الغرامات نقوداً وسلاحاً فانتزعت آلاف البنادق من الفلاحين وعشرات الالوف من الدنانير. ثم غزت قوة حكومية عشيرة الشيخ ريسان، فأحرقت داره ومضيفه. أما دار الحاج فرهود فلم تستطع الوصول اليها بسبب الاستعدادات للمقاومة التي أبداها الفلاحون.

متصرف اللواء يتخذ تدابير قمعية

وعندما تسنى للحكومة استعادة مدينة سوق الشيوخ، وبعد أن قبل وزير الداخلية (دخالة) أكثر من خمسين رئيساً من رؤساء العشائر عليه، أصدر كتاباً سرياً الى متصرفية المنتفك برقم م.خ 1750 وتاريخه 4 حزيران 1935 أكد فيه ضرورة الاستمرار في النهج القمعي وسحق أي أثر من آثار الانتفاضة. لذلك وجه متصرف اللواء (ماجد مصطفى) كتاباً سرياً الى مديرية شرطة اللواء بتاريخ 6 حزيران 1935 كان بعض ما جاء فيه: ”ان للموظفين الجعفريين وخاصة المدرسين وكبار التلامذة، ووكلاء الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والمبثوثين في الفرات الأوسط والأدنى، والمنشورات السرية، أثراً فعالا في تشويش الرأي العام وبث الدعايات السيئة، يرجى ان تضبط افادة كل من تحوله الشبهة وتأمين ضبط المنشورات، وتسوقوا المجرمين الى ديوان المجلس العرفي العسكري ..“.

رحى الاحكام العرفية تطحن الكادحين

قبل ان نعرض الصور التي عكست تلك الأحكام، والاساليب الانتقامية التي رافقتها، لا بد لنا من اقتباس العبارات الاتية مما قيل في المجلس العرفي العسكري: ”ان الاسباب التي آلت الى امتشاق الحسام في وجه الحكومة كانت كثيرة ومنوعة، لكن السلطة الروحية كانت عاملاً مهماً فيها.. فقد ابتدأت الحركة في الديوانية على أساس حزبي صريح - يقصد التحيز لوزارة دون اخرى - بينما قامت في المنتفك على أساس (السركلة) والأفكار الشيوعية التي قيل ان بعض المتعلمين كان يبثها، ولكن تدخل العلماء في الأمر وأوجدوا شبه صلة بينهما، فإن (ميثاق الشعب) الذي كتب في النجف وأذاعه الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، جمع الناس تحت سلطان روحي قويم..“.

بهذا الفهم للقضية نظر المجلس العرفي العسكري في (109) دعاوى أحيلت إليه من المنتفك والديوانية، كان عدد المتهمين فيها (229) متهماً، أدين منهم (177) بأحكام مختلفة، بينهم (63) بالاعدام، ونفذ في تسعة فقط. ومن بين المحكومين (15) من المعلمين والتلاميذ، وأربعة موظفين وستة جنود.. ولم تكتف السلطة العميلة باصدار تلك

الاحكام وتنفيذها بل (توجت!) أعمال المجلس العرفي العسكري بإقامة عرض عسكري في الديوانية يوم 26 تموز/1935 حضره الملك غازي ووزيرا الدفاع والداخلية والضباط الذين اشتركوا في قمع الحركات.. ومن هذا يبدو للقارئ ان رحى الأحكام العرفية لم تطحن أولئك الاذلاء من رؤساء العشائر الذين صفوا خلافاتهم مع السلطة، فقدموا الولاء والخضوع (لصاحب الجلالة)، وسبحوا بعفوه عنهم، بل طحنت الكادحين وابناءهم.. لكن منطق التاريخ أثبت لنا، ان الاعدامات (والكلبجات) والسجون لا يمكن أن تحمي في يوم من الأيام حكماً يعتمد الارهاب واللصوصية والنفاق السياسي منهجاً له، فيفلت من حساب الشعوب.. لقد كنا نسمع أصوات أولئك الصبية الذين استخدمتهم سلطة العهد المباد في أعمال بناء سراي الحكومة، تتعالى رغم الارهاب الأسود بهوستهم "تبنيه ونهدمه بتركينا"، انها أصداء صوت الانتفاضة، وبذرة المستقبل القريب التي وضعها آباؤهم في أذهانهم، حينما قال أحدهم وهو يشير الى قلعة السراي الرهيبة التي احتلها وأسر من فيها: "من هاي الترهب تليته".

الخلاصة:

ان الانتفاضة الفلاحية المسلحة في سوق الشيوخ هي واحدة من تلك الانتفاضات التي اتسعت على ضفاف الفرات من الديوانية حتى القرنة، وعلى قمم جبال كردستان في الثلاثينات والتي حركتها نفس العوامل والأسباب المادية والسياسية والفكرية لانتفاضتنا، فكانت تشكل جميعها في تاريخنا الحديث ارهاصات اجتماعية وثورية عنيفة، هزت أسس النظام الملكي العميل ودفعته نحو نهايته، بارتباطها بالنضالات السياسية الجماهيرية والعمالية الشاملة الباسلة، التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، فكان لها الدور الكبير في التمهيد لظفر ثورة الرابع عشر من تموز المجيدة عام 1958.

- ملاحظة: لقد اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على معلوماتي الخاصة ومشاهداتي الشخصية من خلال معايشتي لأحداث الانتفاضة. كما استعنت بما احتواه الجزء الرابع من تاريخ الوزارات العراقية للاستاذ عبد الرزاق الحسني عن تلك الانتفاضة. صاحب حمادي.

(+) السركلة: ضريبة اضافية فرضها الانكليز عند احتلالهم سوق الشيوخ عام 1915 يدفعها الفلاح للشيخ بنسبة 1/5 حق التسوية، وتستوفى قبل أية ضريبة حكومية، وذلك لربط مصالح الشيخ بمصالح الانكليز مباشرة.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 76 - تشرين الأول/ 1975.**



حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور صلاح نوري خلف *

أجرى الحوار: سوران قحطان



الدكتور صلاح نوري خلف، حاصل على شهادة الدكتوراه في المحاسبة القانونية من جامعة بغداد، عام 2004. محاضر في المعهد العالي للدراسات المحاسبية والمالية/ جامعة بغداد. كما عمل محاضرا في المعهد العربي للمحاسبين القانونيين. عمل د. صلاح مدة لا تقل عن 40 سنة في ديوان الرقابة المالية. ترأس ديوان الرقابة منذ العام 2016، وحتى احالته على التقاعد في مستهل العام 2020. اصبح رئيسا بالوكالة لهيئة النزاهة العام 2019. كما كلّف برئاسة هيئة الأوراق المالية من العام 2016 حتى العام 2018.

الثقافة الجديدة: لا نريد ان ندخل جدلا لا طائل تحته، عن ماهية الفساد ومديات واسباب انتشاره في العراق، فالفساد بتجلياته المتنوعة صار وباء مستشريا، يستشعر العراقيون بوطأته على كل مفصل من مفاصل حياتهم اليومية. غير ان هذا لا يمنعنا من ان نتساءل بلسان المواطنين، لماذا مع وجود كل تلك الاجهزة الرقابية العاملة سواء منها القديم ام المستحدث: ديوان الرقابة المالية، هيئة النزاهة، مكاتب المفتشين العموميين الملغاة، دوائر التدقيق الداخلي، نجد ان الخطوات الفعلية للتصدي لآفة الفساد ما تزال متواضعة، ولا ترقى بأي شكل كان الى جسامة التحدي الذي يمثله.

وهذا يحيلنا الى اسئلة اعمق واكثر جوهرية: هل ان معرقلات مكافحة الفساد هي صعوبات اجرائية فقط أم هي عوائق سياسية؟ وهل تعدد الجهات الرقابية ضرورة فنية وتقنية ام مجرد حلقات بيروقراطية اضافية؟

د. صلاح: يمكن بيان معرقلات مكافحة الفساد من الوجهين؛ فهناك معرقات اجرائية، كما ان هناك معرقلات سياسية. بالنسبة للمعرقلات الإجرائية فهي كثيرة ومن وأبرزها تماهل المؤسسات الحكومية في تنفيذ البرامج والمهام المتعلقة بتبسيط إجراءات تقديم الخدمة للمواطنين، على سبيل المثال: التهاون في تفعيل تطبيق الحكومة الالكترونية والنافذة الشخصية التي تتيح تقديم الخدمات للمواطنين دون الاحتكاك بالموظفين وتبسيط الإجراءات، لتلافي الابتزاز وتعاطي الرشوة؛ إذ بدأت عملية تبسيط الإجراءات منذ العام 2013 من قبل عمل مشترك بين الأمانة العامة لمجلس الوزراء وديوان الرقابة المالية الإتحادي، ونفذ في حينها على دوائر (المرور، والجوازات، والجنسية) وتوقف برنامج تبسيط الإجراءات. وكذلك التأخر في استحداث برامج الدفع الالكتروني للأجور والرسوم والرواتب. وقد بدأ دفع الرواتب عام 2019 ولم يكتمل بالشكل النهائي الذي يقضي على الموظفين الوهميين. ومن العقبات الاجرائية في مكافحة الفساد عدم تفعيل عمل مجلس الخدمة الإتحادي بالنسبة للتعيينات في الوظائف الحكومية. وكذلك عدم إبرام اتفاقيات دولية ثنائية لتسليم المتهمين واسترداد الأموال المنهوبة.

دون ان نتغافل عن تأخير إنجاز التحقيق في قضايا الفساد من قبل هيئة النزاهة الاتحادية، وذلك بسبب قلة عدد المحققين، والحاجة إلى تطوير مهارات التحقيق إزاء قضايا الفساد الكبرى والمعقدة، وقد سبق أن تمت الاستعانة بالخبراء الدوليين في فترة السيد رئيس الوزراء الأسبق ثم توقف المشروع.

ومن أمثلة حالات الفساد الكبرى التي اكتشفها الديوان واحالها إلى هيئة النزاهة الاتحادية منذ عام 2019، وبقيت ما بين النزاهة والقضاء، ولم تحسم لغاية السنة الحالية هي ملف النازحين، إذ اكتشف الديوان الحالات الآتية في تقرير منحة المليون دينار نقداً للنازحين:

5610 حالة بصمة متشابهة واحدة تأييداً باستلام المنحة بدلاً من النازحين؛

4235 حالة تكرار في صرف منحة المليون دينار؛

36765 حالة بصمة غير واضحة المعالم؛

حالة بمبلغ مقداره (51647) مليون دينار (واحد وخمسون مليارا وستمائة وسبعة وأربعون مليون دينار)؛

فضلاً عن تقاريره عن الفساد المالي بشراء وتوزيع السلة الغذائية والخيم للنازحين.

كما يلاحظ ان هناك توقفا في متابعة ومعرفة نتائج القضايا التي تحال إلى القضاء، إذ أحالت هيئة النزاهة الاتحادية إلى القضاء (2600) قضية إلى الادعاء العام في عام 2019. ومن أبرز ما قام به الديوان في تقريره، هو تأشيره مخالفات إشغال عقارات الدولة في المنطقة الخضراء ومناطق أخرى عام 2019، ولم يتمكن من متابعة الموضوع وما هي القضايا التي حُسمت.

أما بالسبة للمعرقلات السياسية فهي متعددة وكثيرة ايضا. من بينها إن العمل بالعرف السياسي أو ما يسمى المحاصصة الحزبية في توزيع الوزارات والوظائف القيادية فيها، والتي جرى إعطاؤها السند القانوني بموجب القرار التشريعي رقم (44) لسنة 2008، الفقرة (6) منه والتي نصت على (تنفيذ المتفق عليه من مطالب القوائم والكتل السياسية وفق استحقاقها في أجهزة الدولة لمناصب وكلاء الوزارات ورؤساء الهيئات والمؤسسات والدرجات الخاصة، وعلى مجلس النواب الإسراع في المصادقة على الدرجات الخاصة). ونشر هذا القرار في الوقائع العراقية بالعدد (4102) في 2 /12 /2008 بعد مصادقة مجلس رئاسة الجمهورية.

إن هذا العرف السياسي ومن ثم القرار التشريعي المذكور ظهرت تداعياته على جانبين مهمين: الأول، تولي الوظائف القيادية والخاصة وحتى المتوسطة أشخاص لا تتوفر فيهم (الكفاءة، المهنية، الحيادية، تغليب المصلحة العامة) والعمل على وفق القوانين والتعليمات النافذة، ما أدى إلى ارتكاب الأخطاء والمخالفات المالية الجسيمة واستغلال الوظيفة العامة للمصالح الشخصية في أغلب المؤسسات الحكومية. والجانب الثاني هو التعاقدات الحكومية، فنتيجة ما ورد في أعلاه، احيلت التعاقدات الحكومية (عقود التجهيز، إنشاء المشاريع الاستثمارية) إلى شركات غير رصينة وبمبالغ مغالى بها، وإن ديوان الرقابة المالية الإتحادي أصدر مئات التقارير عن تنفيذ المشاريع. وشخَّص العديد من المخالفات المالية، وانتهاك التعليمات، والتلكؤ في إنجاز المشاريع فيما يخص الوزارات الاتحادية والحكومات المحلية في المحافظات، وإبلاغ السادة الوزراء والمحافظين بالمخالفات، ومكاتب المفتشين العموميين بالتحقيق بمئات المخالفات.

وقد لاحظ الديوان تكرار المخالفات المالية في تنفيذ التعاقدات، فقدم تقريرا ملخصا عن نتائج تدقيق التعاقدات للسنوات (2014 - 2017) إلى السيد رئيس الوزراء الأسبق (د.حيدر العبادي) عام 2017، وتم تشكيل لجنة من هيئة المستشارين في مكتب رئيس الوزراء، لدراسة التقرير، وقدمت اللجنة مجموعة توصيات لتلافي جوانب الخلل والمخالفات في التعاقدات مع التركيز على مشاريع الطاقة، وحصلت موافقة السيد رئيس الوزراء على التوصيات، إلا انها لم تنفذ من قبل الوزارات المختصة.

وهناك تداعيات مالية كبيرة تنتج عن إحالة المشاريع الاستثمارية إلى شركات غير رصينة حيث لم تسترد مبالغ السلف عندما تلكأت عمليات انجاز المشاريع، حيث يدفع

للشركات المنفذة عند ابرام العقد سلف بقيمة 20% من مبلغ العقد الكلي. وقد بلغت نسبة السلف غير المطفأة (غير المستردة) الممنوحة للشركات 50% من إجمالي السلف غير المطفأة بكل أنواعها والبالغة بحدود (100) ترليون دينار للسنوات (-2007 2018)، أي بمبلغ بحدود (50) ترليون دينار.

من جهة اخرى، يضاف إلى ما أنفق على المشاريع الاستثمارية لمختلف الوزارات ضمن الموازنة الاستثمارية، صرفت مبالغ من الاقتراض الخارجي، على أغلب المشاريع المتلكئة في الإنجاز، التي تعود إلى (الكهرباء، الري، الموانئ، الطرق والجسور، الماء، الصرف الصحي، الصحة، التربية، الاتصالات، اقليم كوردستان، إعادة اعمار المناطق المحررة) وبمبالغ بالدولار واليورو والين الياباني لغاية 2018، وكما يأتي: 7183 مليون دولار (سبعة مليارات ومائة وثلاثة وثمانون مليون دولار)، 646 مليون يورو (ستمائة وستة وأربعون مليون يورو)، و 309971 مليون ين ياباني (ثلاثمائة وتسعة مليارات وتسعمائة وواحد وسبعون مليون ين).

بالإضافة إلى ما ذكر من سلف غير مطفأة، واقتراض خارجي، صرف فعليا على مشاريع الموازنة الاستثمارية لكل الوزارات والحكومات المحلية للفترة (2007 - 2018) وهي بمعظمها مشاريع متلكئة، مبلغاً مقداره (248241) مليار دينار (مائتان وثمانية وأربعون ترليونا ومائتان وواحد وأربعون مليار دينار)، بموجب سجلات وزارة المالية والمذكورة في تقرير الديوان (نتائج تنفيذ الموازنة العامة لجمهورية العراق للموازنتين الجارية والاستثمارية للسنوات (2004 - 2018) والموزع على كل اللجان النيابية، منذ عام 2019.

من المهم جدا العمل على تطبيق قرار المحكمة الاتحادية (العدد: 89/ اتحادية/ 2019) القاضي بعدم دستورية الفقرة (6) من القرار التشريعي (44) لسنة 2008. ان هذا القرار يؤشر بصورة واضحة على عدم شرعية ترسيخ المحاصصة السياسية (الحزبية) بواسطة القوانين.

اما فيما يخص تعدد الأجهزة الرقابية، فإن إنشاء جهاز رقابي يستند بالأساس إلى الحاجة في معالجة ظواهر الفساد والحد من انتشارها. فكما يعلم الجميع بأن الفساد له صور متعددة، ولا يمكن لجهاز رقابي واحد يقوم بالوقاية والكشف عن الفساد ومحاسبة الفاسدين واسترداد الأموال المنهوبة، لذا اقتضت المصلحة إنشاء عدة أجهزة رقابية، ولكل جهاز دوره في مراقبة وكشف حالات الفساد، شريطة أن تعمل تلك الأجهزة بشكل تكاملي.

الثقافة الجديدة: بالرغم من جميع العقبات القانونية والسياسية، كان ديوان الرقابة المالية وما زال يعتبر اعرق مؤسسات الدولة الرقابية، وأحد الأجهزة الرائدة في الكشف عن حالات الغش والتلاعب ومكافحة الفساد المالي والإداري. وقد ترأستم ديوان الرقابة المالية لمدة ليست بالقصيرة، يضاف لها خبرة 40 سنة من العمل المستمر في ذات الديوان، فهل يا ترى، ما زال الديوان قادرا على النهوض بدوره الرقابي الذي حدده له القانون، في ظل التحديات الكبيرة والمختلفة القائمة؟ وهل ساهمت الاطر الرقابية الجديدة في تطوير النشاط الرقابي للديوان ام عملت على تقييّده ام على الاقل تعقيده؟

على سبيل المثال لا الحصر، كان الديوان قد حذر نهاية العام الماضي من تعرضه إلى اختلال نوعي وكمي في كوادره المتقدمة، ومن مختلف الاختصاصات إثر التعديل الاخير لقانون التقاعد، مشيراً إلى أن الديوان لم يتعرض إلى مثل هذه الحالة منذ تأسس عام 1927.

مؤخرا، اصبح ديوان الرقابة قادرا على احالة الدعاوى مباشرة الى الادعاء العام، وهي فقرة كانت معطلة تقريبا من قانونه. حيث ان اغلب تقارير المراقبين الماليين كانت ترفع الى مكاتب المفتشين العموميين الملغاة او الى النزاهة. وقد درّب الديوان عددا من كوادره على التدقيق القضائي. واصبح الاخير قادرا على ان يتوصل الى الادلة الجنائية، ثم يحيلها الى المدعي العام دون ان تمر بأية جهة.

بالمقابل، لم تفعل لحد اللحظة فقرات المادة 5 من قانون الادعاء العام، رقم 49 لسنة 2017 والمتعلقة بتشكيل دائرة في رئاسة الادعاء العام، تسمى دائرة المدعي العام الإداري والمالي، تشرف على مكاتب للادعاء العام المالي والاداري، تشكل في دوائر الدولة. فكيف يا ترى سيؤثر هذا على عمل المدقق القضائي؟

من جهة اخرى، لماذا مازالت المادة 15 من قانون ديوان الرقابة المالية (31) لسنة 2011 شبه معطلة؟ هذه المادة التي تعطي لرئيس الديوان الحق في ان يطلب من الوزير او من رئيس الجهة الخاضعة للرقابة بإحالة الموظف المسؤول عن المخالفة الى التحقيق او سحب يده، وإقامة الدعوى المدنية حول الاضرار التي تلحق بالدولة جراء المخالفات المالية. واخيرا تضمين الموظف هذه الاضرار.

د. صلاح: يتمتع ديوان الرقابة المالية الاتحادي بخاصية مهمة وهي العمل المؤسسي، وهو ما جعله مؤسسة مهنية وحيادية وموضوعية في عمله، طوال تاريخه، ولم يتأثر بالتغيرات السياسية، إذ أن القيم المؤسسية (الحياد والاستقلال والالتزام بقواعد السلوك المهني، وتطوير القدرات المستمر) هي ثقافة هذه المؤسسة، وانعكست على موظفيه إبتداءً من التعيينات بانتقائية مهنية، والتدريب المستمر، والحصول على الشهادات العليا المتخصصة، والأهم الحفاظ على الاستقلال والحياد من التأثيرات السياسية. وحظيت هذه الاستقلالية والحيادية باحترام السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية.

وبسبب طابع عمله المؤسسي هذا حافظ الديوان على رأس المال الفكري، وبالتالي فهو قادر على أداء دوره الرقابي في ظل التحديات الداخلية والخارجية. لكن مستوى الدور الرقابي للديوان حالياً قد تراجع بعد تنفيذ قانون التقاعد رقم (26) لسنة 2019، الذي أدى بشكل سريع ومفاجئ إفراغه من الملاك المتقدم والخبراء وبالتالي سيتأثر دون شك، وهذا ما بيناه في تقريرنا الموجه إلى السيد رئيس مجلس النواب بالعدد (29983) في 11 /12 /2019.

إن الأطر الرقابية الجديدة التي نفذها الديوان قد أسهمت في تحسين جودة التدقيق. وهذ الاطر هي: التدقيق المستند إلى المخاطر، تقويم أداء البرامج والسياسات، التدقيق التخصصي، التدقيق القضائي. فيما يخص التدقيق المستند إلى المخاطر وتقويم

أداء البرامج والسياسات والتدقيق التخصصي فقد ارتقى العمل به وأصدر مئات التقارير، وخصوصاً تقويم أداء البرامج والسياسات للوزارات الاتحادية، والحكومات المحلية، وكل ما ذكر فإن التقارير منشورة على الموقع الالكتروني للديوان. اما التدقيق القضائي فإن نتائجه متواضعة، بسبب ان اكتساب مهارات التدقيق القضائي يختلف عن التدقيق المالي، وقد استغرقت عمليات التدريب مدة سنتين (2017، 2018) بالتعاون مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة. كما تم الاطلاع على تجربة كوريا الجنوبية وجمهورية مصر العربية. وقد أرسلت العديد من التقارير إلى المدعي العام، طبقاً للمادة (16) من قانون الديوان، والعمل والتطوير في هذا المجال مستمر.

أما التحديات في تطبيق إجراءات التحقيق من قبل الديوان وفقاً للمادة (16) البند (خامساً) التي نصها (إجراء التحقيق الإداري في الأمور التي يطلب مجلس النواب إجراء التحقيق فيها) فهي لم تنفذ لوجود تعارض تشريعي مع قانون انضباط موظفي الدولة والقطاع العام رقم (14) لسنة 1991 (المعدل)، إذ إن التحقيق الإداري يجري في الوزارة أو الجهة غير المرتبطة بوزارة، وصلاحية الوزير المختص بالمصادقة على توصيات لجنة التحقيق الإداري، وبالتالي لا توجد صلاحية لرئيس الديوان بالمصادقة على توصيات لجنة التحقيق الإداري وفقاً للمادة المذكورة أعلاه.

وفيما يخص تفعيل المادة (5) من قانون الادعاء العام رقم (49) لسنة 2017، فقد تم تفعيل المادة المذكورة عام 2019 على وزارتي (الكهرباء والصحة)، إذ جرى تعيين مدعي عام مع فريق عمل من هيئة النزاهة الاتحادية وديوان الرقابة المالية الاتحادي. إن فتح مكاتب الادعاء العام في الوزارات يسهل في توصيل نتائج التدقيق القضائي بالإحالة مباشرةً إلى المدعي العام المختص بالوزارة المعنية، والتنسيق بين الديوان والمدعي العام أفضل وأسرع، ولنجاح هذه التجربة، ينبغي عقد لقاءات دورية بين الديوان والمدعي العام ومكاتب في الوزارات، لتذليل الصعاب، وزيادة الفهم المشترك بين عمل الديوان ومتطلبات عمل المدعي العام.

الثقافة الجديدة: شرّع مجلس النواب العراقي بتاريخ 8 /10 /2019، قانون رقم (24) لسنة 2019، حلَّ بموجبه مكاتب المفتشين العمومين وذلك بإلغاء امر سلطة الاحتلال رقم (57) لسنة 2004. وقد اثار هذا القانون جدلا كبيرا. فمن جهة، يرى مؤيدوه ان مكاتب المفتشين العموميين اصبحت ادوات روتين وعرقلة، دون ان تسطيع القيام بواجبها الرقابي الحقيقي، بل مرتع خصب للخروقات والفساد واهدار المال العام. وان قسماً من هذه المكاتب اصبحت "وزارة" داخل وزارة، وبالتالي تخضع لنفس شروط ونهج المحاصصة. بالمقابل، كان معارضو الغاء مكاتب المفتشين العموميين، يقترحون اصلاحها ودعمها وتوفير متطلبات استقلالها، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق فك جهة ارتباطها بالوزارة، وتحويله الى جهة اخرى.

من جهة أخرى، ان نص القانون اثار جدلا من نوع آخر، فهو قد حدد ان كافة الوثائق والاوليات والملفات في هذه المكاتب، تؤول الى هيئة النزاهة. بينما كانت النسخة القديمة

لمقترح القانون عام 2017، قد حددت ان الموجودات بما فيها السجلات والاضابير والبيانات والقضايا كافة تؤول إلى دائرة المدعى العام الاداري والمالي المنصوص عليها في قانون الادعاء العام رقم (49) لسنة 2017، وذلك بغية تفعيل دور الادعاء العام والسلطة القضائية في ممارسة مهامهم الرقابية. حيث ان قانون الادعاء العام الجديد رقم (49) لسنة 2017، منح جهاز الادعاء العام سلطات واسعة في مكافحة الفساد والتحقيق الإداري واتخاذ كافة الإجراءات التي من شأنها محاربة الفساد، اذا فعل البند 14 من المادة 5 من قانون الادعاء العام.

ما هي وجهة نظركم بمسالة إلغاء مكاتب المفتشين العموميين وكذلك بالجهة التي آلت لها وثائق واضابير وموجودات هذه المكاتب؟ وهل من تعليقات اضافية تساهم في اضاءة هذه القضايا؟

د. صلاح: إن مكاتب المفتشين العموميين جهاز رقابي جديد أنشئ بعد العام 2003. وقد اصطدم عملها بالعديد من العقبات والمشاكل ذات طبيعة تشريعية او إجرائية، وقد اثرت كل هذه الاشكاليات بشكل كبير على أداء المهام المنوطة به. وقد حقق في بعض الوزارات نجاحاً ملموساً وأسهم بالكشف عن ملفات فساد كبيرة، في حين نجد في وزارات أخرى إخفاقا في القيام بواجبه الرقابي والتحقيقي. وقد كانت رؤيتنا أن يتم إصلاح ذلك الجهاز سواء من حيث التشريع وتوفير متطلبات الإستقلالية، لما لتلك المكاتب من أهمية، كونها تعمل داخل الوزارة وانها الأقرب في الكشف عن حالات التبذير والهدر بالمال العام، بما تجريه من تحقيقات إدارية، إلا أن القرار النهائي للسلطة التشريعية المتمثلة بمجلس النواب، والذي شرع الغاء مكاتب المفتشين العموميين وإحالة كافة الوثائق والأوليات إلى هيئة النزاهة الاتحادية. والكمية الهائلة لتلك الوثائق شكلت عبئاً على الهيئة، حيث بادرت الى تشكيل لجان متخصصة لفرز تلك الوثائق وتحديد أولوياتها بعد جردها بالكامل مع مكاتب المفتشين العموميين الملغاة.

إن الغاء مكاتب المفتشين العموميين أحدث فجوة في الجهاز الرقابي، وما زالت الهيئة تعاني من تلك الفجوة، وخصوصاً موضوع التحقيقات الإدارية التي كان يجريها مكتب المفتش العام والتي تعتبر إحدى الركائز الأساسية في عمل الهيئة، وتحاول الهيئة معالجة تلك الثغرة من خلال تشكيل فرق ولجان من المحققين إضافةً إلى مهامهم بموجب القانون لتكون بديلاً عن التحقيقات الإدارية، لكن لا يخلو هذا الإجراء من صعوبة لقلة ملاك الهيئة التحقيقي، مقارنةً بأعداد الموظفين في مكاتب المفتشين العموميين الملغاة.

الثقافة الجديدة: بعمرها القصير تمكنت هيئة النزاهة من أن تكون من اهم اعمدة منع ومكافحة الفساد. حيث اعتبرها المشرّع الجهة المنوط بها التحقيق في قضايا الفساد. وفي سبيل تعزيز امكانيات الهيئة وجهودها للكشف عن حالات الفساد، شرّع القانون رقم (30) لسنة 2019 والذي تضمن تعديلا لقانون الهيئة رقم (30) لسنة 2011 حيث وسّعت دائرة المشمولين بكشف الذمة المالية ومصادر التمويل. لكن الهيئة ما زالت تواجه العديد من التحديات والعقبات في عملها. فرغم جميع

قصص النجاح، لم يكن للهيئة أي دور ملموس في الحد من ظواهر الكسب غير المشروع، وتضخم الاموال، وكذلك من ناحية استعادة الاموال المهربة، وتسلم الهاربين.

كما ان حل مكاتب المفتشين العموميين قد اضاف اعباء جديدة على عاتق الهيئة، حين احال لهم كافة وثائق وملفات هذه المكاتب، تبدو وفق واقعها الحالي، خصوصا لجهة قلة المختصين، غير قادرة على النهوض بذلك.

ترى هل هذه الصعوبات ذات طبيعة اجرائية قانونية، ام هي صعوبات ذات مضامين سياسية؟

هل من افكار اضافية تؤشر على ابرز هذه المسائل؟

د. صلاح: في البدء من المفيد التعرف إلى الهيكل الاداري لهيئة النزاهة الاتحادية، ومن ثم التطرق الى التحديات التي تواجهها. تتكون الهيئة من (9) دوائر عامة، هي: دائرة التحقيقات، الدائرة القانونية، دائرة الوقاية، دائرة التعليم والعلاقات العامة، دائرة العلاقات مع المنظمات غير الحكومية، الدائرة الادارية والمالية، دائرة البحوث والدراسات، دائرة الاسترداد، واخيرا الاكاديمية العراقية لمكافحة الفساد.

هذه الدوائر مرتبطة بالهيئة مباشرة، ويوجد صندوق استرداد أموال العراق بموجب القانون رقم (7) لسنة 2019 المعدل، وللصندوق مجلس ادارة يرأسه رئيس هيئة النزاهة ونائبه مدير عام دائرة الاسترداد وممثلين عن وزارات وجهات غير مرتبطة بوزارة.

فيما يخص مهام مكافحة الفساد والكشف عن الكسب غير المشروع واسترداد الاموال العامة المهربة والمتهمين بها، فان الدوائر العامة المختصة بهذه المهام هي:-

(1) دائرة التحقيقات: تتولى القيام بواجبات التحري والتحقيق في قضايا الفساد، وفقا لأحكام قانون النزاهة رقم (30) لسنة 2019 المعدل، وقانون اصول المحاكمات الجزائية.

(2) دائرة الوقاية: تتولى القيام بالواجبات اللازمة لملاحقة وتقديم تقارير الكشف عن الذمة المالية، ومراقبة سلامة وصحة المعلومات المقدمة فيها، وتدقيق تضخم اموال المكلفين بتقديمها بما لا يتناسب مع مواردهم، واعداد لائحة السلوك.

(3) دائرة الاسترداد: تتولى مسؤولية جمع المعلومات ومتابعة المتهمين المطلوبين للهيئة خارج العراق، واسترداد اموال الفساد المهربة للخارج، بالتعاون والتنسيق مع الجهات المعنية.

(4) صندوق استرداد اموال العراق: يتولى استرداد الاموال العامة المنهوبة والمهربة بعد 2003 والصادر بموجب القانون (7) لسنة 2019.

إن المحور القانوني لهيئة النزاهة العامة قد تحقق لإنجاز مهامها بإصدار قانون رقم (30) لسنة 2019 المعدل، اذ زادت صلاحيات دائرة الوقاية المسؤولية عن مراقبة تضخم الاموال، وجمع المعلومات عن كشف الذمة المالية، وهذا ما لم يكن في القانون رقم (30) لسنة2011، كما زادت صلاحية دائرة الوقاية بشمول أي من الفئات بكشف الذمة المالية ومراقبة تضخم الاموال من غير الفئات المشمولين اصلا بالقانون.

ولكن التحدي هو في الجانب الاجرائي المتمثل بالآتي:

(1) شمول عدد كبير من المكلفين المشمولين بالكشف عن ذممهم المالية، لا يتناسب مع عدد الموظفين المكلفين بالمهمة.

(2) صعوبة التحري عن ممتلكات المشمولين بالكشف عن الذمة المالية وخصوصا ممتلكاتهم خارج العراق.

(3) الحاجة الى عقد اتفاقيات ثنائية مع بعض الدول التي تتيح المعلومات المطلوبة عن حالة المكلف المالية في تلك الدول.

(4) البطء في حصول الهيئة على المعلومات العقارية الخاصة بالمكلف لعدم وجود قاعدة بيانات لدى التسجيل العقاري تؤمن هذه المعلومات عند الطلب.

(5) عدم تحديد معيار لتضخم الاموال بموجب قانون النزاهة رقم (30) لسنة 2011، ما جعل العمل يعتمد على الاجتهاد الشخصي، فالهيئة لها اجتهادها، وقد يكون للقضاء رأي آخر.

إلا ان القانون رقم (30) لسنة 2019 المعدل، قد عالج موضوع معيار قياس تضخم الاموال غير المشروع، اذ عُرِّف الكسب غير المشروع هو كل زيادة بنسبة (20%) سنويا عن اموال المكلف او اموال الزوجة او الاولاد، لا تتناسب مع مواردهم الاعتيادية، ولم يثبت المكلف سببا مشروعا لهذه الزيادة، يعد كسبا غير مشروع للأموال، والذي يثبت ذلك بقرار قضائي.

إن ما ذكر آنفا من تحديات اجرائية حالت دون احراز نتائج مرضية في موضوع الحد من ظواهر الكسب غير المشروع.

أما ما يخص استرداد الاموال العامة المهربة قبل عام 2003 والذي من اختصاص دائرة الاسترداد فإن النتائج ايضا متواضعة للأسباب الاتية:

- ينبغي وجود اتفاقيات ثنائية مع الدول التي توجد فيها الاموال المهربة.

- توافر الادلة الجنائية والقرارات القضائية التي تثبت بأن الاموال هي اموال عامة مهربة، وان المتهمين بموجب قرارات قضائية، ومع ذلك قناعة الدولة المعنية بالقرارات القضائية. اذ ان العديد من الاشخاص قد حصلوا على لجوء سياسي او انساني ولديهم حصانة.

بالنسبة لاسترداد الاموال العامة المهربة بعد عام 2003 وهي من اختصاص صندوق استرداد اموال العراق ايضا فالنتائج متدنية، ولنفس الاسباب. فضلا عن سبب آخر مهم هو قناعة الدولة التي توجد فيها الاموال العامة المهربة والاشخاص المتهمين بان دوافع المطالبة باسترداد المتهمين غير سياسية، وانما جنائية بحتة.

الثقافة الجديدة: لم يتم اشراك ديوان الرقابة المالية بدراسة عقود جولات التراخيص، ولم يطلع على صياغتها، بل اقتصر دوره لاحقا على تدقيق مخرجات تلك العقود، وتفحص جولات التراخيص الخمسة، ورفعَ تقاريره الى رئاسة الوزراء. لكن جولات التراخيص هذه اثارت وما زالت تثير الكثير من التساؤلات، خصوصا لجهة ان العقود صيغت دون امكانية تعديل لتحقق مصالح الشركات. بعضها يخص النفقات المُبالغ بها والتي جرى تحميلها للعراق. والبعض الآخر يتعلق ببنود تعاقدية، تلتزم فيها الشركات بمستويات معينة من الانتاج وزيادته وتفرض على الطرف العراقي تقديم تعويضات للشركات في حال مطالبة الشركات بخفض انتاجها، كما هو الظرف الراهن.

هل يقوم ديوان الرقابة المالية بتدقيق حسابات الشركات النفطية وتطبيق عقود جولات التراخيص؟ وهل يواجه ايه اعاقات في هذا الشأن؟ وما هي ابرز المخالفات والهدر المالي التي شخصها الديوان؟ وهل تكمن الاسباب في نصوص العقود ام في الممارسات وضعف الكفاءة الادارية والفساد؟ ما هي مقترحات الديوان لمعالجة هذه المشاكل؟

د. صلاح: في البدء نود توضيح ماهية عقود جولات التراخيص والحقول النفطية المشمولة. إن جولات التراخيص هي عبارة عن مجموعة عقود خدمية نفطية ضمن جولة واحدة، فعدد جولات التراخيص لغاية عام 2019 بلغ خمس جولات، وعدد العقود (24) عقداً، وبدأ العمل بها منذ عام 2009، ويمكن بيان طبيعة العقود ومددها بحسب الجولات:

- الجولة الأولى: أربعة عقود للخدمة الفنية، تراوحت من (20 - 30) سنة، في حقول الرميلة، الزبير، غرب القرنة/1 في حقول ميسان (البزركان، الفكة، ابو غراب)، تاريخ التعاقد 2009 - 2010.

- الجولة الثانية: سبعة عقود خدمة تطوير وإنتاج تراوحت من (20 - 25) سنة، في حقول مجنون، غرب القرنة/2، الغراف، الحلفاية، بدرة، القيارة، نجمة، تاريخ التعاقد عام 2010.

- الجولة الثالثة: ثلاثة عقود خدمة تطوير وإنتاج الغاز، لمدة 20 سنة، في حقول السيبة، المنصورية، عكاس، تاريخ التعاقد 2011.

- الجولة الرابعة: أربعة عقود خدمة استكشاف وتطوير وإنتاج تراوحت من (30 - 40) سنة للرقع الجغرافية في المحافظات (ديالى، واسط، ذي قار، المثنى، النجف)، تاريخ التعاقد 2012 - 2013.

- الجولة الخامسة: ستة عقود خدمة استكشاف وتطوير وإنتاج تراوحت من (20 - 25) سنة في حقول كلابات، قمر، نشم الأحمر، انجانة، خضر الماء، نفط خانة، الحويزة، السندباد.

إن التفاوض وإبرام عقود جولات التراخيص انفردت بها وزارة النفط/ دائرة العقود والتراخيص. بينما إدارة عمليات العقود، فهي إدارة مشتركة بين الجانب الحكومي المتمثل بإحدى شركات وزارة النفط مع الشريك الأجنبي شركة واحدة أو ائتلاف شركات وتسمى إدارة العمليات المشتركة، مستقلة مالياً وإدارياً.

بالنسبة لتدقيق حسابات الشركات الأجنبية فتدقق من قبل مدقق دولي بالشراكة مع مراقب حسابات عراقي، مجاز من قبل مجلس مهنة مراقبة وتدقيق الحسابات، وهذا منصوص عليه في بنود العقود المبرمة، ولا تخضع حسابات الشركات الأجنبية بشكل منفرد لتدقيق ديوان الرقابة المالية الاتحادي.

ان ديوان الرقابة يدقق مصاريف هيئة التشغيل المشترك، التي تمثل الجانب الحكومي الشركات الاستخراجية العراقية، والجانب الأجنبي الشركة الأجنبية أو ائتلاف الشركات الأجنبية. وقد أصدر عدة تقارير عن مصاريف هيئة التشغيل المشترك لعدد من العقود. وشخّص العديد من الملاحظات الرقابية. ومن أبرز تقارير الديوان تقريره ذي العدد (18662) في 5/ 9/ 2018 عن نتائج تدقيق عقود الخدمة النفطية لجولات التراخيص وموجه إلى مكتب رئيس

الوزراء، تضمن العديد من الملاحظات في الجانب القانوني والفني والمالي، ومقارنة حصة الشريك الحكومي مع حصة الشريك الأجنبي من عوائد إنتاج النفط والغاز، ويمكن بيان أبرز الملاحظات المشخصة من قبل الديوان:

1- لا يوجد قانون خاص في العراق لغاية الوقت الحاضر ينظم استغلال الثروة الهيدروكربونية، خلافاً للمادة (112/ أولاً) من دستور جمهورية العراق لسنة 2005.

2- عدم وجود قانون ينظم عقود الخدمة النفطية لجولات التراخيص أسوة بالعقود الأخرى (عقود الأشغال العامة، عقود تجهيز السلع والخدمات، العقود الاستشارية) التي نظمها قانون العقود الحكومية العامة رقم (87) لسنة 2004، وتعليمات تنفيذ العقود الحكومية رقم (1) لسنة 2008، ورقم (2) لسنة 2014.

3- تمت المصادقة على عقود الخدمة النفطية من قبل مجلس الوزراء، إستناداً إلى المادة (39) من عقود جولات التراخيص، خلافاً للمادة (80) من الدستور، التي حددت صلاحية مجلس الوزراء، ولم تكن صلاحية المصادقة على العقود النفطية من ضمن الصلاحيات. ويرى الديوان أن هذه الصلاحية لمجلس النواب وفقاً لما جاء في المادة (111) من الدستور، التي قضت بأن النفط والغاز ملك الشعب العراقي في الاقاليم والمحافظات.

4- تم إجراء عدة تعديلات على عقود الخدمة النفطية من قبل وزارة النفط بعد استحصال موافقة لجنة الطاقة الوزارية. ويرى الديوان ليس من صلاحية هذه اللجنة الموافقة على التعديلات وانما هي من صلاحية مجلس الوزراء الذي وافق على عقود الخدمة الأساسية.

5- تم تشكيل شركة التشغيل المشترك، وهي شركة أحد أطرافها إحدى شركات وزارة النفط، والطرف الثاني الشركة الأجنبية أو ائتلاف شركات أجنبية، تدير العمليات الفنية والمالية. ويرى الديوان انه لا يوجد سند قانوني يسمح للشركات أو الأشخاص (أجانب أم عراقيين) بتأسيس شركات تعمل في مجال استخراج النفط والغاز.

6- تمديد مدة إنتاج الذروة وتخفيض هدف إنتاج الذروة لبعض العقود، على الرغم من عدم تحقيق الشركات مستويات الإنتاج المحددة سابقاً، التي اعتمدت كأساس للمنافسة وترسية العقود.

7- من الناحية المالية تخفيض حصة الشريك الحكومي لحقول (الحلفاية، الرميلة، الزبير، غرب القرنة/1) يقابلها زيادة حصة الشريك الأجنبي، نتيجة تمديد مدة إنتاج الذروة وتخفيض هدف إنتاج الذروة، إذ إزدادت نسبة الشريك الأجنبي من الربحية من 75% إلى 90% وزيادة أجر الربحية دولار/ برميل من (0.28 – 1.4).

8- دخول وخروج الشركات الأجنبية المتعاقدة، فضلاً عن وجود حالات تنازل عن الحصص بين الشركات المتعاقدة دون وجود نصوص أو ضوابط عقدية تنظم ذلك.

9- انحسار عمل الشركات العالمية مثل (برتش بتروليوم، أكسن موبيل، شل)، في حقلي (الرميلة وغرب القرنة/1)، والشركة الروسية (لوك أويل، باش نفط) في حقل غرب القرنة/2 والرقعة الجغرافية (10)، (12) من الجولة الرابعة، اما بقية التعاقدات فكانت للائتلافات (الصينية، التركية،

الماليزية، الفرنسية، الكويتية، الانغولية، الهيئة المصرية للبترول، الباكستانية، التركمانستانية، الإمارتية).

وقد اصدر ديوان الرقابة المالية (22) تقريرا عن تدقيق مصاريف شركة التشغيل المشترك، شخص فيها العديد من الملاحظات. أبرزها ما يتعلق بتحميل كلف إنتاج النفط بالمصاريف الإدارية وغير المباشرة للشركات الأجنبية، التي ليست لها علاقة بكلف الإنتاج، فضلاً عن أن الشركات الاستخراجية العراقية تبالغ في كلف إنتاج النفط، لغرض الحوافز، إذ تحتسب الحوافز للعاملين بنسبة 20% من كلف إنتاج النفط في شركة استخراج النفط وهي تمثل شريكا حكوميا في شركة التشغيل المشترك.

فيما يخص معوقات عمل الديوان في هذا المجال فهي عديدة، ومن ابرزها:

1- عدم توفير مستندات مصاريف الشريك الأجنبي، التي تؤيد صحة الصرف والخاصة على سبيل المثال رواتب العاملين الأجانب والحوافز، رواتب الخبراء، بدل استئجار سكن الخبراء خارج العراق، مصاريف السفر بالطائرات ومصاريف العلاج، ومصاريف الشركات الأمنية، وكل المصاريف الإدارية، فضلاً عن المصاريف التشغيلية المتعلقة بالإنتاج، إذ تحفظ المستندات خارج العراق في مقر الشركة الأم، وبهذا لا يستطيع الديوان التحقق من صحة هذه المصاريف الضخمة.

2- صعوبة وصول الرقباء الماليين إلى أماكن العمل في الحقول النفطية، وعدم السماح في أحيان أخرى من قبل الشركات الأمنية المتعاقدة معها الشركات الأجنبية، بدلاً من توفير الحماية من الجانب العراقي، مما يصعب التحقق ميدانياً من الموجودات الثابتة والمخزنية وتواجد الخبراء في حقل العمل الذين يتقاضون رواتب عالية، فضلاً عن عدد العاملين الأجانب.

3- قلة عدد الرقباء الماليين لتغطية نشاط كل إدارات التشغيل المشترك لعقود الخدمة النفطية، فضلاً عن المتخصصين في المجال الفني النفطي.

وقد قدم الديوان العديد من المقترحات للتغلب على هذه الاشكاليات ومن اهمها:

• إعادة النظر بعقود الخدمة النفطية وملاحق التعديلات من حيث تقليل المصاريف الإدارية للشركات الأجنبية.

• توفير المستندات التي تثبت مصاريف الشركات الأجنبية والسماح للرقباء الماليين بالزيارات الميدانية في مواقع العمل فيما يخص أعمال التدقيق.

• إعادة طريقة احتساب حصص الشركات الأجنبية والشريك العراقي لضمان مصلحة الجانب العراقي المنصفة، إذ كما تم ذكره آنفاً في بعض العقود حصة الشريك الأجنبي 90% والمتبقي حصة الشريك الحكومي.

• تلافي الجوانب القانونية المذكورة آنفاً.

• تقييم مستوى نقل الخبرة والتكنولوجيا للجانب العراقي من هذه العقود.

• تقييم مستوى إسهام الشركات الأجنبية في الحفاظ على البيئة.

• تقييم مستوى تحسين نوعية النفط (التنقية من الشوائب).

• تقييم مستوى العمل على تلافي الهدر بالغاز المصاحب والغاز الحر، وتحديد أقرب مدة زمنية للاستفادة منه محلياً والاستغناء عن الاستيراد.

الثقافة الجديدة: لا تزال الحسابات الختامية لعدد من السنوات غير مكتملة. ويقوم مجلس النواب بمناقشة الموازنات العامة واقرارها من دون الاطلاع على الحسابات الختامية، خلافا لما ينص عليه الدستور. لماذا هذا التأخر في اعداد الحسابات الختامية، وما هي المعوقات الرئيسية؟

فبحسب المعلومات المتوفرة فان الحسابات الختامية متوفرة لحد العام ٢٠١٣ على الاقل، ولكن لم نلمس الاستفادة منها في المناقشات البرلمانية والاقتصادية بصورة أعم، فهل يُعزى ذلك الى النشر المحدود لها؟ أم لطريقة عرضها بشكل تفصيلي من دون خلاصات واستنتاجات عامة؟ أم لأسباب اخرى غير معروفة حتى الان؟

وما هي الخطوات والإجراءات التي يمكن ان يتخذها الديوان لضمان الاستخدام الافضل لها وتسليط الاهتمام على ما تكشفه هذه الحسابات بالنسبة للأداء الحكومي؟

د. صلاح: من المفيد التطرق إلى الجدول الزمني لإعداد الموازنة وإقرار قانون الموازنة العامة الإتحادية، ومن ثم تنفيذ الموازنة وإعداد الحساب الختامي، الذي ورد في قانون الإدارة المالية والدين العام رقم (94) لسنة 2004، النافذ لغاية عام 2019.

اولا/ إعداد الموازنة: أشار القسم السادس من القانون المذكور الى خطوات ومراحل إعداد الموازنة وكما يأتي:

(1) خلال شهر ايار من كل عام يصدر وزير المالية تقريرا عن أولويات السياسة المالية للسنة التالية وبالتشاور مع وزير التخطيط. ويقدم إلى مجلس الوزراء ويرفق معه مشروع قانون الموازنة العامة الاتحادية.

(2) خلال شهر حزيران من كل عام تعمم لوائح داخلية وأهداف السياسة المالية على وحدات الإنفاق العام، لغرض إعداد تقديرات موازناتها.

(3) في شهر تموز من كل عام تقدم وحدات الإنفاق العام تقديرات موازناتها إلى وزارة المالية، وتقوم الوزارة بمناقشة تقديرات الموازنة مع وحدات الإنفاق العام.

(4) في شهر أيلول من كل عام يقدم وزير المالية مشروع قانون الموازنة العامة الاتحادية إلى مجلس الوزراء للمصادقة عليه.

(5) يقدم مجلس الوزراء مشروع القانون إلى مجلس النواب بتاريخ 10/ تشرين الأول لغرض اقرار القانون.

ثانيا/ تنفيذ الموازنة:

(1) في 15/ نيسان من السنة التالية يقوم وزير المالية بإعداد الحساب الختامي للدولة، ويقدمه إلى ديوان الرقابة المالية الإتحادي.

(2) يقدم ديوان الرقابة المالية الإتحادي تقريره عن الحساب الختامي للدولة في 15/ حزيران إلى مجلس الوزراء.

(3) يقدم مجلس الوزراء الحساب الختامي مع تقرير الديوان في 30/ حزيران إلى مجلس النواب.

يلحظ ان على وزير المالية أن يقدم الحساب الختامي للدولة في 15/ نيسان، لكن من الناحية الواقعية لم تتمكن وزارة المالية من الإلتزام بهذا التاريخ، على مدى السنوات كلها منذ 2004 ولغاية السنة الحالية 2020، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً- تأخر إقرار الموازنة العامة الاتحادية من قبل مجلس النواب، إذ غالباً يجري إقرار القانون خلال الربع الأول من السنة، وبالتالي ضياع فرصة التنفيذ، وشخَّص الديوان ذلك وذكره في تقاريره للسنوات السابقة جميعاً.

ثانياً- إن تواريخ تنفيذ الموازنة على مستوى وحدات الإنفاق المنتشرة في محافظات العراق، وتوحيدها في وزارة المالية، وإعداد الحساب الختامي للدولة في 15/ نيسان يمكن تنفيذه في حالة أتمتة العمليات المالية بشكل كامل في وحدات الإنفاق وربطها بشبكة الانترنت مع وزارة المالية، لكن استحالة التنفيذ بهذه التواريخ اعتمادا على السجلات والعمل اليدوي، وإرسالها إلى وزارة المالية عن طريق موظفي وحدات الإنفاق.

ثالثاً- التأخر في إعداد الحسابات من قبل وحدات الإنفاق وإرسالها إلى وزارة المالية في موعد أقصاه نهاية شهر آذار من كل عام، لغرض توحيدها من قبل وزارة المالية بتاريخ 15/4، وقد يتعدى إعداد الحسابات من قبل وحدات الإنفاق لعدة أشهر بسبب (ضعف الملاك الحسابي، والتأخر في التنفيذ الفعلي للمعاملات المالية وإجراء التسويات اللازمة لحساب السلف).

رابعاً- يجري إعادة فتح الحساب الختامي بعد غلق الحسابات من قبل وزارة المالية، بناءً على طلب بعض الوزارات لإجراء التسويات والتي ينبغي إجراؤها في فترة (التسويات الحسابية) المسموح بها في القانون وهي شهر/ كانون الثاني من السنة التالية.

خامساً- إعادة الحساب الختامي من قبل ديوان الرقابة المالية الإتحادي إلى وزارة المالية، ولأكثر من مرة لوجود نواقص في المتطلبات، وقد يستغرق وقتاً غير قليل لإكمال المتطلبات وإعادته إلى الديوان.

بناءً إلى ما تقدم، فقد يتأخر تقديم الحساب الختامي للدولة أكثر من سنة إلى الديوان، ومثال ذلك لم يقدم الحساب الختامي بشكله النهائي من قبل وزارة المالية إلى الديوان لغاية السنة الحالية (2015، 2016، 2017، 2018، 2019).

أما بالنسبة للحساب الختامي للسنوات (2012، 2013، 2014) فقد قدم الديوان تقريريه عن الحساب الختامي للسنتين (2012، 2013) إلى مجلس الوزراء في عام 2015 لغرض دراسته وإحالته الى مجلس النواب، ولم يحدث ذلك. اما بخصوص تدقيق الحساب الختامي لسنة 2014، فإن الديوان قد أنجز تدقيقه عام 2017 إلا انه تريّث بتقديمه إلى مجلس الوزراء، بسبب عدم إصدار قانون الموازنة للسنة المذكورة من قبل مجلس النواب ولغاية الوقت الحاضر. فقد تم الاتفاق على مقترح الديوان أن يعد مشروع قانون الموازنة لسنة 2014 بشكل مختصر، واعتماد ما تم صرفه فعلاً، هو التخصيصات التي يقرها مجلس النواب، وبغض النظر عن الصيغة القانونية لإصدار قانون الموازنة بعد ثلاث سنوات من انتهاء السنة المعنية، والإنفاق الفعلي، فقد قدم الديوان تقريره عن المصروفات الفعلية للموازنتين (الجارية والاستثمارية) إلى مجلس الوزراء عام 2019، مع العلم انه تم إنجاز التدقيق وإعداد التقرير عام 2017.

اما بالنسبة للحساب الختامي للسنة 2015 فقد قُدم من طرف وزارة المالية إلى الديوان في 22 /12 /2019، ولوجود نواقص فقد أعيد إلى الوزارة بتاريخ 27 /1 /2020.

وقُدم الحساب الختامي للسنة 2016 من قبل وزارة المالية بتاريخ 9 /1 /2020، وأعيد اليها لوجود نواقص بتاريخ 12 /3 /2020.

وأؤكد في ظل العمل اليدوي ومستوى الملاك الحسابي للمؤسسات الحكومية استحالة إعداد الحساب الختامي للدولة من قبل وزارة المالية في 15/ نيسان من السنة التالية لتنفيذ الموازنة العامة للدولة.

وأود التنويه بصدد قانون الإدارة المالية رقم (6) لسنة 2019 الذي الغى القانون رقم (94) لسنة 2004، ويسري على الحساب الختامي لسنة 2019، واشارت المادة (34) البند (ثالثاً/ أ) يقدم وزير المالية البيانات المالية الاتحادية إلى الديوان في موعد أقصاه نهاية شهر آذار من السنة اللاحقة، والبند (ثالثاً/ ب) يعد الديوان تقريره في موعد أقصاه 15/9 ويقدم إلى وزير المالية، وبدوره الأخير، إلى مجلس النواب لمناقشته وإقراره.

اما بالنسبة لمناقشة الحساب الختامي للدولة وتقرير الديوان، فلم تجر مناقشة الحساب الختامي للدولة وتقرير الديوان للسنوات 2005 - 2012 بجلسة مناقشة علنية، وإطلاع السلطة التنفيذية والجمهور ومن ثم الإستفادة منها، لعدم ورود نص في قانون الإدارة المالية رقم (94) لسنة 2004، وانما ورد في الفقرة (8) من القسم (11)، (الموافقة على الحسابات السنوية النهائية من قبل الجهة التي ستكون السلطة التشريعية الوطنية، ونشر الحساب الختامي في جريدة رسمية (الوقائع العراقية) ويتاح للجمهور الإطلاع عليه).

اما في قانون الإدارة المالية رقم (6) لسنة 2019، فقد ورد في المادة (34) الفقرة (ثالثاً- أ) مناقشة الحساب الختامي وإقراره.

وفيما يخص المقترحات فنقترح ما يأتي:

1 - إعداد الموازنة: إعتماد موازنة البرامج والأداء بدلاً من موازنة البنود، حيث بدأت مبادرة الأمانة العامة لمجلس الوزراء منذ العام 2009.

2 - مناقشة الحساب الختامي للدولة في جلسة علنية في مجلس النواب بحضور ديوان الرقابة المالية الإتحادي، ووزارة المالية، وبعض الوزراء الذين يختارهم مجلس النواب.

*** تنتهز (الثقافة الجديدة) هذه الفرصة لتعبر للدكتور صلاح نوري خلف عن خالص اعتزازها وتقديرها لما قدمه من جهد كبير، للإجابة على اسئلتنا واستفساراتنا عن عمل المؤسسة التي كان يقف على رأسها لعدة سنوات، وكان متعاونا ومتفهما وصبورا الى أبعد الحدود لتوضيح الكثير من القضايا والإشكاليات التي تقع في صلب عمله، وعمل ديوان الرقابة المالية، مما يسمح لقراء مجلتنا وللباحثين والمهتمين بقضايا الرقابة المالية بان يكونوا على دراية افضل، وفهما اعمق بها.**

نكرر شكرنا الخالص للاستاذ د.صلاح على حرصه وصراحته وكرمه اللامحدود في الاجابة على اسئلتنا واستفساراتنا، مقرونا بتمنياتنا له بالصحة والعافية والعمر المديد.

نصوص مترجمة



الطبقة السائدة: عناصر للتعريف

بقلم: لوسيان سيف*
ترجمة: رائد فهمي

"أفكار الطبقة السائدة هي أيضًا، في جميع الازمان، الأفكار السائدة. بعبارة أخرى أن الطبقة السائدة ماديا في المجتمع هي أيضا القوة المهيمنة روحياً فيه"، ماركس وإنجلز، العقيدة الألمانية، الطبعات الاجتماعية، 2012، ص. 44 (الترجمة معدلة من قبل المؤلف).
غالبا ما تكون هذه الملاحظة المقتبسة من ماركس وانجلز جزءا من نظرية التاريخ التي يمكن عرض ملامحها الاساسية على النحو الآتي: في أعقاب الشيوعية البدائية لأشكال الحياة الاجتماعية القديمة جدا، ظهر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ونتيجة لتطور القوى المنتجة، عصر المجتمعات الطبقية، الذي اتسم بالانتقال إلى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. وبالتالي إلى الانقسام الاجتماعي بين الطبقات المالكة، ومن ثم المهيمنة، والطبقات العاملة غير المالكة. وبالتالي المسودة: السادة والعبيد في العبودية القديمة، مالكو الارض الاقطاعيون والأقنان في الإقطاع في العصور الوسطى، البرجوازيون والبروليتاريون في المجتمع الرأسمالي للعالم المعاصر.

الطبقة السائدة والطبقة المسودة

نشهد اليوم، أكثر من الأمس، ميلا إلى ممارسة الهيمنة الطبقية class domination في جميع مجالات الحياة الاجتماعية. وهي هيمنة اقتصادية في المقام الأول: فالطبقة الحائزة على وسائل الإنتاج الاجتماعي كملكية خاصة، يمكنها أن تفرض شروطها على الطبقة التي تنتج من دون امتلاك شيء - وهذا ما نعيشه يوميا من تسريح للعمال، وفقا لمقتضيات أسواق الأسهم. ووفقا لتوجهات الإدارة التي تشدد وتيرة العمل، وتوسع العمل بنظام منصات "اوبر UBER" (حيث لا يتمتع العاملون بحماية لحقوقهم). وتضاف إلى الهيمنة الاقتصادية وتضاعفها الهيمنةُ السياسية، أي النفوذ القيادي في الدولة واستراتيجياتها، وذلك على نطاق أوسع وفي جميع وسائل السلطة، من القضاء إلى التعليم، الامر الذي نشهده على سبيل المثال في تفكيك وسلخ لقانون العمل وفق متطلبات حركة أرباب العمل MEDEF (الفرنسية - م)، وانتخاب رئيس للجمهورية (المقصود

رئيس الجمهورية الفرنسي ايمانويل ماكرون - م)، تم تدريبه وتكوينه من قبل البنوك الكبرى. ويتكامل هذا التسيّد بالهيمنة الأيديولوجية، التي تمتد من امتلاك كبرى وسائل الإعلام والتعبير عن الرأي، إلى فرض أنماط تفكيرها كأعراف اجتماعية. والمثال الصارخ هو إضفاء طابع رسمي على صيغة "تكلفة العمل" التي تستخدمها محاسبة الشركات، لتحل محل الواقع الحقيقي: فالعمل، على العكس من ذلك، هو المصدر الاجتماعي الوحيد للثروة، ولثروة الرأسماليين خاصة.

وتوجد مقابل الطبقة السائدة على الدوام طبقة تحت سيادتها تعارضها. ولكنها أحد أطراف علاقة، وقبل كل شيء علاقة الإنتاج، كون النشاط البشري الأساسي هو إعادة الانتاج المستمر لوسائل عيشه. لكن لكل علاقة جوانب متناقضة، لكونها جدلية (dialectique). فالطبقة العاملة التي تهيمن عليها البرجوازية الرأسمالية، تستطيع أيضا أن تؤكد أهليتها لأن تكون طبقة مهيمنة محتملة، كونها تنتج ما يحتاجه المجتمع كله باستمرار. وهذا ما يظهره الإضراب. فوجود طبقة مهيمنة مثل البرجوازية الرأسمالية أمر غير ممكن، الا لان هناك مقابلها طبقة لا تملك وسائل انتاج، ومستغَلة تحت هيمنتها، وهي الطبقة العاملة. لكن الرجال والنساء الذين ينتمون اليها لا يدركون ذلك تلقائيا. فهي مجرد طبقة بذاتها، كما كانت البروليتاريا في أوائل القرن التاسع عشر في أوروبا، وما زالت كذلك في العديد من البلدان الأقل تطوراً. وعندما تدرك واقع كونها مستغَلة، وتفهم أن هذا الوضع ليس حقيقة ثابتة لا تتغير، انما هو مرحلة في التاريخ، وتنظم نفسها للنضال ضده ولإنهائه، ترتقي هذه الطبقة بذاتها إلى طبقة لذاتها: فاعلا واعيا في التطور الانساني.

هذا هو التحول الطويل في عمل الحركة العمالية منذ قرنين، الذي ساهم فيه ماركس بشكل كبير من خلال كشفه وتوضيحه في كتابه الرأسمال (1867) عملية الاستغلال الرأسمالي، والذي بيّن فيه أن من الممكن والضروري الخروج من الرأسمالية لبناء مجتمع شيوعي لا طبقي.

الخروج من المجتمع الطبقي

بعد مائة وخمسين سنة من ذلك. وفي ضوء كل التغيرات في الواقع الاجتماعي، وما حدث تاريخيا خلال القرن العشرين، هل لا تزال المؤشرات المذكورة، التي لم تكف الأيديولوجية السائدة عن عدم القبول بها والتشكيك فيها، صالحة في جوهرها؟

في النظام الاقتصادي، نجد أنه

فيما كانت حالة العمل (الأجير) تتسع وتتعمم. وهذا تطور يمكن أن يكون حاسما في الخروج من المجتمع الطبقي، كانت لوحة البشر الواقعين تحت الهيمنة، تتغير كثيرا في بلد مثل فرنسا: نمو قوي لفئات أخرى مستغَلة من غير العمال؛ مستخدمين، فنيين، عمال ''مستقلين''، ما يؤدي إلى خفض الوزن النسبي لبروليتاريا صناعية أكثر تنوعا. الى جانب جهود مكثفة من قبل كبار أرباب العمل بدعم من سلطات الدولة، لتفكيك المنظمات ذات النهج النضالي وزعزعة وعي الطبقة العاملة، الذي تمكنوا من جعله يتراجع إلى حد كبير، نحو الطبقة في ذاتها.

إنه وضع غير مسبوق، استخلص منه ما يسمى الفكر ''ما بعد الماركسي''. إنّ من الواجب أن يحل فكر ''الشعب'' محل التحليل الطبقي، حيث أن الهدف الشيوعي، الذي يفترض أن التاريخ قد اسقط أهليته، يجب أن يستبدل باشتراكية ما بعد ثورية، أي بـ ''شعبوية يسارية'' (على سبيل المثال: كتاب شانتال موف وإينيغو إريخون، بناء شعب Co-struire un People ، 2017 ؛ وكتاب جان لوك ميلنشون Jean-Luc Mélenchon ، L'ère du Peuple عصر الشعب، 2016).

وهناك في هذه الطروحات شيآن يتم التقليل من شأنهما: أن المتسيّدين انفسهم يشكلون طبقة أكثر عدوانية من أي وقت مضى (راجع تصريح الملياردير الأمريكي وارن بافيت في عام 2005: ''نعم، هناك حرب طبقية، وإن طبقتي قيد الفوز بها''). وإذا كان حال الأمور في الجهة المقابلة معقدا، فإن الاستغلال الرأسمالي أشد شراسة مما سبق، بحيث أن الخلاص منه وإلى الأبد، بات ضرورة ملحة. وبالتالي يتوجب عدم الاستهانة بالتحليل الطبقي، بل على العكس ينبغي توسيع نطاقه. ذلك أن شر الرأسمالية لم يعد يقتصر على استغلال العمل، وهو باقٍ ومستمر, وإنما أصبح يمس في كثير من النواحي الشعب كله. ويهدد حتى بقاء كوكبنا صالحا للعيش والإنسانية متحضرة. لذا اصبحت المهمة تتمثل في التوصل الى التجسيد الملموس والمبدع لإمكانيات الحركات الممثلة للأغلبية الكبرى، في الخروج من المجتمع الطبقي، وهو هدف لا مفر منه، وإعطاء معنى راهن للهدف الماركسي الثوري للشيوعية.

كذلك على صعيد النظام السياسي تغير الكثير منذ ذلك الزمن، زمن السحق الدموي لكومونة باريس، عندما كان يمكن لماركس أن يلخص دور الدولة الطبقية في وظيفتها القمعية، ما جعل أية فكرة أخرى عن الثورة غير الانتفاضة، تبدو مخادعة.

ومن خلال تطوير الأنشطة الإنتاجية والتجذر في كل الحياة الاجتماعية، تغدو هيمنة الطبقة المالكة أكثر تعقيدا: فرأس المال الكبير اصبح يسيطر أيضًا على شرائح برجوازية أخرى، وشريحة مالكي الأسهم تفرض نفسها على شريحة المديرين، وليس من دون توترات عميقة.

فلم يعد ممكنا على الاطلاق اختزال الدولة إلى أداة قمعية ”بيد الطبقة السائدة“ - على الرغم من أن البعد القمعي يمثل دائما جانبا أساسيا منها – بل هي على الاغلب، أي الدولة، مكان محدد لصراع طبقات وأجزاء من طبقات، بما في ذلك الطبقات الشعبية، حيث تتبلور السياسة السائدة وفقا لتوازن القوى. وفي الغالب، تتخذ فيها هيمنة المالكين شكل هيمنة سياسية - أيديولوجية تُمارَس عن طريق الإقناع، مما يجعل اللجوء إلى القمع لممارسة هيمنتها أكثر ندرة.

ومن هنا، فإن المظاهر الخادعة، تظهر الصراعات الانتخابية وفقا لها كافية. فلا شيء يجعل الاستغناء عن استراتيجية الاستيلاء على السلطة من قبل القوى الشعبية من أجل بناء مجتمع لا طبقي، أي الثورة، أمرا ممكنا.

لكن الكثير تغير في شأن ما يمكن فهمه أو تقصده وفعله تحت اسم الثورة. ففي بلد مثل فرنسا، يعني ذلك بالأساس، ما أطلق عليه غرامشي ”حرب المواقع“. وهي عملية النضال المثابر من أجل تحقيق هيمنة سياسية وايديولوجية، تجعل من غير الممكن ايقاف تحولات اجتماعية رئيسية. وانطلاقا من هذا المعنى المتجدد للنضال الشيوعي، هناك الكثير جداً ما ينبغي ابتكاره وتحويله إلى ممارسة عملية وواقع معاش.

فعل الأفكار

ما سبق يبين بالفعل الأهمية الكبرى للصراعات من أجل السيطرة الأيديولوجية. وإن الارتفاع الهائل منذ قرن في المستوى العام للتعليم والثقافة، هو في الوقت ذاته ممهد مسبق اساسي للانتقال إلى مجتمع يمسك فيه الجميع، رجالا ونساء، بشؤونهم في ايديهم - وهذا هو المجتمع الشيوعي - وهو السبب في أن أي انتصار سياسي بات يمر بالضرورة عبر العمل على توليد قناعات من خلال الأفكار والشرح والمنظور.

ومن بين عناصر القوة الرئيسية في النضال الشيوعي في فرنسا اليوم، العمل النظري عالي المستوى عن ماركس ومن معه. وهذا ما تجري معارضته باسم ”ما بعد الماركسية“ التي شاخت الآن. ويوفر ذلك ضمانا جوهريا لتكوين نفوذ مهيمن لقوة سياسية تعرف كيف تقول بصوت عال وواضح: لماذا تسير

الإنسانية بشكل مأساوي نحو الجدار، وكيف أن المخرج الوحيد هو الشروع منذ الآن في الانتقال إلى مجتمع بلا طبقات، من خلال الاعتماد على ما يتم تجريبه في هذا المنحى بصورة من يتلمس طريقه ولكن بشكل واعد، والمشاركة بشكل منهجي في أشكال جديدة من التنظيم. وهذا يعني الارتقاء كماً ونوعاً بمستوى أعمال التدريب والتأهيل الفردية والجماعية، المرتبطة ارتباطا وثيقا بالتطوير الشامل للمبادرة السياسية.

وان زيادة المشاركة في ذلك هو ما نتمناه بحرارة في مجلة ''قضية مشتركة CauseCommune''. وإذا لم تُفهَم فكرة ''الطبقة السائدة'' الماركسية باعتبارها جزءا من عقيدة جامدة، بل كمصدر حي للإلهام، فانها تبقى تحتفظ بصلاحيتها العملية أكثر من أي وقت مضى.

هذه المادة مترجمة عن الفرنسية وقد نشرت في مجلة Cause Commune ـ (القضية المشتركة) التي يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي، العدد 1 الصادر في أيلول - تشرين الأول 2007 – المترجم.

*** لوسيان سيف فيلسوف ماركسي فرنسي. طالب سابق في مدرسة الأساتذة العليا في فرنسا Ecole Normale Supérieure ، حاصل على درجة Aggregtion الفرنسية في الفلسفة. توفي في 23 آذار 2020 بعد اصابته بالكورونا عن عمر ناهز 94 عاما**


أدب
و
فن

11 أيلول.. ثقافياً

حسب الله يحيى

تلعب الاحداث السياسية، دورا مهماً في مؤثراتها على الحياة الثقافية، بحيث تشهد هذه الحياة سلسلة من المتغيرات كنتيجة طبيعية لتلك الاحداث التي تهز العالم كله.

وهجمات 11 أيلول/ 2001 الارهابية ضد المواقع الامريكية المنتخبة، والتي خلفت آلاف الضحايا والمعوقين والمفقودين..؛ لم تكن حدثاً سياسياً ارهابياً عابراً، إنما كانت حدثاً أعقبته متغيرات كثيرة ليست سياسية واقتصادية حسب؛ بل شكلت هيمنة على مجمل الحياة الثقافية والاجتماعية.

وفيما يتعلق بالعراق، شهد إسقاط السلطة السابقة في2003 وما اعقب ذلك من تدمير كلي للبنى التحتية كافة واعمام الفوضى وتخريب الاقتصاد العراقي، وزرع الفتنة بين ابناء الشعب الواحد، وهو الأمر الذي اغرق العراق بسيل من الدماء وخراب المدن، ومن ثم احتلالها من قبل القتلة والارهابيين والمتطرفين وفي مقدمتهم عصابات (داعش).

هذ الواقع المرير الذي مرّ به العراق منذ العام 2003 وحتى الآن، كان نتيجة حتمية للارهاب الذي طال دولاً عظمى في مقدمتها امريكا، ما جعلها تنتقم وتعمل على اسقاط الانظمة العربية الواحدة بعد الاخرى، حتى تحول العراق وسوريا ولبنان وليبيا الى بلدان مزقتها الحروب والدمار والفوضى.

وكل هذه التحولات انعكست على الواقع الثقافي العراقي والعربي عموماً، حتى تحولت الثقافة الى هامش لا اهمية له في هذه البلدان.

لا بل عمدت بعض السلطات الى تجهيل الثقافة والمثقفين، وهو الأمر الذي دفع بآلاف الكوادر المثقفة الى مغادرة البلاد، بحثاً عن الحياة الامنة والمستقرة، التي يجد فيها الانسان نفسه على قدر من الطمأنينة على حياته ومستقبل ابنائه.

ومن بقي في البلاد، وجد نفسه في حالة يرثى لها، وهو يعاني من الجوع والمرض والتشريد والاغتيال كذلك.

وفقد العراق قامات ثقافية من بينها: كامل شياع, هادي المهدي، علاء المشذوب، علي اللامي وغيرهم.. وهناك عدد كبير من المغيبين الذين لا يعرف مصيرهم حتى الان.

وظهر الخطاب المتطرف الذي عمد الى تصفية من يصفهم بـ(الخصوم) الذين يختلفون معهم فكرياً.

وما زال ذاك العمل الارهابي يلقي بظلاله على مدى (19) عاماً متواصلة ومستمرة حتى الآن. حتى أصبح الحديث عن الثقافة والفكر والابداع مجرد ترف اجتماعي، لا يلقى صداه وتأثيره على الخطاب السياسي الثيوقراطي المتطرف.

ومن كان يعلن عن نفسه في ادانة هذه الاساليب الارهابية يلقى حتفه بشكل عاجل وذلك بهدف تكميم الافواه وجعل المجتمع خاضعاً لما تتبناه تلك القوى الرجعية من نهب الثروات وتعطيل ليس الثقافة لوحدها، انما للبنى الاقتصادية والاجتماعية ولتربوية والصحية..

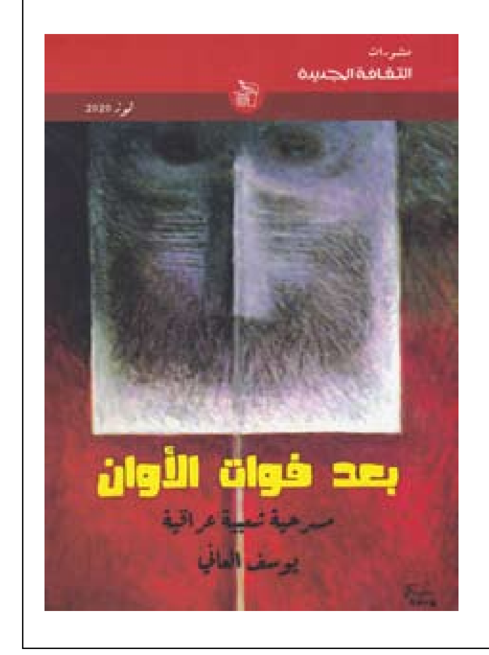
وجاءت جائحة كورونا لتثقل الحياة برمتها، بحيث اصبح المجتمع العراقي، عاجزا عن تدبير حياته اليومية.

وما نشهده اليوم من عزوف عن انتاج المعرفة والابداع والغياب الكلي للقراءة والوعي.. ما هو الا نتائج لما كنا عليه من مؤثرات سياسية ارهابية ورجعية ومتطرفة, وليس أمامنا اليوم سوى أن نكشف عن حقيقة التدابير التي تبنتها القوى الرجعية من محاولات في تغييب الفكر التنويري وسلب المجتمع ارادته في حرية التعبير وبناء منظومته التربوية والتعليمية المتطورة.

الآن، نحن معنيون بمراجعة الحال والأحوال لهذا التردي الذي بات يشكل ظاهرة سلبية. لا بد من تجاوزها بالعمل المثمر والدأب المستمر على اعادة لحمة المجتمع وانارة دربه بالقيم النبيلة والفكر النير.

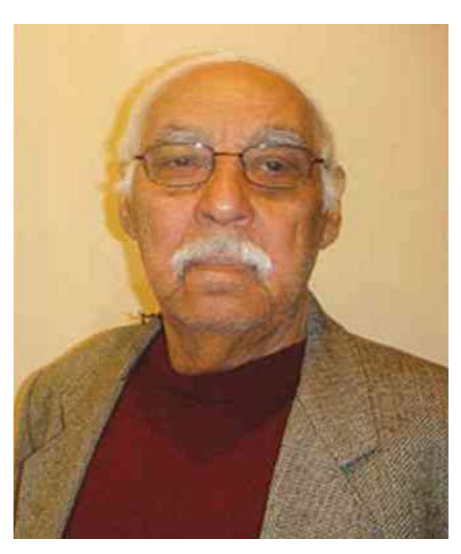
«بعد فوات الأوان»

ضمن منشورات مجلة « الثقافة الجديدة» صدرت حديثا مسرحية بعنوان « بعد فوات الأوان» للفنان الراحل يوسف العاني. كان قد كتبها في السجن عام 1963 وأرسلها للاستاذ عبد الله حبه. ولم تنشر من قبل. قدم للمسرحية د.جبار خماط. وقد أهدى المؤلف نصه الى مقداد احمد العامل شقيق الشاعر رشدي العامل. وكان مقداد قد تعرض لمرض السحايا واصبح اصم وابكم وتعرض للتعذيب بعد انقلاب 1963.



عادل كاظم:
كبيرٌ في المسرح.. كبيرٌ في الدراما التلفزيونية

ناطق خلوصي*


عادل كاظم

غيّب الموت مؤخراً كوكبة من المبدعين العراقيين كان عادل كاظم أحد الكبار بين هذه الكوكبة وكان قد تألق على نحو بارز في تأليف الدراما التلفزيونية مثلما كان قد تألق في تأليف الدراما المسرحية. ويمكننا القول إن الدراما المسرحية، كانت الركيزة الإبداعية التي كان قد استند إليها فيما كتبه من أعمال درامية تلفزيونية وقد اعتمد التاريخ مصدراً اساسياً فيما كتبه سواء كان مسرحيا أم تلفزيونيا.

بدأ عادل كاظم الكتابة للمسرح عام 1962 وانتظر ما يزيد على عشر سنوات قبل أن يبدأ الكتابة للتلفزيون وفي كل ما كتبه للمسرح اعتمد أحداثاً من التاريخ العربي أو تاريخ العراق الحديث مصدراً أساسياً للتناول، ومثله فعل للتلفزيون وكان دقيقاً في اختياراته.

كتب للمسرح العديد من المسرحيات الرصينة ومنها: "الطوفان" و"المتنبي" و"تموز يقرع الناقوس" و"نديمكم هذا المساء" . أما في الدراما التلفزيونية فقد تنوعت أعماله بين المسلسلات والتمثيليات القصيرة لكنه كان في المسلسلات أكثر تألقاً مما في التمثيليات القصيرة لأنه اعتمد اللهجة العراقية الشعبية لغةً للحوار، فضلاً على طبيعة موضوعاتها وقربها من الجمهور المشاهد وبراعة مخرجيها وحسن اختيار مجموعات الأداء. ولا نعني الانتقاص من قدر التمثيليات القصيرة فقد كانت جيدة هي الأخرى لكنها لم تنل حجم القبول الذي نالته معظم مسلسلاته الشعبية ربما باستثناء مسلسل "الاحفاد وعيون المدينة" الذي أراد به عادل كاظم أن يأتي امتداداً نوعياً لسابقيه ويشكّل به ثلاثيته الدرامية لكنه لم يتحقق له ما كان يرغب فيه تماماً. فهذا المسلسل الذي كان الدكتور حسن الجنابي قد أخرجه لم يحقق الشهرة التي نالها ما سبقه.

كان عادل كاظم قد بدأ الكتابة للتلفزيون بتمثيلية قصيرة بعنوان "ابن طفيل" أخرجها



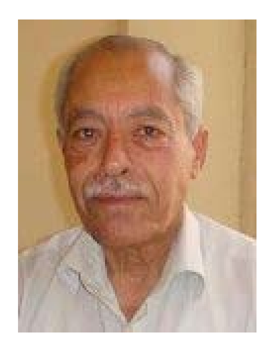
ابراهيم عبد الجليل، قبل أن يكتب مسلسله الكبير "الذئب وعيون المدينة" الذي تم عرضه في العام 1980 باخراج ابراهيم عبد الجليل أيضاً. وكان هذا المخرج القدير قد أحسن اختيار مجموعة الأداء من بين أكبر وأبرز الممثلين والممثلات: خليل شوقي وبدري حسون فريد وجعفر السعدي وفاطمة الربيعي وفوزية عارف ومقداد عبد الرضا ومحسن العلي وسليم البصري وقاسم الملاك وسناء عبد الرحمن.. الى جانب عدد من أبرز المؤدين والمؤديات. وأعاد ابراهيم عبد الجليل اعتماد المجموعة ذاتها لدى اخراجه مسلسل عادل كاظم الثاني "النسر وعيون المدينة" الذي جاء امتداداً زمانياً ومكانياً ونوعياً للجزء الأول وتم عرضه عام 1983. وكتب عادل كاظم مسلسل "حكايات الأيام العصيبة"، وشرع ابراهيم عبد الجليل بإخراجه، لكن الموت غيبه قبل إكماله فقام عمانوئيل رسام بإكمال إخراج ما تبقى من حلقات. وأخرج له محمد شكري جميل مسلسل "حكايات المدن الثلاث"، وأخرجت خيرية المنصور مسلسل "مضت مع الريح"، ولم تتح لي فرصة مشاهدة مسلسل "بنت المعيدي" الذي لم يكن عادل كاظم راضياً عنه تماماً كما ورد في تصريح له نشر عام 2012.

وكتب عادل كاظم عدداً من التمثيليات التلفزيونية، فضلاً عن "ابن طفيل". فكتب ثلاثية "الحب والفأر والكومبيوتر" التي أخرجها صلاح كرم عام 1985 وتمثيلية "الحبيبة" التي أعدها عن قصة لتشيخوف وأخرجها بسام الوردي، إلى جانب تمثيلية بعنوان "غاليلو غاليلي". وفي كل ما كتب عادل كاظم ظل محافظاً على النَفَس التقدمي الذي عرف به وعلى الرصانة التي ميزت أعماله سواء في المسرح أم في التلفزيون.

السوق الثقافي لأدب الأطفال في العراق ظاهرة خطرة أمام الحكومة والمجتمع المدني

محسن ناصر الكناني*

(1) المراقب لسوق الثقافة في بلدنا، يلمس ظاهرة خطرة، تتمثل في عجز الدولة، في طبع ونشر مجلات، وكتب، أدب الأطفال، بحيث (بقيت دار ثقافة الأطفال عاجزة مالياً في طبع نشرياتها، وميزانيتها تخضع (للتمويل الذاتي)!



وهذه الظاهرة باتت مقلقة، للآباء والأمهات والتربويين والمثقفين والمهتمين بالشأن الثقافي، ومنظمات المجتمع المدني المعنيّة بالطفولة، والذين يهمهم، أن يتطور سوق أدب الأطفال، باتجاه ايجابي، متصاعد. وكلما عقد مؤتمر سنوي لثقافة الأطفال وآخرها في النجف الاشرف فان توصياته غير ملزمة للحكومة بل وتصرُّ، أو تسد آذانها، عن ضرورة دعم الطفولة، على الرغم من ميزانيتها السنوية المتصاعدة!

ويبدو لي ان رؤية الدولة إلى الثقافة وأدب الأطفال خصوصاً؛ رؤية قاصرة، مثل قصر رؤيتها في حقل السياسة الذي أوصل الامور إلى عنق الزجاجة!

وكان أطفال العراق، الذين يتكاثرون ، ثم يموتون جوعاً، أو يخضعون تحت مظلة (خط الفقر) اللعينة، لا تعني الدولة، ومؤسساتها في شيء، بل الادهى من ذلك - ان الدولة تضع برامج إستراتيجية لمحاربة الفقر، ثم يظهر أن البرامج هواء في شبك!

الملايين من أطفال العراق الذين يتعرضون كل يوم إلى الفقر، وخطر المجاعة، ويتسرب الآلاف من مدارسهم إلى الشوارع، بحثاً عن لقمة العيش؛ لا تعني الدولة البتة، ولا تحرك للأمر ساكناً...

الظاهرة مقلقة جداً، وباتت معلقة برقبة الحكومة وسياساتها، وما على منظمات المجتمع المدني إلا أن تدّق الجرس، وتضغط على الحكومة، من أجل أطفالنا، ومن جهة ثانية تضع الخطط الكفيلة بإنقاذ الطفولة العراقية، على وفق رؤية جديدة.

- ما المطلوب الآن؟

- المطلوب: ميزانية مناسبة، ودار توزيع طباعة وتوزع المطبوعات وتوجيهها: (هيئة رعاية الطفولة) التابعة لوزارة العمل، وفروعها في المحافظات بمؤازرة وزارة التربية، والتعليم العالي، والصحة، وحقوق الإنسان، ووزارة الشباب ومنظمات المجتمع المدني المعنية بالطفولة، والأسرة، وبإشراف ومتابعة من قبل لجان الأسرة في مجالس المحافظات. هذه الهيئة يناط بها وضع خطة للطبع والتوزيع والمتابعة على وفق آلية شفافة ومرنة، تلزم الهيئة فيها أطرافها بتوزيع المطبوعات إلى المدارس (قسم المكتبة المدرسية) والى الجامعة (عن طريق المراكز

الثقافية، والدوائر الإعلامية) وحقوق الإنسان عن طريق (مديرية حقوق الإنسان) والعمل في (دائرة الأحداث) والبلديات عن طريق (المكتبات العامة) ووضع آليات للمسابقات الثقافية، وتشكيل (جماعات أصدقاء الكتاب) وتنشيط عمل النشاط المدرسي، في حقول الأدب والثقافة، بالمشاركة مع مديريات الشباب كافة.

يعني أن (هيئة رعاية الطفولة) لديها النظام الداخلي الذي يؤهلها الآن، أن تتحرك في الأطراف، بالتنسيق مع دار ثقافة الأطفال، لوجود ملاك متخصص معني بالكتابة، ومشرفين، وخبراء في مجال أدب الأطفال، فضلا عن الرسامين والمصممين.

سوق الأدب الآن

يمكن للمراقب أن يلمس الأطراف التي تتحكم بالسوق وهي:

1.ثمة مطابع، ودور نشر أهلية، تعدُ، وتتصرّف بشعر وحكايات محلية، وعربية، وعالمية، تعّده وتتصرّف بتقديمه بشكل جذّاب وملون، لكنه متهافت، وخطر، ومسموم!

الخطورة فيه، خاضعة لمزاج الدار، واجتهادات العاملين في الدار. وهو نهج بدأه النظام السابق، في التزامه خطا شمولياً ذا طابع سياسي. وكأن الدولة العراقية، نائمة، بلا رقيب، تفتح أبوابها للإنتاج الخاص والاستيراد من بدون حساب، وقد وجدنا العشرات من العناوين لجرائد، ومجلات، وكتب، يعّج بها السوق، صادرة عن مطابع، ودور أهلية، وبعضها عن مؤسسات دينية، ومراكز ثقافية دخلت ميدان الإنتاج، بعيدة عن الرقابة. وكذلك ما تطبعه وتوزعه دور نشر عربية، أعدت حكايات عراقية، وعربية وعالمية، بشكل (مفبرك) بعيدة عن الآداب، والثقافة وضروراتها الموجهة الى الأطفال، والمرحلة العمرية، والذهنية، والخيال والقاموس اللغوي. يعني ان هذه الدور، تعمل على هواها، دون الاسترشاد برأي الخبراء المختصين بأدب الطفل، وثقافتهم.

(2) ثمة دار امريكية باسم (Scholastic) دفعت العشرات من العناوين في حقل أدب الأطفال، وأدب الرحلات، وعلى الرغم من الطباعة الناجحة الملونة، ذات الغلاف السميك المزود بالصور، إلا أن الكتب تتوجه على وفق خط مرسوم، خط سياسي يخدم توجهات العولمة الامريكية ونظرتها إلى الأطفال، يعني إشاعة ثقافة وأدب امريكي، بعيد عن أدبنا وتاريخنا. ويعني كذلك قطع الآصرة - بين آدابنا المحلية، والبداية بأدب وافد، متهافت، يعني ان نبدأ من حيث (هم)، وليس من حيث (نحن)!

وهذا يشكل إساءة بالغة إلى أدب الأطفال الذي نؤمن به، ومسخ للثقافة العلمية والتوجهات السليمة للتربية، وعلم النفس، في فهم الطفل ككائن مستقل، له ثقافة، وخيال وفكر، وذاكرة حسب المراحل العمرية.

ويبدو أن الدار الامريكية التي مركزها نيويورك، تمد فروعها إلى دول العالم كما مثبت على الغلاف: سدني – بونس أيرس – هونغ كونغ – لندن تورنتو – أوكلند – مكسيكوستي – وتصل الى السوق العراقي في وضح النهار، وتباع في بغداد، والمحافظات، وتصل إلى الأطراف بخطط توزيع مع أصحاب الدكاكين واللوازم المدرسية! بسعر مناسب (500 دينار) للكتاب، يقابل (500 دينار) للمجلة العراقية!

يعني أن هذه الدار مدعومة مالياً. فهل نفكر يوماً بدعم دورنا، وتوزيع المطبوعات على أطفالنا بسعر زهيد؟!

(3) المطبوعات التي تصدر عن مطابع أهلية،

ودور نشر وهمية، فهي تطبع، وتوزع بضاعتها على أصحاب الدكاكين، واللوازم المدرسية، بطباعة رديئة، وتوجهات غير علمية، تركز على (التلوين) و(التسالي والألعاب) ضاربة عرض الحائط ثقافة الأطفال وأدبهم. باستثناء بعض الدور الثقافية الجديدة، بعد التغيير مثلاً (دار صديقي - ودار مؤسسة الهدى- ودار البراق) وأفراد معنيين دخلوا الميدان، فهذه الدور ذات توجه واضح ومستوى أحسن، لأنها اعتمدت على ملاك مثقف معني بالطفولة ممن احيل الى التقاعد، وعلى مصممين ومنفذين شباب، وكتاب معروفين، لكن مطبوعاتهم، ظلّت في المخازن، بانتظار مهرجان هنا، أو هناك، أو مناسبة وطنية، أو مؤتمر توزع فيه.

إن سوق أدب الأطفال، بائس، وبعيد عن الملتقى الصغير، سواء في المدينة أو الريف، على عكس فترة السبعينات من القرن الماضي عندما كانت (دار ثقافة الأطفال العراقية) تنفتح أمامها ميزانية ضخمة فكيف لا تعبر المدن، صوب الريف الى المدارس، ثم تعبر الحدود، إلى دول الجوار، وتصل الى معارض العالم، وتشارك في المهرجانات، والمعارض العالمية، بحيث كان المطبوع العراقي، يضاهي في جودته، ومستواه الإبداعي، الإنتاج العربي، باعتراف الخبراء العرب.

لكن هذه التجربة العراقية، قد انكفأت، بعد الحرب ، والحصار الاقتصادي، وانقطعت عن التواصل، وتشتت ملاكاتها، ثم انعزلت. بعد التغيير، جرى ترميم التجربة، وعاد بعضها لكنها ظلّت تعاني (من التمويل الذاتي) الذي حرم أطفالنا من زادهم الثقافي.

وثمة بصيص أمل، في الساحة، هذا البصيص اخذ يشتّد نوره، وهو بروز ملاحق ثقافية تعني بأدب الطفل تصدر عن صحف محلية لها وزنها وثقلها المعرفي، وتوجهها السليم التي أعادت الاعتبار لأدب الأطفال (شعراً، وقصة، وسيناريو ملون وزوايا علمية للحاسوب، والتسالي، والمعارف، والألعاب، ومسابقات للرسم، والتعارف)، وتقيم مؤتمرات، ومهرجانات، جذبت المهتمين والمعنيين بشؤون الطفل، مثل ملحق (شمس الصباح) الصادر عن جريدة الصباح، وملحق (مرحبا يا أطفال) عن جريدة (طريق الشعب) وملحق (الأطفال) عن جريدة الدستور، وإصدارات عن منظمات مجتمع مدني نامية، أخذت في النمو والتصاعد، وتطمع في الوصول إلى الأطفال ومنتدياتهم، إلا أنها محكومة بتوزيع الجريدة، وقدرتها المالية المحدودة.

ان السوق الثقافي للأطفال فشل في التوجه الصحيح إلى الأطفال. وثمة شيء، بدا يتململ في الصدور، ألا وهو ضرورة تدارس الحالة، ووضع خطة عمل في العام الجديد، والإسراع بتشكيل الهيئة العامة لرعاية الطفولة العراقية وتنشيط عملها في المحافظات، وترصد لها الحكومة، ميزانية مناسبة لعملها، ومؤازرتها بالمختصين، ومنظمات المجتمع المدني، وإشراف من قبل لجان الأسرة والطفل في مجالس المحافظات.

فهل نستطيع أن نواجه الظاهرة، ونعالج آثارها السلبية وننجح في الوصل إلى الأطفال، وتوجيههم الوجهة الصحيحة ونبني كيانهم، ونزرع فيهم الأمل. اعتقد إننا نستطيع. والخطوة الأولى هي البداية في طريق الألف ميل.

نص ونقد/ محور خاص

بهدف اغناء الحركة النقدية التطبيقية، ارتأينا ان نقدم انموذجين لقصة قصيرة، ونقدها ومجموعة قصائد ونقدها. ذلك ان النقد الذي يرافق النص من شأنه تحقيق حضور ايجابي، وتفاعل جاد لكتّاب النصوص والنقّاد، والقرّاء كذلك.

محرر (أدب وفن)

القصة:

عش الدبابير

سلام حربه

كان عندي خمسة ابناء: أربعة ذكور وانثى. (فاهم) كبيرهم غادر البلد منذ تسعينيات القرن الماضي بعد أن شعر بملاحقة اجهزة الأمن واعتقالهم الدائم له. "إن الحياة مستحيلة في هذا البلد". زرع نفسه في الغربة. ولا نعلم هل نبت له جذر هناك أم مات من الوحدة والضياع. (ناظم) تخرج من الكلية. لم يهنأ بشهادته، أكلته اضراس الحرب دائمة الاشتعال في هذا البلد. (فخري) الشاعر المحلق في فضاء خياله، اختطفته عصابات الجريمة، التي تصول وتجول منذ أكثر من خمسة عقود. وجدناه جثة مزرقة على كتف طريق ريفي مهجور وقد حفروا رأسه واقتلعوا مخه. لم تستطع زوجتي ان تحتمل كل هذا من قطار الاحزان، الذي حمل ابناءها الثلاثة وقذف بهم في جوف النسيان، وهي تعاني من مرض السكري وضغط الدم، فطلّقت الكلام الى الأبد. ما زال الحزن فاغرا فاه، ويتلمظ للانقضاض على ابنتي (هيام) الطالبة في السنة الأخيرة في كلية الادارة والاقتصاد، وقد تفتح ربيعها عن جمال أخاذ، وخُلْقُ وسلوك راقيين حتى أن بابنا الخشبية في بيتنا المتواضع في محلتنا الشعبية، قد تخلخلت الواحها الخشبية من كثرة طرق الخطّاب لها. لم يقنط (نعيم) ابن قائد فصيل مسلح عند رفضها له، يشار لأبيه في الكثير من جرائم القتل والاختطاف والتهجير في المدينة. كانت الأجهزة الامنية تقف مكتوفة الأيدي، لا تحرك ساكنا، ولا تستطيع أن تجهر أو تشير بأصبع الاتهام اليه. كان نعيم طالبا معها في الكلية، وهو يرى بأم عينيه

علاقة الحب التي تربطها بزميلها (عماد) ومنذ اربع سنوات، لكنه طالما وقف امام عماد مهددا.

- لن اسمح لك ان تتزوج هيام. نجوم السماء اقرب اليك، وطوع يدك من هذا الامر.

كان عماد يتحاشى الرد عليه وهو الذي خطبها رسميا مني. وافقت انا ووالدتها، لكننا رفضنا أن يلبسا خاتمي الخطوبة، الا حين يتخرجان في الكلية، واشترطنا عليه أن يتزوجا بعد التخرج بزمن لا يزيد على شهر واحد لأن. هناك ريح ويجب أن تُغلق الباب بوجهها. وافق عماد على مضض فهو يعرف أن الوضع ليس آمنا، ولا كما تشتهي الأنفس ونظرات نعيم تلاحقهما، وتعد انفاسهما وتحصي شفرات الحب التي تتبادلها عيونهما، لكن ما العمل ونحن محكومون بالعادات والتقاليد الاجتماعية..! تخرجت هيام وكانت مرتبتها الثانية بعد عماد في الكلية. هذا ما اخبرني عماد به، هيام لم تعد الى البيت منذ ثلاثة ايام، حين خرجت لجلب شهادتها الجامعية. لم نترك مركزا للشرطة أو مستشفى أو بيوت صديقاتها في الكلية الا وطرقنا ابوابها. أنا وعماد وابني (سلوان)، البالغ من العمر ثمانية عشر عاما، والطالب الذي تخرج من الدراسة الاعدادية - البكلوريا - بتفوق وبمعدل يؤهله للدخول الى كلية الطب. طرقاتنا ردت خائبة واجابة الجميع: لا نعلم. في اليوم الرابع فُتحت باب البيت ودخلت هيام، شعر منفوش، وجه اصفر معصور من الدم، شفتان يابستان متشققتان من الجوع والعطش والذل. عينان جف بريق مائهما من كثرة تساقط الدموع والبكاء، احيطتا بسواد ليلي قاتم تحت الجفنين الاسفلين. في باحة الدار وقفت هيام ترتعش كسعفة نخيل ونحن مبحلقين أمامها، وقد أصابنا الخرس، لا نعرف من سيبتدئ الكلام.

قال عماد:

- هيام. من عمل بك هكذا؟

تمتمت بصوت هامس لم يصلنا الا..

- لا اعلم..!

نطقتُ. بعد أن تحرك لساني المتخشب في فمي..

- أكيد هذا نعيم. أنا على يقين من ذلك..

لم تقو قدماها على حملها، جلست على كرسي. أحطناها نحن الاربعة من كل الجهات..

نكست هيام رأسها، تحاملت على نفسها لتطرد الخوف الذي كان يمزق روحها عنا.

- لا اعلم ان كان نعيم او غيره. وأنا في طريقي في سيارة الاجرة الى الكلية لجلب النتيجة واذا بسيارة تعترضنا، نزل منها ملثمان واقتاداني من السيارة وهددا سائق الاجرة ان أتى بأية حركة. اركباني سيارتهما بعد أن أعصبا عيني وانطلقا بي الى مكان مهجور ووضعاني في غرفة شبه مظلمة، وهناك اعتدى عليّ مجموعة من الرجال وأنا مغمضة العينين، لم ينبسوا بأية كلمة طوال هذه الايام، كي أتعرف إلى صوت نعيم ان كان بينهم، لم يفكوا عصابة عيني الا حين رموني في فم زقاق محلتنا اليوم..

صرخ سلوان زاعقا..

- أنا سوف أقتل نعيم بيدي هاتين.

وضعتُ يدي على كتفه.

- لا تكن متهورا، دعنا نتحقق من الأمر.

كانت زوجتي معقودة اللسان وعيناها حائرتان وهي ترنو الى هيام الكسيرة والخارجة توا من سجن ثقيل للأشغال الشاقة، حزنها على ابنتها كومها أمام قدمي هيام جثة هامدة، لا حراك فيها. اليأس من الحياة أجج احتراقي الداخلي، وبدل تدخين علبة سكائر يوميا، تجاوزت العلبتين ويصل احيانا الى الثلاث. لا يخفف من لوعتي سوى صديقي زيدان الذي كنت التقيه في المقهى، ونجتر سوية آلامنا العصية، كان يقول لي:

- اعتن بصحتك يا أبا فاهم. عمرك تجاوز الثمانين، يكفي ازمة نفسية أن تطرحك ارضا، كلنا في المركب سوية. الأفضل أن نبقى يقظين من أن نغرق جميعا.

أجبته، تسبق كلامي سحب الدخان من السيكارة التي لا تفارق شفتي:

- وما العمل اخي زيدان. أشعر أن المنافذ قد سدت كلها، خمسون عاما واكثر ونحن نبحث عن كوة ضوء كي نرى مستقبلا جديدا. تعرضنا الى السجون والتهديد ونفذنا من بين أنياب الموت باعجوبة في زمن الدكتاتورية، ومازالت معاناتنا هي هي في زمن ما يسمى بالديمقراطية: موت، اختطاف، اغتصاب، زمن واحد بأسماء مختلفة، لا سبيل للخلاص.

زُرع طيف ابتسامة على وجه زيدان. أضاف بثقة:

- لست أنت من يقول هذا الكلام يا أبا فاهم. قد يثمر نضالنا طوال هذه السنين وتظاهراتنا ونحن نطالب بديمقراطية حقة عن ثورة تستعيد حقوقنا.

قاطعته ساخرا:

- زيدان، لم نستطع أن نكسب ثقة الشارع، كنا مئات نتطلع الى الحرية والى حياة كريمة لأبنائنا. الكثير من الشباب كان يتفرج علينا وكأننا هابطون من كوكب آخر.

قال زيدان بثقة اكبر:

- الحرائق تبدأ من جذوة بسيطة، من شرر متطاير.

- عزيزي زيدان، نحتاج الى منقذ يسترد كرامة ابنتي المهدورة، ويحرر ابني من اهوائه وعوالمه الداخلية. منقذ يُغمض عيني حين أموت وأنا في كامل الرضا على مستقبل شبابنا. أنا يائس وأرفع رايات الهزيمة والاستسلام.

ارتبكت أيامي أكثر. وحاصرتني الهموم والامراض من كل جانب وأنا أرى ابنتي هيام وهي تزداد عزلة وصمتا في غرفتها. يصادف أن تمر أيام وانا لا أراها خاصة بعد أن فسخ عماد علاقته بها وتزوج من فتاة اخرى. ابني سلوان منقطع عن العالم، يضع سماعات هاتفه النقال في أذنيه على الدوام، ويبذر كل وقته في لعبة البوبجي وتصفح هاتفه النقال، حتى اني نسيت متى آخر مرة كلمني فيها. لم استطع تحمل هذا الجو المأزوم في البيت، انفجرت بوجه سلوان.

- صحيح انك طالب في كلية الطب وشاب عصري واصدقاؤك الكثيرون لطفاء ويشبهون تفكيرك تماما، لكني لا أفهمكم. لم أرك يوما تقرأ في كتاب تأخذه من مكتبتي التي تملأ غرفة كاملة، وليس لديك اهتمام بكل ما يجري. هل أنت تملك هذا الهاتف النقال أم هو من يملكك..؟

لم يكلمني، كان في عينيه بريق خاص

لا اعرف سره. انسحب من أمامي وفكره مشغول في موضوع آخر. انزوى في مكانه الأثير على أريكة في باحة الدار وراح يبحث في شاشة هاتفه عن شيء سبقه ويحاول اللحاق به. لم أزدد بمرور الأيام الا عجزا، وأنا أرى أن كل شيء يفلت من بين اصابعي، ونعيم وأباه واحزابهما وفصائلهما يسرقون ويقتلون ويخربون دون رادع من أحد أو سلطة قانون، طوال هذه السنين. لفتني دوامة الحيرة اكثر مما تلف هيام وسلوان، وبدل أن أبحث عن منقذ في الأرض، اضطررت للبحث عنه وراءها، حيث يسكن الغيب وينتظر موعدا للظهور. اعتكفت في محراب الدين، أصلي ليلا ونهارا، طالت لحيتي وتبدل كل مظهري حتى لساني استدار مئة وثمانين درجة. حين أتكلم مع الاخرين تعلو وجوههم سحابة من عدم التصديق..

- سيأتي، أنا سأكون أول المستقبلين له.

- أحقا ما تقوله يا أبا فاهم..؟ لم نعهدك تؤمن بهذا الشيء في السابق..!

أجيبهم وعيناي ترنوان في الفراغ الممتد امامي وبترتيل:

- أنا أسمع حضوره المجلجل، عجيب، ألا تسمعون الأصوات مثلي..؟

كانوا ينسحبون والشفقة ترتسم بوضوح على وجوههم، لم يسمعني أحد كلاما ساخرا يوما ما. ما زالت المدينة تنظر لي بهيبة ووقار وحتى وان أصبت بالجنون، فهذا المرض عادي في خريف العمر، ولن تُثلم صورتي الناصعة وتاريخي المشرف في ضمائرهم..

كنت أسمع وقع الاقدام في منامي وأحلامي كل ليلة. وأقول ها قد أتى ويختفي سرابه ما أن يفرّ النوم من عينيّ، لكن هذا الوقع استمر هذا الصباح حتى حين صحوت مفزوعا من النوم. الاصوات الهادرة المدوية ترتج لها جدران البيت القديمة، وينتقل صداها الى الغرفة الرطبة التي دفأتها ضفائر الشمس الذهبية. أصخت السمع قلقا، ها قد جاء معه جيشاً من المحررين وهم الآن في الشارع القريب من بيتي ويهتفون بالشعارات الحماسية ويغنون الأناشيد الوطنية. ارتديت ملابسي على عجل وخرجت مسرعا دون ان ألتفت الى هيام الواقفة في باب غرفتها وقد ارتسمت ابتسامة جذلى على فمها، لأول مرة، منذ مصيبتها وارتوت عيناها ثانية بماء الحياة. وقفت في الشارع بانتظارهم. قدموا عشرات الآلاف يتقدمهم سلوان واصدقاؤه وكل شباب المدينة واعمارهم التي تفتحت بين الخامسة عشر والثلاثين وصدروهم عارية وهي تستقبل، برحابة، طلقات الغدر. أشار سلوان لي للالتحاق بهم، قال بصوت عال:

- التحق بنا يا أبي، نحن المنقذين..

لم أصدق ما رأيته في البداية ولكنني ذبت بفرح بينهم. كان يركض أمامنا مذعورا كل من نعيم وأبوه وذئاب الدين التي ألبست جلودها الخشنة صوف الحملان الوديعة الناعم والصقت على وجوهها رسوم الايمان الزائف وهي من نهشت البلد بأنيابها الدموية وبصقته رميما. لم يصل مسامعي سوى ضحكات هيام الجذلى التي كنت اميزها بوضوح وصراخ المسوخ الملثمين الهاربين، ولم أر الا ألسنة اللهب، وهي تعقم أوكار الفاسدين الموبوءة بالاغتصاب والجريمة.

سلام حربة..
مهارة التحوّل السردي في قصة "عش الدبابير"

علي حسن الفواز*



تنهض قصة سلام حربة "عش الدبابير" على فكرة مركزية البطل، الذي يرصد الاحداث عبر رؤية واقعية مُستلبة. لها احالاتها السردية التي تستعين بالدلالة، والى ما توحي به تلك الرؤية، من خلال علاقتها بالزمن النفسي والسياسي، وكذلك من خلال علاقتها بالشخصية الساردة، على الرغم من غياب المكان بوصفه الديموغرافي، إلا أنه يحضر بوصفه عنصرا مكملا للبنية السردية في القصة.

تعيين موقع اللعبة السردية تبدأ من عتبات الوصف الواقعي، بوصفه مدخلا لمقاربة الوصف الحكواتي الذي تقترحه شخصية "ابو فاهم" الذي يؤدي وظيفة السارد العليم، والذي يضعنا أمام تعريف بتاريخ عائلته واولاده الخمسة، الذين تهرس ثلاثة منهم وقائع الصراع الفاجع مع سلطة الاستبداد والطغيان والشعبوية، حيث المنفى والحرب والاغتيال والاغتصاب، وهي علامات تأطيرية لتوصيف طبيعة الصراع، وحكاياته، ولتوصيف طبيعة الرعب الفقد الذي تصنعه، ولا يملك ازاء السارد العليم في هذا السياق سوى تتبع الاحداث، عبر عين واقعية وليست عين سينمائية، وهي تقانة تُحسب للكاتب، يستدعيها لتوسيع فعل السرد من جانب، ولابراز المستوى السيمائي الذي يقترن بسردنة ثيمة الغياب، وهي ثيمة يعيش رعبها البطل الراوي، من دون أن يتدخل في تغيير مسار الاحداث التي يفقد فيها اولاده، وبكارة ابنته، وصوت زوجته، وصولا الى لحظة المفارقة، وهي لحظة تطهيرية يجعلها الكاتب مجالا بؤريا لتمثيل فكرة البطولة عبر تقويض الخوف، واستيلاد البطولة التي يقوم بها الشباب بوصفهم المنقذين، لتطهير المكان/ المجال السردي من الذئاب، وهي اشارة سيميائية لجماعات العنف والقهر والاغتصاب.

تحويل فعل الاغتصاب الذي يقوم به المجرم نعيم الى فعل ثوري، تطهيري، اقترحه الكاتب كحركة سريعة، لتمثيل صورة القبح والجريمة والدناءة، وقد وظفه الكاتب وكأنه لقطة سينمائية تجسد المعادلة السردية بين الضحية والمجرم، وبقدر ماهي لقطة ايحائية للجريمة، لكنها تنفتح

سرديا على دوائر وتحولات تكشف عن روح الثورة، حيث مواجهة الشر الذي يمثله المغتصب وأبوه وجماعته، فضلا عن كونها لحظة تاريخية يستأنف من خلالها السارد فعل التغيير، والانطلاق الى المستقبل، حيث الانتصار الى قوة الخير، والى بطولة الضحية وهي تجعل من اغتصابها فعلا واقعيا لسردنة الثورة، ولفضح كل مظاهر القبح التي يتقنع بها القتلة.

إن صوت السارد العليم لا يبدو صوتا حياديا، رغم اكتفائه بالمراقبة، لكنه يتموضع داخل البنية السردية بوصفه يمثل رؤية الكاتب الذي جعل من بطله السردي، مسكونا بطاقة الحكي، إذ يتحوّل فعل المراقبة الى تمثيل سردي للزمن، وعلاقته بثيمة الفقد تبدو هي الاقرب الى فعل أن يكون شاهدا على سيرة ذلك الفقد، فالابن الاول يهاجر في التسعينات بسبب الملاحقات الامنية، والابن الثاني تطحنه حرب السلطة العشوائية، والابن الثالث تأكله الحرب الاهلية اغتيالا وتشويها، والابنة تتعرض للاغتصاب، وسلوان الصغير هو لحظة التوهج التي تنطلق معها الثورة، وهي لعبة تقترب من الحكايات القديمة التي تجعل من الابن الأصغر مجالا بؤريا لاستقطاب ولتحريك الاحداث التالية. فتتحول المشاركة بالثورة الى فعل يختلط فيه الواقعي بالسردي، والزمني بالتاريخي، عبر دعوة الابن سلوان للأب ”التحق بنا يا أبي، نحن المنقذين..“.

وهي دعوة تتمثلها تشغيل وظيفة الحافز، وباتجاه اعادة توجيه الفعل السردي، وتحويل البؤرة السردية التي يصطنعها الأب، الى فضاء سردي يشترك فيه الابن والجمهور. ولكي تتحول البنية الحكائية الى بنية خطابية، يصنعها الجيل الجديد، الذي يتجاوز عقدة الأضحوية الى البطولة، وبما يجعل البطل/ الأب أكثر تأهيلا، حكاية جديدة للدخول في اللعبة السردية التي كان فيها مكتفيا بالمراقبة. وليبدو عبر صيغة النداء مستجيبا لتقويض الواقع، ولاستجلاء فعل الثورة والتغيير عبر ما يظهر من قوة ومن فعل له وظيفته في تقويض ظاهر الزمن الى ما يجعله اكثر استفزازا للمشاركة، وللدخول في الثورة وفي التغيير.

تكشف هذه القصة عن هواجس الكاتب الذي عايش التظاهرات الشعبية في بغداد والمدن الاخرى، والتي جعل منها افقا لصياغة سؤال الثورة، وللرغبة في الاحتجاج والرفض ومواجهة القهر، والتي وظفها سرديا كثيمة اطارية لشخصيات واقعية، تعيش استلاب الخراب السياسي، مثلما تتلبس اقنعة الشخصيات الأضحوية، بوصفهم شهودا على حروب دامية، وعلى تاريخ مسكون بالعنف والكراهية والاغتصاب، وأنْ لا حل لأزمة البطل ومحنته النفسية والتاريخية سوى الثورة، بوصفها القوة التعويضية، والشفرة التي تحمل حدس التغيير، والانطلاق بها عبر شفرة الانقاذ التي ينادي بها الابن ”سلوان“.

*** شاعر وناقد عراقي/ رئيس تحرير جريدة (الصباح)**

القصائد:

رسائلٌ طازجةٌ رغم تأخرِّها

كل هؤلاء المبدعين العراقيين تم نفيهم خارج الوطن بسبب ولائهم للوطن!

د. نعمت خلات *

1

الكوكب حمزة

وأنت في منفاك
مازلتَ تُدوزنُ أوتارَ الوطن
كي يبيضَ الرصدُ وجعَه عشّاً
لطيورِك الطائرة[1]
التي خانها وخانك الصدى المرتجى
من أواوينِ معشوقيكما
طيورُك يا سابعَ الأوتار
مذ لم تَتسعْها أحزانُ حقائبِك
ليلةَ النزيفِ الأخير
مازالتْ هائمةً على وجهِ وَكرٍ
ولم تورقْ لها (قافُ) معبودِك
غصنَ مطار
وسماجةُ نشازٍ كان ..
ادعاءَ حضنٍ كلِّ الأشجار
خارجُ الإيقاعِ الأعرجِ انت يا صاحبي
منذ أولِ صرخةِ (لا) قالتْها ريشتُك
لرطوبةِ أقبيةِ الطواغيت
ومنذ أن قُذفتَ ملفوفاً بنوتاتِك
على بُعدِ حسرتين وغصةٍ
كأيةِ علكةٍ ممضوغةٍ
خارجَ حدودِ قلبِك

2

ذياب كزار (أبو سرحان)

باعَك الوطنُ .. نعم باعَكَ
ومَهرُك كان حفنةَ حنطةٍ[2]

لم يحبلْ بها آذار السنابلِ رغيفاً ..
لأمعاءِ تنانيرِ الجياع
وما ذرتْها أكفُّ الطواحينِ دقيقاً
في جعبةِ ريح
تحت أية أرزةٍ يا طولَ النايل[3]
يختزنُك بلحُ مطرِك
وقرب أية صخرةٍ
تكتنزُ سمارَك طراوةُ حباتِ الهيل
ألا أيها اللاقبرَ ..
كفاك تواطؤاً مع سفالةِ لثامِ المفارز
كفاك مهادنةً لخناثةِ عصاباتِ العيون
أرعد للغيماتِ ما استطعتَ من نخيل
أبرق للقصائدِ ما تيسرَ من بردي
أفصحْ لحجارةِ الوديانِ، لعيونِ الغزالاتِ
لدروبِ الرعاةِ ولتلعثمِ خطواتِ العشاق
قل لهم قل
طولُهُ بحةُ موالٍ يعتمرُ آهَ عتابةٍ
وعيناهُ بلحتان بصريتان تواقتان للنضجِ
صوتُه وشوشةُ قهوةٍ
في أذنِ فنجانٍ عاشقٍ لشفاهِ الدِلالِ
ومشيتُه رجيفُ خلخالٍ
يتهادى على حياءِ حنةِ عروس
قل لهم ..
هو طفلٌ شاخَ قبل أوانِه
وماتَ نذراً دونما عنوانٍ
على بريدِ مائدةِ السماء

3

الفؤاد سالم

هل أدركتَ أم بعد؟
أن حماقةَ الأوطانِ هي أكبرُ الحماقات
ورغم ذلك نعشقُها
ونعاودُ جَذلين ارتكابها
مهما كان الثمنُ باهضَ الألم
ومهما كانت ذبّاحةٌ توقعاتُ النهايات
كنوبةِ سعالٍ لا مناصَ من نبذِها
سعلتْكَ حنجرةُ الدروبِ
وخارجَ جيوبِ الوطنِ كلّها
رمتْكَ أكفُّ المناديلِ
وها أنت ذا كصوتِك

الذي يشبُهكَ كثيراً
تحاولان التغريدَ في سربٍ
سُلِبَ منذ أول تكشيرة قفصٍ
حاسةَ الطيرانِ
تلوككما شهيةَ محمومةً للتحليق
فينزلق عزم أجنحتكما
على تواطؤ اللافضاء
قد قالوا يا رفيفَ الهُندباء
أن تصل متأخراً خيرٌ من ألاّ تصل
فما عساها أن ترممَ فرحةُ آخرِ الأمتار
من ماراثونِ الجراح
وكيف لأسنان ممحاةٍ عجوز منازلةَ
حشودَ الخيبات وترسانة الانكسارات
ونزيف العمر عمره ما اكترث
لعكاز جبيرة تعتكز آمالها
على اهتراء رُقَعِ الابتسامات
هرمَتْ طَرّقاتُك على باب الوطن
والوطن شاخَ سمعه
وأشدُّ الوجع .. نعم أشدّه
أن تعيش وأن تموت
غريباً في دارك

4

البصري حميد

عودُك مازال يدندن جماله
وصنمه ..
سقطَ مغشياً على قشِ قضبانه
وما من شفاعةٍ متزلفةٍ ربتتْ
على ظهرِ جُحره
ولا نالتْ نوطَ شجاعةٍ
سواترُ قَمل اللحية المنافقة
التاريخ يقولُ يا تمرةَ النغمِ
الأصنامُ تسقط ، نعم تسقطَ
وكذلك لا يمكنها الكذب
تلك الأوتار التي شُدَّ عمودها الفقري
ماشاء لها من نفس
في رئاتِ بيادرِ خيرك[4]
حيث سمار الحناء انتثر شاماتً
على خدود الدفوف
وحيث القمحة الأولى
في سلة شبعاد[5]
تُسرحُ شَعرَ اللحن

على وسائد شط العرب
فارشةً صدرَها قيثارةً
لأناملِ قُبَلِ المطر

في صرة الجدّات
ضجّتْ كمنجاتُ جنياتِها
سلسبيلَ حريةٍ وقوتَ فقراءٍ
تهادتْ على بطونِ الجياعِ
مرجوحةً محملةً بالاحلامِ
وكرغيفٍ قريبٍ ، بعيدٍ ، ومشاعٍ
مثل القمر
سيدة الأوتارِ ورحمِها
كل النغمات تتدثر بملاءات صوتك
فما باله هذا الوطن
حينما تبرقع كغانية رخيصة
بالحواجز الكونكريتية
وترك شبابيكَ عورتِه مباحة
لزناةِ وضحِ النهارِ

5

شوقية العطار

نايٌ، غَمامةٌ، رذاذُ فجرٍ
وكبرياءُ رُقمٍ سومري
دندنوا روحَهم
فكانت حنجرةٌ مداها وطن
ضرعُها ضرعُ أُمٍ
ما فَطمَ يوماً أغنيةً
ولا شَحَّتْ بحليبها عن فمِ لحن

---

* **بعشيقة**

الهوامش:

1 - من وحي أغنية ياطيور الطايرة التي هي من ألحان
2 - من وحي أغنية (لا لا لول لوة) للشاعر أبي سرحان.
3 - مستلهمة من إحدى قصائد الشاعر.
4 - نسبةً إلى اوبريت(بيادر الخير) .
-5 شبعاد: الملكة السومرية التي وجدت في قبرها قيثارة سومر الذهبية الشهيرة .

رسائل أم قصائد؟

عباس عبد جاسم *

منذ البدء اوجه عناية الشاعر نعمت خلات، وقبل ذلك القارئ، بأن ليس لدينا أي تأويل يسبق هذه القصائد أو يليها مباشرة، لأننا إزاء استذكارات، إن لم نقل تذكارات لمبدعين تعرّضوا لحالات من الوعي المعذّب بالغربة والنفي. وقد قام الشاعر بتحرير هؤلاء المبدعين من مطبق المحبوس، بعد أن وضع القضبان وراءهم، ولم يكتفِ بخضخضة ترسبات الالم في قاع الذاكرة، انما أعاد تعريف مرارة الواقع بجماليات الحياة، وانتقد الأسى بسخرية سوداء، ليشذب التاريخ من الاكاذيب بأوجاع الغناء.

إن "كوكب حمزة وذياب كرار أبو سرحان وفؤاد سالم والبصري حميد وشوقية العطار"، ليست مجرد أسماء تظهر من قاع الذاكرة لتختفي منها، انما هي أسماء صاغت الكثير من أحلام الفقراء، بل امتدّت أصواتهم أفقيا وعموديا لتمثل فضاءات من ضاق بهم الفضاء بدلالة (الطيور الطائرة) أو ما يسميها الشاعر(بحاسة الطيران)، وأدوات الغناء (طول الناي وبحة الموّال والعود والناي)، أي الاحساس بالبحث عن الوطن، ومقاومة قهر الذات، ومغالبة الواقع، وبذا كان الوطن مركز مدار أوجاع الغناء:

• كوكب حمزة (وأنت في منفاك) .

• ذياب كزار أبو سرحان: (باعك الوطن .. نعم باعك).

• فؤاد سالم: (وأشدّ الوجع: نعم أشدّه – أن تعيش وأن تموت).

• البصري حميد: (عودكَ ما زال يدندن جماله).

• شوقية العطار: (فما باله هذا الوطن – حينما تبرقع كغانية رخيصة/ بالحواجز الكونكريتية/ وترك شبابيك عورته مباحة/ لزناة وضح النهار).

إن هذه القصائد لا تقوم بتحيين هذه الأسماء الأكثر شعبية من بيننا، كما لم تقم باستدعائهم كدلالة حافة للواقع المعاش، وانما تقوم باستعادة الوعي باسمائهم كحيوات متجدِّدة بأعطاب إنسانية أكثر تمثلاً لجدل الذات مع الواقع.

وعلى الرغم من الحساسية الشعبية المحكومة بـ(شعرنة البساطة) في الكتابة الشعرية والمضافة إليها (آل) التفخيم، الذي يسبق كوكب حمزة وفؤاد سالم، والى حد ما البصري حميد، فإننا إزاء "رقش شعبي" مندغم بلغة شعرية.

وإن كانت البساطة التي نعنيها جزءا من شعرية القصائد ومبناها ، فإن الجملة التي افتتح بها الشاعر هذه القصائد جاءت بصيغة مباشرة تماما: "كل هؤلاء المبدعين العراقيين تم نفيهم خارج الوطن بسبب ولائهم للوطن"!

وكأن لا أحد يعرف منفى هؤلاء المبدعين!

وما يعنينا أكثر: أهي قصائد أم رسائل؟

رغم ان القصائد قائمة على انها "رسائل طازجة رغم تأخرها"، فهي لا تحمل تقنية الرسائل، ولكنها تسعى الى تمرير البث الرسالي بحساسية شعرية شعبية قائمة على التناص بتداخل واع مع أغان وألحان شعبية ما يزال لها بصمة في صياغة الذائقة الشعبية، منها أغنية "ياطيور الطايرة" من لحن كوكب حمزة، وأغنية "لالال لوة" للشاعر أبي سرحان، وأوبريت "بيادر الخير" من لحن وموسيقى حميد البصري.

* قاص وناقد عراقي– رئيس تحرير جريدة الاديب الثقافية

الحضور الديني في المسرح الصيني عرض أوبرا بكين أنموذجا

د. محمد سيف / باريس - خاص *



امتلكت بعض العروض الآسيوية التي قدمت على المسرح الغربي، أصالة صعبة المنال أو البلوغ، كما في مسرح (النو)، والكابوكي، و(أوبرا بكين) ومسرح (الكتاكالي) الهندي العريق، في حين لجأ البعض الآخر منها إلى أسلوب (إغواء الجمهور الغربي عن طريق طرح حلول توفيقيةٍ نسبياً، تحمل إشاراتٍ تَحُطّ من قيمة الأصل وتقلل من مستواه. وقد تميزت المسارح الشرقية، سواء كانت هندية، صينية، يابانية أو إندونيسية، بتطرفها الزخرفي الأنيق. ويُمثّل الفعل المسرحي فيها، من غير ما ديكور، وعلى مسرح عار. وتكاد تكون جميع أنواع التعبير التمثيلي فيها مقننة، وخاضعة لنظام منطقي معقلن: الحركات، الأداء الصامت، الملابس. ففي المسرح السنسكريتي الذي كان كل ما فيه رمزيا، تحمل الحركات لغة صامتة احتفظت

بها التقاليد القديمة، وتشير الأزياء التي ترتديها الشخصيات إلى معلومات وتفاصيل دقيقة. في حين أن التمثيل في المســـرح الصيني مقنن بالعديد من الصيغ المحفوظة عن ظهر قلب. ويوجد فيه، على سبيل المثال، خمسون صيغة معروفة مسبقا لحركة اليدين، ثلاثون طريقة مختلفة للضحك وعدد لا يحصى من القواعد والأساليب الخاصة بحركة السيقان، الأقدام، الرأس، الجسد، وكذلك بالنسبة للصوت والإلقاء والغناء. إن الحركة المسرحية نفسها أنيقة، لأنها خارجة من معطف الرقص القديم. و"إذا قام الممثل بدوره على المسرح، فهذا يعني، انه قد غير مكانه وإذا قام بالعديد من الدورات، فهذا يدل على انه قد قام برحلة طويلة". وهنا نلاحظ سريعا، مدى الأهمية الكبيرة التي يمكن ان نستخلصها أو نستنتجها من الهند والصين بوصفها حضارتين قديمتين. فالتأثير الأفقي لهاتين الحضارتين، والذي نجده في مراحل معينة من تاريخهما، قد امتزج بما هو حديث، يرتكز على حضاراتٍ مختلفة أنتجت لنا تأثيراتٍ متداخلةً ومتنوعةً.

على الرغم من (Roger Darrobers)، الذي يشير في كتابه (المسرح الصيني)، إلى أن "المسرح الصيني ليست له أية جذور دينية، وفي الحقيقة فإن آثار هذه الأصول ممسوحةٌ تقريبا، وإنَّ هدفه كان منذ النشأة الأولى تشويقياً أكثرَ من كونه تثقيفياً". فهذا لا يمنع من أننا نقف مندهشين أمام الحضور الديني في هذا المسرح الصيني التقليدي، ونكاد نُصْدَم، منذ الوهلة الأولى، بتكنيك الممثل والميزة التي يمكن أن تستفيد من براعته في الاتفاقيات المسرحية. لقد اعتمد المسرح الصيني دائما على الفنون الأخرى: الموسيقى، الغناء، الرقص والبانتوميم. واقترن بشكل خاص، بنوع من الحميمية بالفعل المسرحي ذي ألاعيب البهلوانية، وبباليه المعارك، والمبارزة، وفي بعض فقرات السيرك.

• أوبرا بكين

لقد أتاح لنا مهرجان قرطاج المسرحي في دورته لعام 1999، فرصة مشاهدة (أوبرا بكين) الأكثر شهرة وشعبية في تاريخ الأوبرا العالمية. ولدت هذه الأوبرا في نهاية القرن الثامن عشر. عدت من قبل الصينيين تراثا ومكسبا وطنيا يدعو للافتخار، مثلما تعد بالنسبة لهم الشكل المسرحي التقليدي الرئيسي اليوم كما هو من قبل. ونحن نشاهد عرض (أوبرا بكين) اكتشفنا أنه يشبه إلى حد كبير الصينيين في حركاتهم وانضباطهم ودقتهم. فقد اعتمد أسلوب العرض وتعبيراته الجمالية بشكل عام على الغناء والحوار والحركات القتالية.. بحيث جاءت أغاني العرض مضبوطة ومموسقة بدقة لخضوعها لمقاييس موسيقية صينية رصينة. وقد تضمنت المعزوفة الواحدة، على سبيل المثال، العديد من التلوينات الموسيقية التي رافقت الأحداث الدرامية ومناخاتها في إيقاعات تراوحت بين اللحن الهادئ والعالي، وأحيانا الصامت تماما، وفقا للجو العام للحدث وتسلسله.

تأسس التمثيل في هذا العرض على الممثل وكيفية تطويعه لجسمه في سلسلة



من الحركات البلاستيكية المحسوبة وفقا لمعايير درامية ليس فيها ما هو زائد أو ناقص، بحيث استطاع الجسد أن يتكلم ويعبر عن نفسه بلغات جمالية مؤثرة، لا نعتقد أن بإمكان اللغة تحقيقها. ولقد كشف العرض للمسرحيين العرب بأن المسرح ليس مجرد كلام يقال بطريقة أدائية مفخمة وإنما هو أيضا حركة، بل إن الحركة فيه يمكن أن تكون أبلغ من حيث التوصيل. ومن خلال الألوان والأقنعة، استطاع المتفرج أن يميز بين الشخصيات ومكانتها الاجتماعية والسياسية ويتعرف على صفاتها وسلوكياتها. فاللون الأحمر، مثلا، يرمز في العادة لدى الصينيين إلى الشجاعة والشرف، في حين أن اللون الأبيض يرمز إلى الحيلة والمكر والدهاء، واللون الأسود يرمز إلى القوة والصدق. أما اللون الذهبي والفضي فهما خاصان في تصوير كل ما هو سماوي وحيواني ووحشي وغيره من الكائنات التي ليست بالضرورة بشرية. ولقد استخدم الماكياج للتمييز بين الشخصيات المختلفة، واشتمل على فئتين رئيسيتين:

الوجوه الطبيعية والوجوه المتمكيجة. الفئة الأولى، تحافظ على مظهر الشخصيات المعتدلة والجيدة، سواء كانت شابة أم كبيرة في السن. أما الفئة الثانية، فهي تخص الشخصيات ذات الطابع العنيف. وهذه الشخصيات لها مكياجها الذي يميزها اللون والرسومات. ويوجد بين هذه الفئة الثانية، الوجوه الصغيرة المرسومة، والتي تمثل الشخصيات المرحة وذات الدعابة الساخرة.

فضلاً عن الماكياج حيث كانت هناك الأزياء.. والأزياء في المسرح الصيني الكلاسيكي لا تمثل أبدا لغة العصر ولا تشير

إليه، مثلما هو متعارف عليه في المسرح الغربي. وإنما هي موجودة من أجل الكشف عن الطبيعة الاجتماعية وسمات الشخصية، ومن خلالها يمكن أن يميز الجمهور بين الشخصية الصينية البربرية والشخصيات المتمدنة العسكرية، والأغنياء والفقراء، والصالح والطالح وبين الشيخ والشاب، وإلى آخره.

إن المسرح الكلاسيكي الصيني، هو فن التوليف، يجمع بين الموسيقى، الرقص، والغناء، والسيرك. الرمزية فيه، تشكل أساسا جوهريا للوسائل التعبيرية المستعملة في هذا المسرح الذي يتجاوز الواقعية، وخاصة في الإكسسوارات، أي أنه يستخدم دائما جزءاً بسيطاً من مادة ما لأجل تقديم وعرض الكل، مثلا، يكتفي بوضع عجلة مرسومة على المسرح للإشارة إلى عربة قد جرها شخص ما، أو عاصفة مرسومة يكفي للإشارة إلى عاصفة، وإلى آخره من الرموز المقتضبة.

الموسيقى في هذا العرض، كانت بمثابة هدف سام بحد ذاته، وكل شيء فيه قد مرَّ عبرها لكي يخلق انطباعا رائعا من الجمال. واللحن الموسيقي فيه يعبر عن حالة شعورية وعاطفية. بحيث كانت الموسيقى تصدح لكي تعمق لدى المتفرج بعض المشاعر والانطباعات الدقيقة. أما المقاطع الحوارية فكانت تتأرجح بين أن تكون مغناة وبين أن تكون منطوقة وتؤدى على هيئة كلام. فضلاً عن ذلك، أن الأصوات المستعملة في الأداء لم تكن طبيعية أبدا، إذ كانت تحتوي على نبرات قوية كثيرة التنوع وعلى إيقاعات مختلفة تعبر عن حالات عاطفية عالية مكثفة. كانت هذه المقاطع الحوارية مرتبطة بشكل كلي بالغناء وبالرمزية في آن واحد. أما الحركات، فقد كانت ملفتة للنظر، وليس هناك واحدة منها لم تكن غير راقصة. كانت حركات الأيادي والأجساد تنقل لنا المشاعر والأحاسيس بطريقة بلاستيكية بصرية، وتشير إلى الأفعال المختلفة بهارمونية إيحائية غاية في الدقة. إنها تختلف عن حركات الحياة اليومية تماما، وإن المسرح قد أعطاها معنا وبعدا رمزيا وجماليا خاصا، يحاكي واقعا غائبا، لاسيما ان المسرح كان مجردا تقريبا، والممثل فيه هو الذي يستحضر كل الأفعال من خلال فن الإيماءة، مثل، عملية فتح الباب، أو تسلق السلالم، النظر إلى أسفل من سطح عال، وشق الأحراش في غابة كثيفة الأشجار، وإلى آخره من الأفعال التي تتطلب دقة عالية في أداء التمثيل الصامت. وهذا كله يُظهر لنا، أن المسرح الصيني يمتلك أسلوبا رمزيا يتجاوز الواقعية بكثير. وهو يلجأ إلى المبالغة من أجل جعل الشخصيات أكثر فعالية، وكأن الشيء الوحيد الصحيح فيه هو المبالغة، مثلما يقول أدرنو، ولكي يضع مسافة ما بينه وما بين المتفرج، وهذا في اعتقادنا، هدف من أهدافه الرئيسية، التي تجعل الممثل الواقف على خشبته يرجع خطوة إلى الوراء لكي يتأمل ما يحدث أمامه وألا ينسى أبدا بأنه داخل مسرح.

*** باحث واكاديمي ومخرج مسرحي عراقي يقيم في باريس**

ذاكرة الأمكنة في لوحات الرسم

د. بلاسم محمد *

كان صباحاً مغبّراً من شباط يوم ولدت، هكذا حكت لي جدتي قصة لا أعرف أسرارها حتى اليوم، لم افهم إلى الحين أن في غرس حياتي شيئاً ينمو سَميّتهُ الطموح.



تركة ثقيلة من ذاكرة الزمن، ضرب جدار عزها موج القحط، فأصبحت كمن نشأ صدفة حملها الوجود إلى عالم الأسرار هذا لأكون الشاهد عليها. ...أنا وحدي، مرافقاً لهذه الرحلة الطويلة في منطقة لا يعرفها إلا الله وأنا، فحالفني الحظ أن اكتشف السر من خلال التأمل، فهو وسيلتي الوحيدة في الخلاص. لقد نشأت هكذا أو بمعنى آخر لم أشأ أن أغير شيئاً مكتوباً كما يقولون في حكاياتنا الشعبية، أنها حكاية طويلة كانت بدايتها حين دخلت مدرسة ابن حيان الابتدائية في مدينة الكوفة.. لم يكن للرسم في البيئة العامة وجود.. ولذلك مارست الخط العربي والرسم هاويا.. ارسم بالطباشير على ابواب الخانات.. ولم يكن الامر مقبولا آنذاك، وسبب لي الكثير من المشاكل داخل المدينة..

بعد ذلك انتقلت الى الدراسة المتوسطة وكان الاستاذ المرحوم محمد حسين جودي قد دفعني بالتشجيع ولأول مرة لاقامة سلسلة من الرسوم البيئية للبيوت والمناظر الطبيعية.. وعرفت فيما بعد ان للبيئة وجودا في ذاكرتي الى الآن، مع كل خصائصها واشكالها.. ثم انتقلت الى معهد الفنون الجميلة خمس سنوات وكانت تجربة اسست للفن الحقيقي سواء في الرسم الواقعي ام التعبيري، حين درسني اساتذة الفن العراقي المعروفون، والاكثر حضورا في المشهد التشكيلي. وصار التنوع التشكيلي يأخذ مداه في التصميم الصحفي والخط العربي والرسم معا.. فعملت في مجلتي والمزمار رساما ومصمما وخطاطا.. اكثر من عشرين عاما، وفي الصحافة العراقية بعد ذلك.. الف باء والتراث الشعبي والاقلام والمورد وجريدة الجمهورية والعراق وغيرها الكثير.. وكانت الحصيلة ان رسمت مئات اللوحات ووضعت شعارات المصارف والشركات والبطاقة

الوطنية الموحدة في جيوب العراقيين وملأت الاسواق بتصميم العلب والمواد وغيرها.

في كلية الفنون الجميلة.. كانت التجربة اكثر نضجا. تعلمت خلالها الدرس النظري وادواته الثقافية في تاريخ الفن والنقد، واطلعت على المدارس الفنية المعاصرة. وبدأت مشاركاتي في المعارض الفنية في العراق وخارجه.

وهكذا صار الفن الجزء الرئيس في حياتي وتفكيري النظري، فكتبت في الفنون الاسلامية رسالة الماجستير، ومن ثم دراستي للدكتوراه في النقد السيميائي.. هذه الرحلة لابد انها اثرت في تكويني الفني، فقد شاركت في عديد المعارض الدولية وحصدت جوائز كثيرة، واقمت سلسلة من المعارض خارج العراق. انها سيرة طويلة، احببت فيها هذا العالم الذي اسمه الفن. وبالتأكيد تأثرت بأساتذتي في بداية المشوار. اولهم الفنان الكبير محمد مهر الدين، ثم رافع الناصري. بعدها بالأستاذ فائق حسن. وكل له اسلوبه في الفن. لكن تبلورت طريقتي بعد رحلة من البحث في الفن العالمي، ولما سمي باتجاهات ما بعد الحداثة. كنت معجبا بالفنان الاسباني تابيس، والامريكي روشنبيرغ. لكني لا انتمي الى مدرسة بعينها، سوى ملامسة الروح الانسانية واشكالاتها، لذلك فان التعبيرية الخيالية جزء من تفكيري وانتاجي رغم خصوصية اسلوبي الفني. فقد شاركت في اغلب معارض الفن العراقي في الداخل والخارج. في تركيا والهند وباريس ولندن ونيويورك ودبي والمانيا والاردن وبيروت والمغرب وغيرها.. كما اقمت سلسلة من المعارض الشخصية في داخل البلد وخارجه. وكان الهاجس النظري له حضوره في طريقة تفكيري بالفن ودراسة المكان الذي شكل بحد ذاته النظام العلامي والاستعاري والاسلوبي الذي حدد هويتي. لكن واحدة من اكثر الفاعلية في حياتي هو المحيط الخارجي الذي صدمني بجدار من التوجع، حينما كنت اراقبه لتسجيل ذاكرة فردية محمولة على الوثائق، الحقيقية منها والمزيفة. لكن ثمة توجه الى الداخل، انه بحث متجدد في العالم الفردي ورموزه.. يقظته وحلمه يمكن أن نسميه مونولوجاً وجدلاً داخليا. لان الداخل نفسه مؤسلب مترع بالمزاعم ووجهات النظر والثقافيات والآراء والتجارب الشخصية.

ففي هذا المناخ، او ما يمكن أن نصطلح عليه بالخصوصية الاسلوبية في اعمالي، كان هناك نسق ظاهر ونسق غائب ومختزل للمعاني الثابتة في وجدان الناس الذين يريدون فهم ما يجري. فاللوحة التشكيلية عندي تنشطر حال رؤيتها إلى لوحتين لوحة مرسومة ولوحة مكتوبة. اللوحة المرسومة تحاول انجاز لعبة التركيب الجمالي. وتحاول الأخرى مقاربة الموضوع ورسم ظل الاشياء وليس الاشياء نفسها، حين يصبح العالم بأجمعه امامي عالماً



ضبابياً، وأن التصوير هو انجاز الظل المتخفي وراء الضباب. و في ضوء ذلك أستطيع القول اني رسمت كل شيء في الواقع القائم على ثلاث حروب دامية، مرت بالعراق، وملأت ذاكرتي بآلاف القصص والمشاهد: ذاكرة الحضور المهيمنة على وجداني واعمالي معاً في خروجهما من دائرة الصراع الى فضاء الصراع مع الحرب ذاتها؟

إنها معادلة غريبة كونت هذا الواقع حين يتحول الى ذاكرة، ثم اسطورة ومتحف ووثيقة. فالأول وهو الواقع، والاخير وهو الوثيقة، يكونان علامات ضمنية لها وجود في اللوحة. في حين يتأكد حضور الاسطورة والذاكرة والمحنة الانسانية.

مرة كتبت ورسمت تحت عنوان الادمان على الهرب، فمنذ ان عرفت الفن كنت احمل في داخلي شيئا عن حياتي، اعيد انتاجه في لوحاتي باستمرار.. اهرب من المعلم والبيت والمدرسة لان المحيط الذي ذكرته هو خارج ما افكر فيه. وهربت بعدها من واقع الحرب لأجد مبررا لوجودي، وكان الرسم والتصميم وسيلتي في الحياة. لقد كتب الناقد فاروق سلوم عني يقول:

يرتجل الرسام بلاسم محمد لوحاته كاعتراف يومي بمحنة وجوده. هو القلق، المفكك، المدقق في ما وراء التفصيل، ما وراء السطح. طبيعته النفسية كانسان تنعكس في تدخلاته وكأنها فصول من فضول خلّاق، وفعل مشاكس وجدلي

متجذّر. كأنها تشريح لما يحدث في عتمة المعنى الذي هو محمول لوحاته. وفي كل مرة اكتب عنه، اعاني كثيرا، اعاني بحق لكي افصل بين ما اعرفه عنه وفيه، وما يعرفه عني وفيّ لفرط اقترابنا وعشرتنا لعقود طويلة من العمق والاقتراب. وكل ذلك هو بعض مكونات جدلية علاقتنا الإنسانية الممتدة.

تنوّع وجدان بلاسم محمد ومكوناته، ثقافته وخبرته وتجربته الفنية حين يرسم وحين يحاضر وحين يعتزل في مشغله ليدخن ويرسم بحرية عزلاء، بعيدا عن تأثير اية سلطة، انما هي شبكة من منافي التفكير واللغة والعقل والذكريات والخيال ايضا، منافٍ هي ما وراء كل معاناة ووصف او لغة. امس قرأت ما كتبت عنه قبل عقد تقريبا، وكدت اتوقف عن التفكير بما ينبغي ان اقول ازاء شعرية اللون، غموض المحتوى، متاهة المعنى، الأسلوبية الحرة المكرسة، تفكيره الدائم بالأسلوب الذي يغني تعلقنا الجمالي وانحيازنا بل وانشغالاتنا بفك مروحة من العلاقات والبنى والتقنيات والإحالات داخل لوحته بحيث يعلمنا كيف نعثر في لوحة مفككة على طريقة للتحليل والتذوق والفهم. وكنت دائما اتساءل متى يضع هذا الرسام عنوان لوحته، وتأكد لدي ان ارتجاليات بلاسم محمد هي هذيان ووعي في علاقة تعبيريه حُرة، تكرس الحركة داخل اللوحة اولا، ثم تبلغ اللغة في اللحظة الأخيرة ليولد المعنى او يولد العنوان. ولكي انجو من تداخل الطرق هنا اقتبس من مقالتي القديمة بعنوان "بلاسم محمد: يوميات الخروج من الرسم" التي نشرت في ثقافية جريدة الزمان عام 2009 ما يدعم فكرتي عن الفنان والإنسان والأكاديمي والمثقف الدكتور الصديق بلاسم محمد: "ومنذ وقت وهو يرسم - يريق بنظام تدويني مشفّر يومياته التشكيلية على خامات متنوعة، وبهذه الطريقة المتعددة الوجوه، يضعني بلاسم محمد امام خيارين: الخروج من الكتابة.. او الإعلان انه مع كل عمل تشكيلي يقرر الخروج من الرسم...".

* **باحث واكاديمي/ استاذ في كلية الفنون الجميلة - بغداد**

مكاشفات الصحو ..

ريسان الخزعلي



الأغنية الصامتة

الوردةُ
أغنيةٌ صامته
مَن منحَ العطرَ ..،
هذه الموسيقى وهذا الجناح ..؟

جلسة روبسبير

مَن أشارَ على/ روبسبير كومونة/
أنْ يختارَ الجهةَ اليسرى من القاعة ..؟
لا أعرفُ ..
إنْ كانَ الرجلُ يجهلُ في الميراثِ ..،
لقد أورثنا عقدةَ الحبلِ في المشنقة ..؟!

تغريدة كَلكَامش الأخيرة

هوَ الذي رأى.
....
لقد أوهموكَ ،
فما من عشبةٍ تغلبُ الموتَ ياكَلكَامش.
/ أنكيدو/ ضحيةُ اللعبةِ ..،
و/ سيدوري/ علّةُ التأويلِ ..،
أنتَ لم ترَ هيَ التي رأتْ ..!
فمنْ دلّها على يقينٍ يجهلهُ الكهنةُ والملوك ..؟

....

(الأسطرُ الأربعةُ الأخيرةُ مخرومةٌ من التغريدة)
والسيدُ/ طه باقر/ ما كانَ على وفاقٍ معَ
TWITTER

لوركا الجديد

لا خُضرةَ الآنَ على الطريق

لا غجراً ينتظرونَ المساء.

القمرُ

الليلةَ

ضيفٌ عليل.

.....،

مَن يفتحُ البابَ إلى إسبانِيا

والفرسُ السوداءُ ..،

لم تحملْ سوى فارسها القتيل ..؟

سكّين

لا تتعب

يا أرقَ الليلةِ لا تتعب

فأنا سكّينٌ في هذي اللعبة.

لا أقطعُ شيئاً غيركَ ..،

لكنّي قد أقطعُ أوردتي ....

مَا تَناهَبَ مِنْ ظِلَالِ القُرَى

نَصيرُ الشَّيخ



1

لا بَهجةٌ لِلحقُولِ حِينَ استدارَ وَجْهُ الأُمّ
عَنْ تَنورِ خُبزِها قُبَيلَ ظَهيرةٍ عَابــــرةٍ.
قَريّةٌ..
دُوْنَ القُرى ظَلّتْ مُرابطةً لِحُزنٍ يَنهشُ مِنها
التّواريخَ والأفئدةَ .
أرَى النّخلَ اِستطالَ صَمتاً،
وقَشّرَ غُربتَهُ السّعفُ حِينَ أُودعُ خُضرتَهُ
لِضفافِ نَهرٍ مُوحِلٍ،
صَمتُها يَكسِرُ نأيَ النَّاياتِ لِمساءٍ ثَقيلْ
وصَوتُ الغَريبِ العَاشقِ نَجمتَها يُخْرِسُ
عِندَ وسَاوسِها..

2

تِلكَ القَريةُ رَاودتنَا عَنْ طُفولةٍ وَطينٍ
وَقَصبٍ تَنخرُ فيهِ الرِّيحُ،
صَباحُها صِياحُ دِيكةٍ،
نَشيدٌ بَائسٌ لِتلاميذَ عُرَاةٍ،
وَرايةٌ مُلطّخةُ النّسيانِ أعلى صُفوفِ
مَدرستِها،
طَباشيرُ مَعجونٌ بالفقرِ يُدوِّنُ أوجاعَها،
وسَبورةٌ كَسماءٍ غَائمةٍ كَتَبَتْ مَصائرَ
أبنائِها،
لِدُروبٍ مُوحلة،
ومدائنَ تَعشقُ غُربتَها،
وقِطاراتِ حُروبٍ آكِلةٍ دُهورَها.
قَريَةٌ..
أُودعتْ فِينا سِرّ الأرضِ،
ولَطخُ أجسادِنا مِنها مِلحُ الرُّؤيا.
كَمْ طَائرا مَرّ بِسمائِها،
لَمْ يَترُكْ أثَراً على سُطوحِ صَرائِفها..
وَكَمْ غَريباً عَاودهُ شَجنٌ مُمضٌ لِحُجُولِ
نِسائها،

أودَعَتهُ الوشاياتُ مُوعداً قُربَ الخَرائبِ...
وَكمْ مُنادٍ جَهرَ بحروفِ القِراءةِ الخُلدونيةِ
اِستراحَ عَلى بَيدرِحنطتِها المُتيبسِ،
وَبُحَ مِنهُ نشيدُ البلادِ البَعيدةِ،
وَنالَ مِن قَصبِ أكواخِها صَليباً يَجرحُهُ،
والبَذاءاتُ خَلفَ بِنطالهِ مَساميرُ يَسُوعَ ...

3

تِلكَ القَريَةُ نَائيةٌ جَوارحُها،
وَدروبُها لِلعابرينَ صُكوكُ انتِظارِ،
عَلى يَاقاتِهم زَمنُ دَبِقٌ يَجلدُ فِيهم شَبقَ السّعفِ،
مِن كَوانينهَا عِندَ العَشيةِ،
يَستعرُ المَاضي حِكاياتٍ عِندَ المُوقدْ
والغِربانُ المُتناثرةُ تَتخاطفُ أشجَارا ظَلّتْ مَساءاتِها..
لا جَنةُ عَدنٍ هُناكَ ....
تِلكَ « أطوافُها» بِالطينِ مُدافةٌ ومُتَبَلِّةٌ بالحُزنِ ومُصغيةٌ لِمواويلَ شَاردةٍ..
تَخفي صَهيلَ فَرَسٍ عَسّرَتْ بوليدِها قَبلَ الفَجرِ،
وَهَسيسُ عروسينِ تَمدّدا عَلى قُطنِ فِراشٍ صاحَبُهُ هَمسٌ غَجريٌ مُنقّعٌ بِالشّهوةِ عَلى اِستحياءٍ
غَابتْ عَنهُ شَمسٌ وَحِيدةٌ ...

4

فَيا لِلغَريبِ بِها..
لَو جَنّ لَيلُهُ ...
مُوقِدُ شَاي تَناثرَ جَمرُهُ،
نَفَسٌ أخاذٌ لِتبغٍ يُحاصِرُ وحدتَهُ،
وَتُخومُ الدّهشةِ تَطوي المَسافةُ مِن ظِلهِ..
لَيلٌ طَويلٌ كبحرٍ مُتدارِكٍ،
أطفأَ مِنها نُجُوماً عَاودتِ السّهر خَلفَ صَرائِفِها،
واختَطفَ مِنْ خَاصرَةِ مَائِها قَمراً..
تِلكَ الشّاسعةُ الحُزنَ،
القَابضةُ عَلى الأزمنةِ الأبديةَ جَمرَاً..
تَهالكَ خَطوُ مُريديكَ،
وَشُحّتْ مِنكَ جُرُوفُ المَاءِ،
استوحشَ فِيكِ الطّيرُ وَوَشّحَكِ الدّهرُ بُرْدَتَهُ !!
يَا لِتلكَ السّابحةُ بِسَرابِها،
غَابتْ عَنّي زَماناً نَخلاتُها الخَمسُ
وتَأبَطأ مِنها النهارُ سَبخةَ أهليها،
وَاستدارَ السّاعةَ قَبلَ الغِيابِ
وَجهَاً كَعُرجُونِ وَطَنٍ قَتيلٍ
يُوقدُ تَنّورَ خُبزِ الجِياعِ قُبَيلَ الظّهيرةِ !!

قصائد قصيرة

الشاعر الامريكي ريتشارد غاري بروتيغان
ترجمة: سوران محمد/ دبلوم ترجمة

1

خشب

سنشيب في الظلام كالخشب
وسنشاهد أشباحنا حين يتغيرون
ملابسهم
كالألواح والطاولات
لغرض ما، يمكن أن يوصف هذا
بالخشب.

2

مرثات الأرملة

ليس الجو باردا بما يكفي
لأقترض بعض الحطب
من الجيران

3

لو مت من قبلك

عندما
تستيقظ
من الموت،
ستجد نفسك
بين ذراعي،
و
سأقبلك،
و
أنا
أبكي

4

ثقب نجمة

أجلس هنا
على الحافة المثالية
لنجمة، أشاهد الضوء
ينهمر علي.

5

طريق مسدود

تحدثت اليها بتحية حارة
لكنها تحدثت أفضل مني
بقولها الوداع

6

خوفا ستكون وحدك

خوفا ستكون وحيدا
تفعل أشياء كثيرة
لست انت على الاطلاق

7

كل شيء يشملنا

أفكار يديها
تلمس شعرها
تجعلني اشعر بالتقيؤ

8

حان الوقت لتدريب نفسك

حان الوقت لتدريب نفسك
لتنام وحيدا مرة أخرى
وهذا صعب للغاية.

9

أبريل 1969

أشعر باستياء اليوم
أريد أن أكتب قصيدة.
لا يهمني: أي قصيدة ستكون هذه
القصيدة

10

زيروكس[1] قطعة حلوى

آه،
أنك مجرد نسخة
من جميع قطع الحلوى
التي أكلتها سابقا.

11

رجل

عندما يلبس قبعته
سيبلغ طوله حوالي خمس بوصات-
أطول من سيارة الاجرة

12

مفاجأة

أرفع مقعد المرحاض
تبدو وكأنها عش طائر
وأرى آثار أقدام القطط
حول حافة الوعاء

1) زيروكس؛ الاستنساخ طبق الاصل (Xerox
كما هي شركة عالمية تصنع وتبيع طابعات الالوان والابيض والاسود وآلات التصوير الضوئي.

من هو ريتشارد غاري بروتيغان:

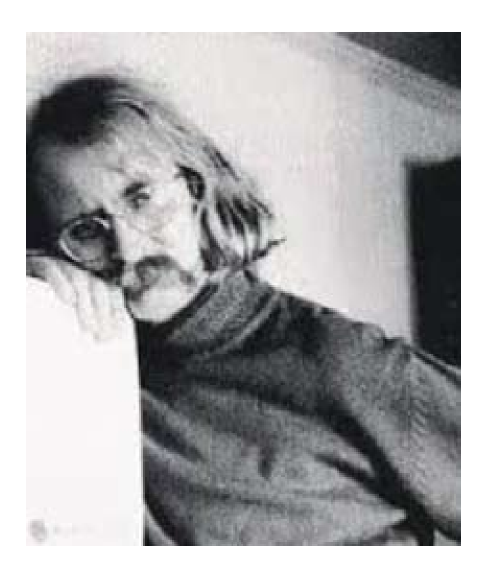
ولد الشاعر في 30 يناير 1935 في مدينة تاكوما، واشنطن، الولايات المتحدة.. بدأ مشواره الادبي في أواسط الخمسينيات للقرن الماضي، كان متأثرا بكتاب كالـ: جاك كيروك، تشارلز بوكوفسكي، إرنست همنغواي، كارلوس وليم كارلوس، له العديد من المؤلفات مابين الشعر والقصة والرواية، من اهم رواياته (صيد سمك سلمون المرقط في أمريكا) 1967.

وقد تميز بأسلوبه الخاص والنادر في الكتابة، حيث كان يمتزج بين الفكاهة والجد لرسم واقع خيالي أو بالأحرى كي ينسى بهذه الطريقة مآسي حياته الشخصية وينتقد الواقع الاليم في نفس الوقت.

كان للبؤس والحرمان والتهميش حضور دائم في حياته وداخل نتاجاته الادبية، ففي عام 1956 على سبيل المثال قام بكسر زجاجة شباك لمركز للشرطة كي يسجنوه حيث سيكون بوسعه الحصول على الاكل اللازم في السجن، لكنه سرعان ما خاب ظنه عندما تم تحويله الى المستشفى النفسي لتلقي علاج الشيزوفرينيا والبارانوي – العلاج بالصدمات الكهربائية آنذاك.

انتهى مشواره الادبي عندما انتحر في بولنيسا، كاليفورنيا في 16 سبتمبر 1984 عن عمر ناهز 49 عاما..

اما بالنسبة لأسلوبه الشعري فهو وليد



اللحظة، حيث تمتاز أكثر كتاباته بالقصر والايجاز، لكن يستعمل مضامين ساخرة كوسيلة للتعامل مع مجريات الامور، وما يدور في محيط الشاعر، خاصة أثناء تداوله مواضيع حساسة ومهمة، فهو لم يكن يأخذ في الحسبان أية قيود تمنعه من كتابة ما يشاء، لذا نراه احيانا يقفز على المعنى ويعبر عمّا في داخله بشكل اعتباطي..

صحيح اننا كقراء لم نتعود على هذا الاسلوب، لكنه عالميا يحظى بشعبية واسعة خاصة من الجيل الصاعد. وله سمعة لا نظير لها مقارنة بكتاب جيله بسبب اسلوبه المتميز في الكتابة، في حين يعد بعض النقاد اعماله بالشطحات ويرون انه لا يلتزم في نصوصه بأية قيود أدبية ولغوية ويستعمل مصطلحات غريبة وصوراً عجيبة نوعا ما..

المصدر:

briefpoems.wordpress.com/tag/richard-brautigan the bowl.

مع الروائي الأمريكي تشارلي كوفمان: أنا مشتت قليلاً وأواجه مشكلة في التركيز

ترجمة وتقديم/ أحمد فاضل

دأبت صحيفة نيويورك تايمز، اللقاء أسبوعيا بأحد الأسماء المؤثرة في الشارع الثقافي الأمريكي والعالمي، لتسأله عن أهم الكتب التي قرأها مؤخراً، والكُتّاب الذين تأثر بهم، واسئلة أخرى ذات فائدة ونفع للقارئ، هذا الأسبوع، التقت الصحيفة بأحد النجوم المؤثرة في الساحتين الثقافية والفنية، هو كاتب السيناريو والمنتج والمخرج والروائي الأمريكي المعروف تشارلي كوفمان لتسأله:

س ـ ما هي الكتب الموجودة على منضدة مكتبك والخاصة بك؟

ج – أنا أعيش في مكان ليس فيه منضدة بصورة مؤقتة، وليس هناك الكثير من الأثاث، أما في غرفة نومي فليس لديَّ سوى كيس نوم ومصباح أرضي، وهناك بعض الكتب بجانبي كنت قد طلبتها لأغراض البحث، أنا أقرأ لتوينبي "دراسة التاريخ"، وكتاب آخر لتسيولكوفسكي، لكنني أواجه مشكلة في التركيز.

س ـ ما هو آخر كتاب رائع قرأته؟

ج ـ من الصعب التذكر، كانت هناك رواية قرأتها قبل بضع سنوات، لا أتذكر عنوانها أو موضوعها، كانت مثل الحلم، رواية فوضوية وعنيفة، لكن التفاصيل فقدتها، وأعتقد أنه كان هناك راو غير موثوق به.

س ـ ما هو كتابك المفضل الذي لم يسمع به أحد آخر؟

ج ـ كيف يمكنني معرفة ما لم يسمع به أحد آخر؟ وهذا يتطلب الكثير مما لدي من الوقت أو الاهتمام في الوقت الحالي. يجب أن أفترض أنه لم يسمع أحد آخر عن رواية "يسوع بكى". أنا متأكد تماماً الآن أن هذا كان العنوان.

س – إذا أقدمت على تنظم حفلة عشاء أدبية، من هم الكُتّاب الثلاثة الأحياء أو الميتين الذين ستدعوهم؟

ج – لطالما أحببت هذا التمرين: حفل العشاء الخيالي! يا لها من متعة! أرى أوسكار وايلد هناك، بالطبع، فولتير، كارول ساروين ماثاو (زوجة ويليام ساروين، والتر ماثاو)، هتلر، إيدي سيتويل، موليير، أوسكار وايلد (ذكي جداً لدرجة أنني فكرت في وضعه في نهاية الطاولة حتى يتمكن الجميع من الاستمتاع بذكرياته؟)، أريستوفانيس، والسير كينيث دوفر.

س ـ ما الموضوعات التي ترغب في أن يكتب عنها المزيد من المؤلفين؟

ج – أخشى أن أكون وحدي في هذه الشقة لفترة طويلة يؤثر سلباً على صحتي العقلية. أتحدث مع نفسي كثيراً الآن، لكني لا أميل إلى الاستماع إلى ما أقوله. أنا مثل زوجين عجوزين. أحياناً أسأل نفسي، هل تستمع؟ وأقول: نعم، بالطبع. ثم ألتقط شيئاً منه، حسناً، ماذا أخبرتك للتو؟ أفترض (عند هذه النقطة أعرف نفسي جيداً، لذا الأمر يستحق التجربة)، لكنني أخرج على الفور من الغرفة، لذلك أعلم أنني كنت مخطئاً، أتمنى أن يكتب شخص ما عن هذا.

س ـ ما الأنواع التي تستمتع بقراءتها بشكل خاص والتي تتجنبها؟

ج ـ الجميع يحب الغموض، بالنسبة اليّ، فإن أفضل هذا النوع هو رواية ‘‘اللغز الياباني‘‘ التي كتبها سيد السريالية كيوساكو يومينو عام 1935، وجدت إيقاظاً لفقدان الذاكرة في عيادة حضرها طبيبان أخبرا مريضهما أنه قتل زوجته. هل يلعب الأطباء لعبة قاسية؟ إنه من المستحيل معرفة ذلك، خاصة في إصدار طبعتها بالإنكليزية، وهذا ما يجعل الكتاب لذيذاً جداً، لأنه يضيف طبقة أخرى من الفهم إلى القصة الغامضة بالفعل.

س ـ ما الكتاب الذي قد يُفاجأ الناس بالعثور عليه على الرفوف الخاصة بك؟

ج ـ ليس لدي رفوف حالياً، لكن السيرة الذاتية لدونالد ترامب يطلق عليها ‘‘أحلام من أبي‘‘، ستوضع حتما في رفوفي القادمة، هو أفضل كتاب قرأته حالياً على الإطلاق، لأنه يلخص الحاضر ببراعة، ففي مفتتحه يقول:



‘‘بعد أيام قليلة من عيد ميلادي الثالث والخمسين كان لدي حفل هائل، بالمناسبة اتصل شخص غريب ليعطيني الأخبار، كنت أعيش في نيويورك في برجي، حيث أخبروني أن هذا البرج هو أجمل مبنى في نيويورك، والكل يريد العيش هناك. يتصلون بي سراً ليخبروني بذلك، لم أكن أعيش هناك فحسب، بل يوجد اسمي على القمة. أنا دونالد جون ترامب، رئيس الولايات المتحدة وهذه هي قصتي. يقع برج ترامب بين الشارع 56 و57 في الجادة الخامسة، وهي الأكثر ثراءً كما يقولون في مدينة نيويورك. إنه رائع جدا، بالقرب من المطاعم الرائعة، والتسوق الرائع، والمتاجر، وسنترال بارك الرائعة.

س ـ هل تفضل الكتب التي تصل إليك عاطفياً أم فكرياً؟

ج – انا آسف، ماذا؟ أنا مشتت قليلاً، أنا متأكد تماماً من أنني ابتلعت سناً للتو.

عن/ صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية


2017
K.H. MAHMOOD